تفسير من هدى القرآن

المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

الجزء السابع

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الأعمال باسناده عن أبي عبد الله (ع) قال:

"من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت حتى يصيبه ما يغنيه في نفسه و ماله و ولده ، و كان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام ، و أعطي من الأجر مثل ملك سليمان بن داود في الدنيا " .

تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣١٩

- 2في مجمع البيان أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

"من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدق بزكريا و كذب به ، و يحيى و مريم و موسى و عيسى و هارون و ابراهيم و اسحاق و يعقوب و اسماعيل عشر حسنات ، و بعدد من ادعى لله ولدا ، وبعدد من لم يدع له ولدا. "

تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣١٩

- 3و من خواص القرآن روي عن النبي (ص) أنه قال:

"من قرأ هذه السورة أعطي من الحسنات بعدد من دعى لله ولدا سبحانه لا إله إلا هو ، و بعدد من صدق زكريا و عيسى و موسى و إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب عشر حسنات ، و عدد من كذب بهم ، و يبنى له في الجنة قصر أوسع من السماء و الأرض في أعلى جنة الفردوس ، و يحشر مع المتقين في أول زمرة السابقين ، ولا يموت حتى يستغني هو و ولده ، و يعطى في الجنة مثل ملك سليمان (عليه السلام) ومن كتبها و علقها عليه لم ير في منامه إلا خيرا ، وان كتبها في حائط البيت منعت طوارقه ، و حرمت ما فيه وإن شربها الخائف أمن. "

تفسير البرهان / ج ٣ / ص ٢

الاطار العام

كان الاتجاه العام لسورة الكهف هو بحث علاقة الانسان بزينة الحياة الدنيا ، فجاءت سورة مريم لتركز الضوء على علاقة الانسان بالأسرة و الأولاد أي قضية الامتداد البشري و إطارها السليم.

و ثمة ملاحظتان:

الأولى :يؤكد الإسلام على ضرورة تحديد الانسان لعلاقته بالطبيعة في إطار علاقته الكبرى بربه و ربها، لان الأخرى ، هي التي تحدد أعماله و سلوكه و كيفية تكوين علاقاته.

و يجب أن يضحي بكل شيء من أجل هذه العلاقة ، فهو عبد لربه يحبه و يحب من يحبه و يبغض من يبغضه . فعلاقة الانسان بالطبيعة امتدادية و ليست ذاتية ، فلأن الله أمرنا أن نعمر الأرض و نبني البيت ، و نكون العائلة ، و نحب أولادنا أو نشفق عليهم . فانا نقوم بكلذلك في حدود أوامر الله و توجيهاته.

و لقد جاءت سورة مريم لمعالجة هذه الحقيقة ، و لذلك جاء في الحديث:

"من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت حتى يصيبه ما يغنيه في نفسه و ماله .."و الإدمان يشير الى العمل بهذه السورة ، و تكييف حياة الانسان و علاقاته وفقها ، و من يفعل ذلك فانه يرى خيرا في علاقاته و حينما يأمره الإسلام أن تكون العلاقة بالطبيعة و زينة الحياة (من أموال و بنين وما أشبه) علاقة امتدادية ، في إطار العلاقة مع الله، فليس لأنه يريد للانسان الحرمان من نعيم الدنيا و طيباتها ، إنما يريد له أن يستفيد من ذلك أكبر فائدة ممكنة ، لأن الله هو خالق الحياة و البشر ، و هو أعلم بما يصلحهم و يعود عليهم بالخير ، و بالتالي هو القادر على أن يرسم لهم المنهج السليم في السلوك و العلاقات.

الثانية : إن هناك فرقا بين الوصفة الطبية و الدواء الذي تشتريه بموجبها ، فبينما تشير هي أن الدواء فقط يقوم بملاحقة ميكروب المرض للقضاء عليه . و الكتب التربوية و الأخلاقية تشبه الى حد بعيد الوصفة الطبية ، بينما القرآن دواء و شفاء لأمراض السلوك البشري ، فآياته تلاحق الجراثيم و الأمراض النفسية في قلب الإنسان و تقضي عليها ، لذلك لا يكتفي القرآن أن ينصحك بكيفية تكوين علاقاتك مع أولادك فحسب و انما يتعمق حتى يصل الى جذر المشـــكلة النفسية و يقتلعها ، فيضرب الأمثال و يبين حقائق التأريخ و يحللها.

و قد سميت هذه السورة بمريم لأن علاقة مريم الصديقة بابنها عيسى (ع) كانت علاقة فريدة و نموذجية.

فهب لي من لدنك وليا

بينات من الآيات

دعاء زكريا

] [1]كهيعص[

اختلف المفسرون في هذه الحروف وما ترمز اليه ، و ربما كانت اشارة الى الألفاظ التي تدل على الذكر أو الحديث الذي كان زكريا (ع) يناجي به ربه ، وجاء في حديث ان هذه الكلمات رموز الى أسماء الله الحسنى ، فقد روى سفيان بن سعيد الثوري عن الامام الصادق عليه السلام - حديثا مفصلا جاء فيه: -

) "كهيعص) : معناه أنا الكافي الهادي الولي العالم الصادق الوعد (1) "وجاء في حديث مأثور عن الامام المهدي عجل الله فرجه:

"ان هذه الحروف ترمز الى واقعة كربلاء الفجيعة ، فالكاف اسم كربلاء ، و الهاء هـلاك العتـرة ، و الياء يزيد - لعنه الله - و هو ظالم الحسين ، و العين عطشه ، و الصاد ،(١) تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٢٠.

صبره " (١(

] [2]ذكر رحمت ربك عبده زكريا] بين الانسان و ربه خطان - صاعد و نازل - فالخط الصاعد هو الدعاء ، أما الخط النازل فهو الوحي السماوي ، و حسب ما أتصوره فان هذه الآية تشير الى كلا الخطين ، فمن جهة ذكر الله لعبده عن طريق الوحي أو الكتاب السماوي ، و منجهة ثانية ذكر زكريا ربه طالبا رحمته عن طريق الدعاء ، و قد قال المفسرون في معنى هذه الجملة : " اذكر كيف رحم الله عبده زكريا " و بتعبير

آخر : هذا ذكر عن رحمة الله لعبده زكريا.

] [3]إذ نادى ربه نداء خفيا[

في غمرة الأحداث الرسالية ، و الصراعات المبدئية ، لم ينس أن له شعورا آخر هو الشعور الانساني ، وأن له رغبة أخرى هي رغبته في الامتداد عبر الاولاد ، يحملون رسالته من بعده ، فقد كبت هذا الشعور طويلا ، و حينما أظهره كان خفيا ، ربما لسببين:

الأول : حذرا من ألسنة الناس ، فقد كان رجلا مسنا ، و كانت امرأته عجوزا عاقرا.

الثاني : إن من شأن العبد الصالح ان لا يرى لنفسه حقا على الله ، بل يؤمن بأن كل ما يعطيه الرب فهو تفضل منه و احسان.

] [4]قال رب إني وهن العظم مني[

عنـدما يشيخ الانسان فان عظامه تصبح متراخية هشة و يشعر بالضعف الداخلي.

(1)المصدر.

]و اشتعل الرأس شيبا[

أي تحول الى البياض ، و التعبير بكلمة " اشتعل " تعبير بلاغي يلفت النظر الى المشاق و الصعوبات التي لاقاها في عمره الطويل ، كما توحي أيضا بسرعة الشيب في رأسه.

]و لم أكن بدعائك رب شقيا[

أي لم أكن شقيا بسبب دعائك ، فكلما طلبت منك حاجة أجبتها لي ، وهذا الاسلوب يمثل غاية التأدب في التوجه بالدعاء الى الله سبحانه.

شروط الوراثة

] [5]وإني خفت الموالي من وراءي[

و الموالي هو أولاد العم و الخال و الأقارب البعيدون ، و يبدو انهم لم يكونوا موضع رضى زكريا لفسقهم أو ضعف ايمانهم.

]و كانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا[

] [6]يرثني و يرث من آل يعقوب و اجعله رب رضيا[

لم يكن أحد من موالي زكريا (ع) أهلا لوراثته ، لذلك طلب من الله سبحانه و تعالى ان يرزقه وليا تكون فيه هذه الصفات الثلاث:

/ 1أن يرث ماله و علمه ظاهرا و واقعا.

/ 2أن يرث عائلته ، فبعض خصائص الفرد شخصية ، بينما بعضها الآخر مرتبط بالعائلة التي تمثل خطا معينا في الحياة.

/ 3أن يكون مرضيا عند الله و عند الناس.

و هذه هي الصفات التي ينبغي أن تكون في الوارث ، و زكريا لم يقل ولدا بل قال وليا ، وهذا طلب عام ، فليس المهم الولد بل المهم أن يكون الوارث امتدادا للموروث حتى لو كان من غير ولده.

] [7]يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا]سوف نرزقك ولدا ، يحمل مواصفاتك ، و رسالتك ، و سوف يقوم بعمل جديد لم يسبقه اليه أحد ، و هذا منتهى رغبة الانسان في الولد : أن يكون وارثا له و مكملا لخطه ، فإذا قام بعمل اسلامي ولم ينتصر فيه ، فان ابنه يواصل هذا العمل ، بنفس الاندفاع و الحماس الذي كان عنده حتى يكتب له النصر ، وكان زكريا وارث أموال كثيرة عبر زوجته التي كانت من نسل النبي سليمان (الذي وهب له الله ملكا عظيما ، ولم يكن له مثيل) ، وكان يخشى على هذه الأموال أن تصرف في أي طريق غير طريق الله ، و كان في ذات الوقت الحبر الأعظم ، و خشي انيرثه في هذا المقام الديني واحد من أولاد عمه غير اللائقين بمقام قيادة الأمة.

و قد استجاب الله له دعاءه ، و آتاه من لدنه فضلا حيث رزقه يحيى . ذلك الولي الذي ليس فقط ورث أمجاد الماضي التليدة ، بل و يفتح عهدا جديدا حافلا بالمكرمات ، إذ لم يجعل الله له سميا ، و لعل في الآية اشارة الى أمرين:

أولا : ان يحيى (ع) سوف يحقق المزيد من الانجازات ، لا توجد في التأريخ الرسالي السابق له ، بلى .. ان يحيى قاوم السلطات الجائرة التي استولت على قيادة النصارى ، و ضحى بنفسه في هذا السبيل ، و كان مثله بين أتباع عيسى (عليه السلام) مثل الامام الحسين (ع) في أمة جده محمد (ص. (

ثانيا : ان على الانسان أن يتطلع الى ولد يرث الماضي ، و يصنع المستقبل كما يحيى (ع. (

] [8]قال رب انى يكون لي غلام و كانت امرأتي عاقرا و قد بلغت من الكبر عتيا]كيف يكون لي ولد ، بينما الشروط الطبيعية اللازمة غير متوفرة ، فامرأتي عاقر لا تلد أساسا ، وأنا عجوز قد تجاوزت مرحلة الفتوة و الشباب كثيرا ؟!

] [9]قال كذلك قال ربك هو علي هين[

فالله عز وجل الذي خلق الكون كما خلق القوانين الطبيعية الحاكمة فيه ، و هو قادر على تغييرها حين يشاء بلا صعوبة.

]و قد خلقتك من قبل و لم تك شيئا[

حينما يفكر الانسان في نفسه : كيف خلقه الله و أوجده من العدم ؟! فانه يدرك أن الله على كل شيء قدير ، و بالتالي يتلاشى تعجبه من بعض الظواهر الغريبة غير المألوفة . فلما سكن روع زكريا ، و أطمأنت نفسه قال : آمنت بك ، ولكن كيف أواجه الناس اذا قالوا : منأين أتت هذه الأسرة العجوز بهذا الولد ؟!

حكمة الاعتزال

] [10]قال رب اجعل لي ءآية قال ءآيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا[

عادة ما تكون الآية و جودية كناقة صالح ، و عصا موسى ، أما أن يعتزل الناس ولا يتكلم معهم فهذه آية غريبة..

لقد فكرت بهذا الموضوع و وصلت الى هذه النتيجة و هي : أن السكوت و الصمت في بعض الأحوال يكون أبلغ أثرا من أي كتاب أو كلام لسببين:

/ 1لأن هذا السكوت يجعل صاحب القضية غير عابىء بمايقول السفهاء عنه ، و صامدا أمام محاولات التشكيك من قبل الأعداء.

/ 2ولأنه يجعل الناس يعودون الى أفكارهم ، و يتحملون مسؤوليتها ، فليس بالضرورة أن يتكلم الداعية و

يهدي الناس بلسانه دائما ، بل يلزم عليه أحيانا أن يدعهم بدورهم يفكرون ، واذا فكروا فانهم كثيرا ما يصلون الى الحقيقة ، لذلك بعد الثلاثة أيام استغل زكريا(ع) الموقف ، و أخذ يتحدث مع الناس في مواضيع أخرى غير قضية ولادة يحيى (ع) وما يحيط بها من ملابسات كانت تستغرق منه وقتا طويلا لتبيينها للناس.

و هكذا فان العمل في سبيل الله يتطلب تجاوز الجدال في القضايا الشخصية الى معالجة القضايا العامة ، و نشر القيم الرسالية ، و يشير القرآن الكريم الى هذه الفكرة فيقول:

] [11]فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة و عشيا]كانت الفترة التي اعتزل الناس فيها ، و اعتكف في المحراب يعبد الله ولا يتكلم مع أحد ، كافية لكي يفكر الناس ، و يتأملوا ، و بالتالي ينتبهوا الى موضوع طالما يغفل الانـسان عنـه في غمرة أحداث الحياة و شؤونها ، وهو قدرة الله التي تدبر الكون ، و تدبر أمور العباد ، و لذلك وجد زكريا (ع) الأرضية مهيأة لأن يدعوهم الى الإلتزام بحكم الله و شريعته ، و هذا هو معنى التسبيح العملي.

يحيى مثل الوريث الصالح

هدى من الآيات

في اطار الحديث عن الانسان من بنيه ، تحدثت الآيات الأولى من سورة مريم عن زكـريا ، ذلك الشيخ الطاعن في السن ، و الذي ظلت في قلبه رغبة كامنة بثها لربه ، فوهب له الله يحيى (ع. (

و ها هي الآيات القرآنية تبين لنا صفات يحيى ، ومن خلال صفاته يتبين لنا كيف ينبغي أن يكون الولد ، و كيف ينبغي أن يتطلع الوالد الى ولده فيما يرتبط به ، و فيما يرتبط بالمجتمع.

وهناك وجه آخر لهذه العلاقة وهي علاقة الأم بابنها حيث يبينها السياق من خلال قصة مريم ، تلك الوالدة الرسالية التي وهب الله لها غلاما زكيا ، و كانت مثلا ، و قدوة ، و اسوة لكل الوالدات.

و من خلال العرض القرآني لصفات يحيى و قصة مريم ، تتبين لنا عدة أمور:

الأمر الأول : ان التربية المثالية التي يتوجب على الوالد أن يقوم بها تجاه ابنه ينبغي أن تسير في عدة خطوط:

/ 1أن يتطلع الوالد الى أن يكون ابنه امتدادا له ، و مجسدا للميزات التي تتصف بها عائلته ، فالانسان وريث حضارة قد تعب من أجلها الآخرون ، و قد تراكمت التجارب البشرية حتى تحولت الى حضارة ورثها الفرد ، كما ان تجاربه هو ، و مكاسبه ، و خبراته ، قد تجمعتهي الأخرى ، و تراكمت عنده و تحولت الى قواعد سلوكية ، وقيم انسانية ، و عمرانية ، كل ذلك يتجمع عند الانسان ، وعليه أن يسلمها الى الجيل الثاني ، و هذه هي مسؤولية الانسان كما هي رغبته الفطرية ، وان رغبة الانسان الفطرية تتلخص في كلمة و هي : أنه يريد أن يرباذا أغمض عينيه ، ورحل عن الحياة ، من يتابع مسيرته ، و يجسد قيمه ، و يحتفظ بخبراته و مكاسبه.

/ 2ينبغي أن يكون الوالد عالما ، بأن الجيل القادم سوف لا يكون بالضبط مثل جيله ، بل سيكون جيلا له خبراته ، و عليه مسؤولياته ، وله ظروفه الخاصة ، و بالتالي ينبغي أن تتوجه تربيته لابنه باتجاه بناء الجيل القادم ، حسب ظروف و متغيرات و مسؤوليات ذلك الجيل ، ليعيش أبناؤه لمبادئهم المتطورة كما يعيشون ماضيهم التليد ، ولكي لا يكون لهم بعد واحد هو تكرار الماضي ، و اجترار مافيه ، بل يكون لديهم بعد آخر هو بناء الحاضر و التطلع للمستقبل.

/ 3أن يربي الانسان ابناءه على الارتباط بالماضي ، و عدم الانفصال عنه ، و أحد نتائـج ذلك هـو : أن الأب عندما تقعد به السنون عن العمل ، و يصبح جليس البيت ، فان ابنه لا يتركه وحده ، بل يحن اليه ، و يكون بارا به.

و هكذا فان الصفات التي تتكون عند الأبناء هي : أن يكونوا امتدادا للحضارة التليدة و حماة لها ، بل يكونوا بناة لحضارة جديدة ، و هذه الصفات الثلاثة تجسدت في يحيى (ع. (

الأمر الثاني : ان القرآن الحكيم يضرب لنا أمثلة مثيرة ، تتجسد فيها نوعية خاصة من طبيعة ذلك الموضوع الذي يريد أن يبينه.

فاذا أراد أن يضرب مثلا لعلاقة الأب بابنه فانه لا يأتي بأي أب وأي ابن ، أو يضرب لنا من واقعهما مثلا ، كلا .. فذلك لا يثير الانسان ، بل يبين قصة تأريخية ، ذات نوعية فريدة و يضربها مثلا ، لا لكي تبقى في الذاكرة فقط ، و انما ايضا لأن ذلك المثل يبقى مثالا بارزا كالشمس لا يحتاج الانسان للبحث عنها ، وفي هذا المورد يذكر لنا القرآن قصة يوسف و والده يعقوب ، و اذا أراد أن يضرب لنا مثلا عن تطلعات الأب تجاه ابنه ، و صفات الابن تجاه هذه التطلعات فانه يضرب مثلا من قصة زكريا مع ابنه يحيى ، واذا أراد أن يضربلنا مثلا عن علاقة الأم بابنها فانه لا يبحث عن أي أم في العالم ، وانما يضرب المثل من قصة مريم الصديقة التي كانت متحررة من الدنيا ، ولكن الله سبحانه لم يشأ لها أن تبقى هكذا متحررة فأراد أن يبتليها بالإبن و هذه هي سنة الحياة . لقد شاء أن يقول لها : عليكأن تتحملي مسؤوليتك كام ، الى جنب مسؤولياتك كمربية ، و هادية للناس ، أو متعبدة و زاهدة في المسجد ، و هكذا بين القرآن الحكيم الحالات النفسية ، و الحالات المادية الصعبة التي يجب ان تجتازها الأم و تبقى صامدة ، و هل هناك حالة أصعب من فتاة عمرها عشر سنوات، لم تتزوج ، ولم تر بشرأ ، حملت فهجرت بيتها ، و تركت أهلها الى الصحراء ، فجاءها المخاض الى جذع النخلة ، وهي لا تعرف ماذا تصنع ؟!

فلتكن هذه المرأة مثلا لكل النساء لكي لا يتهربن من مسؤوليات الأمومة التي هي مسؤولية الحياة الطبيعية ، بل ينتظرن العاقبة ، تلك العاقبة . التي انتظرتها مريم ورأت كما رأى الناس كيف كانت حسنة و خيرا و رحمة.

الأمر الثالث : الجمع بين رسالية الانسان و طبيعته ، فلكي تكون رساليا ليس من الضروري أن تترك طبيعتك ، و مسؤوليتك الاجتماعية في الحياة ، بل يمكن أن تكون رساليا ، و في نفس الوقت أبا أو ابنا أو أما ، و تحتفظ بكل المسؤوليات الاجتماعية التي يقوم بها أي فرد عادي.

بينات من الآيات

وآتيناه الحكم صبيا

] [12]يا يحيى خذ الكتاب بقوة وءاتيناه الحكم صبيا[

ولد يحيى واعطاه الله الرسالة ، وأمره بأن يجعل كل حياته ، و جماع عزمه ، و شدة بأسه في الالتزام بتبليغ هذه الرسالة ؛ فقد يأخذ الانسان شيئا وهو غير مطمئن الى طبيعته أو نتيجته ، بينما يبحث فرد آخر عن نفس الشيء ، ويأخذه بقوة وهو مطمئن به مصمم على الدفاع عنه ، وهكذا أمر الله يحيى بأن يأخذ الرسالة ، ولعله لذلك بقي يحيى حصورا فلم يتزوج ، شأنه شأن عيسى (ع) بل أعطى كل حياته للرسالة الالهية ، متحديا الحالة المادية التي طغت على بني اسرائيل ذلك اليوم وانغماسهم في الشهوات العاجلة.

ونتساءل : لماذا أعطى الله يحيى الحكم صبيا ؟ و الجواب : -اولا : اكراما لوالده العظيم و لكي يكون آية لبني اسرائيل ، و للناس جميعا ، و لأنه جاء ليصحح مسيرة الأمة بعد انحرافها ، و قد استشهد في سبيل الله ، و كان من الطبيعي أن يكثر الطغاة الدعايات المضللة حوله ، فأعطاه الله آية لصدقه.

ثانيا : لأنه منذ نعومة أظفاره كان في مستوى تلقي الوحي ، فقد جاء في حديث مأثور عن أبي الحسن الرضا (ع: (

"ان الصبيان قالوا ليحيى اذهب بنا نلعب ، قال : ما للعب خلقنا ، فأنزل الله تعالى : " وآتيناه الحكم صبيا " . (١)حينما طلب زكريا من الله سبحانه و تعالى أن يرزقه وليا فان أقصى ما كان يأمله هو أن يكون انسانا رساليا ، ولكن الله تفضل عليه ، وفضله على الآخرين ، فأعطاه ولدا يحمل مسؤولية الرسالة ، و جعله اماما للناس . ولما يزل صبيا.

و هكذا فلنعلم بأننا اذا أخلصنا لربنا ، و دعوناه دعاء خفيا ، متضرعين اليه ، آنئذ لا يستجيب الله لنا دعاءنا فقط بل و يعطينا أكثر مما كنا نأمل.

وكان تقيا:

] [13]وحنانا من لدنا و زكاة و كان تقيا[

هذه هي الصفات النفسية التي كانت عند يحيى:

الصفة الولى : هي أنه كان يحن على الناس ، إننا نجد أن أكثر الناس يعيشون لأنفسهم ، وقليل أولئك الذين يعيشون للناس جميعا ، بعيدين عن السجن المحيط بذواتهم ، وهذه هي الصفة الاجتماعية المثلى التي يجب أن يتحلى بها الابن ، وعلى الوالد أن يربي ابنه على الروح الجماعية ، فلا يقل له : لا تخرج مع أولاد الجيران لأنهم يضربونك ، أو لا تدعهم يرون هذا المتاع عندك لئلا يطلبونه منك ، فهذا مثل للتربية الخاطئة ، بل على العكس من ذلك اذا أعطيت لابنك درهما قل له : اذا اشتريت شيئا تقاسمه مع زملائك ، فيجب أن تربي ابنك منذ نعومة أظفاره على أن يحن على الناس ، و يرى نفسه مسؤولة عن الآخرين.

و ينبغي أن يكون هذا الحنان في اطار توحيد الله سبحانه ، فقد يكون للحنان جانب سلبي ، و هو أن يحن الانسان على الآخرين فيخضع لهم ، و يخرج عن حدود(١) تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٢٥.

الله ، و هذا خطأ ، انما يجب عليه أن يحن عليهم ، و يخضع لله ، و هكذا كان يحيى ، و لعل الآية تشير الى ذلك.

الصفة الثانية : التقوى . و الأحاديث كثيرة عن تقوى يحيى (ع) و كيف كان يخاف الله و يخشاه ، يقال : بأن زكريا كان يمنع ابنه يحيى من أن يحضر مجالسه لأنه لم يكن يحتمل مواعظ والده ، ولكن يحيى جاء و اختبأ تحت المنبر ، فصعد زكريا و أخذ يخوف الناس نار جهنم، و اذا به يجد يحيى يخرج من تحت المنبر باكيا ، و يهيم على وجهه في الصحراء ، فأخذ الناس يبحثون عنه في كل مكان ، فلم يجدوه الا بعد فترة جالسا على ماء ، يبكى بكاء مرا ، و يناجي ربه ، و يدعوه أن ينجيه من نار جهنم ، و قد ورد في حديث شريف ، عن أبي بعير قال :قلت لأبي عبد الله (ع) عن قوله في كتابه " حنانا من لدنا " قال:

"انه كان يحيى اذ قال في دعائه يا رب يا الله ! ناداه الله من السماء لبيك يا يحيى سل حاجتك " (١)[
١٤] الصفة الثالثة- :

]وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا[

انه كان يحسن معاملة والديه ، و يعتني بهما . و يبدو ان هذه الصفات الثلاث التي وردت في الآية و هي : الحنان ، و التقوى ، و البر ، تنبع جميعا من صفة واحدة و هي : العلاقة الايجابية مع أبيه و أمه و مجتمعه.

ان الولد المشاكس يسميه القرآن جبارا ، و الجبار هو الذي يعيش لنفسه فقط ، و حسب أهوائه ، و يتصرف حسب بغضه و حبه ، و يرى نفسه أعلى من الآخرين ، و لكن يحيى لم يكن جبارا ، ولم يكن عصيا ، أي لم يكن يهدف العصيان و التمرد(١) المصدر / ص ٣٢٦.

على والديه أو على الناس.

] [15]و سلام عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيا]ان من الأمور التي كان قد طلبها زكريا هي أنه قال : " و اجعله رب رضيا " ، و في هذه الآية نرى استجابة الله تعالى لهذا الطلب ، فقد عاش يحيى سالما ، و معه السلام ، فالمجتمع أحبه ، و الله أحبه ، و في المستقبل - بعد موته - سوف يحبه الناس .

ان يحيى قد استشهد في سبيل الله ، ولكن الشهادة في نظر الاسلام تعتبر سلاما بالنسبة الى المؤمن ، فالانسان اذا كان يجب أن يموت ولابد ! فلتكن ميتته الشهادة ، ليحصل على السلام الذي يعني النجاة و الخير ، بلى ان للانسان ثلاثة مواقع صعبة عليه أن يمر بها:
يوم يولد ، و يوم يموت ، و يوم يبعث حيا ، و اذا كان في هذه الأيام الثلاثة محاطا من قبل الله بالسلام فانه سعيد حقا ، جاء في حديث مأثور عن الامام الرضا (ع) انه قال:

"إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاث مواطن ، يوم يولد و يخرج من بطن أمه فيرى الدنيا ، و يوم يموت فيرى الآخرة وأهلها ، و يوم يبعث فيرى أحكاما لم يرها في دار الدنيا ، وقد سلم الله عز وجل على يحيى في هذه الثلاثة المواطن ، و آمن روعته فقال : " و سلام عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيا " و قد سلم عيسى بن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال : " و السلام علي يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حيا " (١(

و كان أمرا مقضيا

] [16]و اذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا[

تلك كانت قصة يحيى و أبيه عليهما السلام ، و بعدها يبدأ ربنا سبحانه في سرد(١) المصدر / ص ٣٢٧.

قصة مريم و ابنها عيسى عليهما السلام حيث جلست مريم في مكان شرقي ، في الغرفة التي بنيت في شرق بيت المقدس ، و لعل معنى " انتبذت " تنحت عنهم ، تواضعا لله ، و جلست مكانا لا يتردد عليه أحد ، كما ان اختيارها للجانب الشرقي ربما كان لأنه الأقرب الى الطهارة لشروق الشمس عليه.

] [17]فاتخذت من دونهم حجابا[

أي جعلت حجابا بينهم و بين نفسها لكي تتفرغ لعبادتها باخلاص دون أن يشغلها أحد ، ولعل الآية توحي بأن صلاة المرأة في المخدع أفضل من غيره ، و جاء في الحديث:

"مسجد المرأة بيتها"

]فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا[

هنا إرتاعت مريم الصديقة الطاهرة (عليها السلام) فلأول مرة في حياتها ترى بشرا سويا يأتيها ، و لم تعرف لماذا أتى ؟ وما هو هدفه ؟ خصوصا وإنها قد احتجبت عنه ، و مجرد دخوله عليها من دون إذنها كان أمرا عجيبا.

و تمثل الروح هو ظهوره في هيئة معينة ، و الهيئة التي أرادها الله لروحه كانت على هيئة بشر سوي ، متكامل ، لعله لامتحان مريم الصديقة العذراء ، باعتبار ان البشر السوي أكثر إثارة لغرائز المرأة.

] [18]قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا[

كانت شجاعة ، و كانت مؤمنة ، و عرفت كيف تتعامل في الموقف الصعب ، فتوجهت الى ذلك الرجل قائلة : إني أعوذ بالرحمن منك لو كنت تقيا ، فحذرته من الله حتى يرتدع عما قد يريد من الفاحشة ، و الاستعاذة بالله دليل عمق الايمان ، إذ أن كثيرا من المؤمنين قد تذهلهم المفاجأة عن الركون الى ربهم في الموقف الصعب ، أما مريم فلقد استعاذت منه بالله الرحمن ، فهدفت أمرين:

تقوية ارادتــها ، و بعث الرعب في قلب الطرف الآخر ، ثم ذكرته بأن عمله مخالف للتقوى.

] [19]قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا][٢٠] [قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني

بشر و لم أك بغيا]هنا نرى ان مريم لا تزال محتفظة بكل أعصابها أمام هذه المفاجأة و هي في سن مبكر فأخذت تحاور الملك ، و تقول : إني لست متزوجة ، كما أني لست باغية ، فكيف أرزق ولدا!

] [21]قال كذلك قال ربك هو علي هين[

لأن الله قال : بأن ذلك عمل هين بالنسبة اليه ، و هدفه من ذلك هو ان يكون هذا الوليد آية له على خلقه ، و يبدو أن الملك العظيم حملها مسؤولية بهذا القول ، إذ بين لنا أن عليها أن تتحمل صعوبة الحمل و الولادة ، و تهم الناس و ما أشبه من اجل هداية الناس ، لأن وليدها سوفي يصبح آية الله على الناس.

]و لنجعله ءاية للناس و رحمة منا[

بالاضافة الى ذلك فهو رحمة للناس ، علمه رحمة ، و رسالته رحمة ، و اعماله رحمة ، و لعل الملك العظيم هدا خاطرها بهذه الكلمة ؛ فإن آيات الله قد تكون من نوع آخر ، بينما و ليدها المنتظر سيكون رحمة للناس ولها أيضا.

]وكان أمرا مقضيا[

و انتهى جبرائيل الملك الذي تمثل لمريم في صورة بشر سوي من الاجابة على تساؤلات مريم ، و قال : إن ذلك أمر من الله ، أما كيف يحدث هذا ؟ و لماذا يحدث ؟ هذا أمر قد قضاه الله سبحانه و تعالى و قدره.

يا ليتني مت قبل هذا

هدى من الآيات

تحدثنا في الدرسين الماضيين للسورة عن العلاقة بين الانسان و بين والده أو والدته ، و انه يجب أن يكون في إطار التقوى ، ذلك ان المحور الأساسي في حياة البشر ينبغي أن يكون العبودية المطلقة لله سبحانه.

و لكن يطرح هذا السؤال : لماذا ينبغي أن تكون علاقتنا بأبنائنا ، بل كل علاقاتنا في إطار التقوى و عبودية الله ؟

و الجواب:

أولا :ان سنة الحياة و طبيعتها هي : ان كل شيء من اله و الى الله : " انا لله وإنا إليه راجعون " بمعنى أن الحياة الطبيعية و الفطرية قائمة بالعبودية المطلقة لله ، إذن يجب أن تكون علاقاتنا انعكاسا للحياة الطبيعية الموجودة في الكون.

من الذي وهب لي ابنا ؟

و من الذي قدر لهذا الابن أن ينمو ؟

و من الذي يسبغ هذه النعم ان شاء ، أو يمنعها ان شاء ؟ أوليس الله ؟!

ثانيا :حينما تسوأ علاقتنا بأبنائنا بسبب ظلمهم ، تبقى علاقتنا بالله سليمة ، و اذا اعتمدنا على التقوى آنئذ لا نجد ركنا نلتجىء اليه سوى الله.

و نستوحي من هذه الآيات أيضا معنى الفرج بعد الكرب ، و بالذات في بناء الأسرة الأصعب من كل بناء ، الزواج هو تحمل مسؤولية الحياة بكل أبعادها ، فالزواج و الولوج في امتحانات عسيرة ، و متعددة الجوانب ، ومن دون ثقة كاملة بنصر الله قد تتهاوى ارادة الانــسان و تخور عزائمه ، ولهذا يضرب القرآن هنا مثلا للفرج بعد الكرب الذي أصاب مريم.

بينات من الآيات
المخاض الصعب

] [22]فحملته فانتبذت به مكانا قصيا[

حينما أرادت مريم أن تتزهد لتعبد الله ، انتبذت مكانا شرقيا ، قريبا ، في بيت المقدس في غرفة فيه ، و اتخذت من دونهم حجابا ، و أخذت تتبتل الى ربها ، و لكنها بعد الحمل انتبذت مكانا قصيا ، أَضف الى ذلك أن الحمل كان صعبا و مجهدا ، لانها لم ترد (عليها السلام) أن يظهر ذلك للناس ، لذلك ابتعدت عنهم.

] [23]فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة[

كم طالت الفترة بين حمل مريم و بين مخاضها ؟ هناك أحاديث عديدة : بعضها يقول : ستة أشهر و هو الحديث الأقوى ، و بعضها يقول تسع ساعات ، لأنها حملت في بداية النهار ، و فرغت من حملها في نهايته ، و بعضهم يقول ساعتين - الله أعلم - و انما نحن مع هذه الآية التي تصور لنا حالة صعبة كانت تعيشها مريم (ع (بحيث ان المخاض يجبرها على أن تلتجىء الى جذع النخلة ، فحينما جاءها المخاض ، لم تجد دارا أو بيتا تلتجىء اليه ، و انما وجدت شيئا واحدا وهو جذع نخلة.

]قالت يا ليتني مت قبل هذا[

فتاة عذاراء ، تركت الدنيا ولم تر مسؤوليات الحياة ، - سواء كانت مسؤوليات البيت أو مسؤوليات المجتمع - لأنها كانت متعبدة ، و متحررة من علاقات الدنيا ، و ياتيها المخاض ، و هذه أول تجربة لها في الحياة ، فلم تعرف كيف تتصرف تجاهها ، كما انها كانت وحيدة في الصحراء ، و لم تجد من يمد لها يد العون !آنئذ شعرت بمشقة بالغة و كرب عظيم فقالت:

]وكنت نسيا منسيا[

و الانسان يريد الحياة و ما فيها من علاقات ليشاع له الذكر الطيب بين الناس و لذلك يتحمل الانسان كل الصعوبات ، فهو يخوض الحرب مثلا ، و يعرض نفسه للموت من أجل ان يقال : ان فلان بطل شجاع ، و لكن مريم تناست حتى هذه الرغبة في ذاتها ، و تمنت لو انها كانتنسيا منسيا.

و النسي المنسي ، هو الذي نسي و نسي أنه قد نسي ، فصار و كأنه لم يكن أبدا ، فقد ينسى الانسان شيئا ، ولكنه يتذكر أنه قد نسي شيئا ، فيفكر حتى يتذكر ، أما ان تنسى و تنسى انك قد نسيت ، فهذا هو النسي المنسي ، وكأن مريم (عليها السلام) تمنت لو نسيت ولم يبق لها أي أثر يذكر.

الخلف الطيب:

] [24]فناداها من تحتها[

اختلف المفسرون فيمن ناداها ؟! هل كان جبرائيل باعتبار ان مريم كانت واقفة على ربوة و جبرائيل كان واقفا تحت الربوة ، لذلك كان هو المنادي ، أو كان عيسى ، و أتصور أن المنادي هو عيسى الوليد الجديد ، وهذا ينسجم مع سياق الحديث القرآني ، بينما جبرائيل لميكن اسمه مذكورا في سياق هذه الآيات.

]ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا[

يبدو أن مريم حينما حملت فكرت في ما بعد الحمل .. ماذا سيحدث ؟ ماذا سيقول عنها الناس ؟ و حينما وضعت تركزت هذه الفكرة في ذهنها فاحتارت ماذا تفعل ؟ و الى أين تذهب ؟ لذلك فان أول كلمة قالها عيسى لها هي : ألا تحزني - أي لا تحملي هموم المستقبل - و هكذا يجب أن تكون المرأة بالنسبة الى مسؤوليات الحياة الزوجية ، فبعض النساء يقلقن من شؤون الحياة ، و يفكرن كثيرا في مستقبل الطفل ، و هذه الأفكار غير صحيحة ، لأن الذي خلق هذا الطفل ، و قدر للمرأة أن تكون أما

سوف يعينها عليــه ، و علينا أن نعيش لحظتنا ، بالرغم من ضرورة التخطيط للمستقبل ، إلا ان التخطيط عمل الفكر بينما الهم عمل القلب ، و ليس من الصحيح ان نتحمل هذه اللحظة خوف هم المستقبل ، و حزن الماضي ، فتصبح الحياة فيها جحيما ، و يبدو من السياق ان كلمة السري أقرب الى مفهوم النهر الرافد ، اذ أنه (ع) أشاراليها بوجود نهر في أسفل الربوة ، هذا من جهة و من جهة ثانية فقد أِار اليها ماذا تطعم و قال:

] [25]وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا]١ - في الأحاديث أن مريم رفعت رأسها الى السماء - و قالت يا إلهي في الأيام العادية التي كنت فيها شابة ، ولا أعاني فيها مرض ولا ألم ، كان الطعام ينزل علي من السماء بدون صعوبة ، والآن في هذه الحالة علي أن أهز جذع النخلة حتى تتساقط علي رطبا جنيا ؟! لماذا ؟ فجاءها الوحي أو قال لها عيسى - لا أعلم بالضبط - انه في ذلك اليوم كانت علاقتك فقط بي و ما كنتي تعرفين إلا الله ، أما الآن فقد توزعت علاقتك بين الله و ابنك ، و لذلك لابد أن تهزي جذع النخلة.

 - 2و هناك تفسير آخر لهذه الآية و هو : أن على الانسان أن يتحمل صعوبات الحياة ، و من دون التعب لا يحصل الانسان على شيء ، فقسم من التعب عليك ، و القسم الآخر الله سبحانه هو الذي يدبره و يقدره.

]تساقط عليك رطبا جنيا[

في الأحاديث (إن أفضل ما تطعم النفساء من الأطعمة الرطب) لأن الرطب يحتوي على كل المواد التي يحتاجها الجسم ، و بنسبة احتياج الجسم ، يقول بعض العلماء ان في التمر ١٣ مادة حياتية و خمسة أنواع من الفيتامين ، لهذا تطعم المرأة الواضع في بعض الدول التمر لمدة أربعين يوما.

] [26]فكلي واشربي وقري عينا[

لا تفكري بهذا الولد كيف يصبح في المستقبل ؟ انه سوف يصبح قرة عين لك.

]فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمان صوما فلن أكلم اليوم إنسيا]لقد بدأت مساعدة عيسى لوالدته من تلك اللحظات الأولى ، و السبب هو ان عيسى كان معجزة في الحياة ، أما في سائر الحالات الطبيعية ، فان على الولد أن يساعد امه متى كبر و اشتد عوده ، و يجب أن تفكر الأم و هي تخوض غمرات الحياة الصعبة أن مستقبلها سيكون مضمونابسبب هذا الولد ، و ان بعد العسر يأتي اليسر ، و العبرة التي نستلهمها هي : ان الصيام في الشرائع السابقة كان مقرونا بعدم التكلم ، فعيسى أشار لمريم بأن تقول للناس : إنني صائمة من دون إٍن تقول كلاما ، لانها اذا تكلمت بطل صومها ، و بالرغم من ان هذا النوع من الصوم قد نسخ في شريعة النبي محمد (صلى الله لعيه وآله (الا ان بعض ايجابياته لا تزال باقية حيث جاء في رواية ماثورة عن الامام الصادق (ع: (

 "ان الصوم ليس من الطعام و الشراب وحده ، ان مريم قالت : " اني نذرت للرحمان صوما " - أي صمتا - فاحفظوا ألسنتكم ، و غضوا أبصاركم ، ولا تحاسدوا ولا تنازعوا " (١)و إنما تستعمل الاشارة بدليل الآيات التالية التي تفيد بأن مريم أشارت بيدها الى ولدها ليعلم القوم انها لا تتكلم.

التهمة المفتراة

] [27]فأتت به قومها تحمله[

امرأة عذراء ، غير متزوجة ، صغيرة السن ، تحمل ولدا رضيعا!!

]قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا[

أي عظيما عجيبا.

(1)وسائل الشيعة / ج ٧ / ص ٣٩٠.

ويبدو انهم في البداية لم يتهموها بالفاحشة ، و لكنهم شيئا فشيئا اتهموها بها بصورة غير مباشرة:

] [28]يا أخت هارون ما كان ابوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا]لقد ذكروها بانها أخت هارون ، و الواقع ان مريم لم تكن أختا لهارون ، و انما كانت من عائلة زكية طاهرة نقية يقف في رأسها هارون أخو موسى (عليه الصلاة و السلام) ومن المعروف انه حينما كانوا يريدون أن ينسبوا أحدا الى عائلة كانوا ينسبونه الى عشيرته ، ولأن هارون كان مشهورا بالتقوى و الطهارة ، لذلك قالوا لمريم : " يا أخت هارون " و هذا الأسلوب معروفا أيضا في اللغة العربية ، حيث ان العرب حينما كانوا يريدون أن ينسبوا شخصا الى عشيرته يقولون له : يا أخا فلان.

قالوا لها : نحن نعرف أباك ، فلم يكن سيء الخلق ، و أمك لم تكن بغيا ، فمن أين هذا الطفل ؟! و من هذه الآية نستطيع أن نستوحي مدى تاثير الوراثة و التربية في حياة الانسان ، لأنهم عرفوا ان العائلة الزكية يجب أن تخرج منها امرأة زكية ، و العكس صحيح غالبا ،فمن عائلة غير شريفة لا يستبعد أن تخرج منها امرأة غير شريفة.

] [29]فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا]كيف نكلم من لم يزل في المهد طفلا ؟! فظنوا ان مريم انما تستهزىء بهم ، و لكن لم يلبث عيسى أن نطق بكلام فصيح ، و بين:

أولا : ثلاث صفات أساسية لنفسه : عبوديته لله - وهي أصل كل خير - وانه يحمل كتابا ، وهو نبي.

ثانيا : ثلاث قيم لرسالته ودعوته : " البركة ، و الصلاة ، و الزكاة . "

ثالثا :ثلاث سمات ، لسلوكه و اخلاقه (و برا بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا ، شقيا (رابعا : ثلاث نتائج له و لمن يتبعه (و السلام علي يوم ولدت ، و يوم أموت ، و يوم أبعث حيا. (

من هو عيسى بن مريم

] [30]قال إني عبد الله ءآتاني الكتاب و جعلني نبيا[

ولد عيسى بن مريم (عليه السلام) و هو يحمل الصفات المثلى ، و بالتالي كان قـدوة لنا ، وانما نلقي على هذه الآية الضوء لكي نقتدي بما يمكن أن نقتدي به من ، صفاته (عليه السلام) ، فما هي تلك الصفات ؟ في البداية قال : اني عبد الله ليؤكد صفة العبودية في نفسه ، و بالتالي ينسف قاعدة عبادة البشر ، تلك القاعدة التي كانت من الممكن أن تترسخ في ذهنية بني اسرائيل بسبب الولادة المعجزة أولا و تكلمه في المهد ثانيا ، و معرفته بالكتاب صبيا ثالثا.

و قد يتساءل البعض كيف نقتدي بعيسى (عليه السلام) في هذه الصفات و هل على الأم مثلا أن تبحث عن رسالة لابنها حتى يصبح نبيا ؟ الجواب : كلا .. ان ذلك ليس مهمة الأم ، و لكن على الأم أن تربي إبنها لكي يصبح مبلغا داعيا الى الله مثلما كانت امرأة عمران ، عندما نذرت ما في بطنها محررا ، فلماذا لا تفكر كل امرأة حامل منذ البدء أن تجعل ابنها محررا عاملا في سبيل الله ؟!

ان المرأة إذا فكرت منذ البدء أن يكون إبنها الذي لا يزال في رحمها عاملا في سبيل الله ، وداعيا الى الحق ، فان الله سبحانه و تعالى يبارك لها في هذا الولد.

قالوا لأم الشيخ الأنصاري (و هو أحد كبار علمائنا الزاهدين) : ان ابنك قد أصبح مرجعا دينيا كبيرا !! فلم تتعجب و قالت : لقد كنت أتوقع ذلك ، فقالوا لها : كيف ؟ فقالت : لأني لم أكن أرضعه إلا وأنا على وضوء ، حتى أنه في منتصف الليل عندما كان يستيقظ طالبا الحليب ، كنت أنهض من الفراش لأتوضأ ثم ألقمه ثديي .

ان هذه الأم كانـت منذ البداية تنشد لابنها ذلك المقام الأسمى فأعطاها الله ما طلبت بفضله.

رسالته ؟

] [31]وجعلني مباركا أين ما كنت[

لقـد كان عيـسى يشع بالخير ، و يتفجر المعروف من جوانبه كما العين المعطاء.

و هكذا يجب أن يربي الانسان أولاده على حب الخير ، و العمل للآخرين و ان يكونوا ابدا مركز الحب و ينبوع البركة ، اينما حلوا حلت معهم البركة.

و اننا نقرأ في التأريخ ان فاطمة الزهراء (ع) وقفت في محرابها ذات ليلة تصلي و تدعو حتى مطلع الفجر فدعت الله لكل الناس باستثناء نفسها واولادها ، و كان ابنها الحسين (ع) وهو صبي الىجنبها فقال لها:

"يا أماه دعوت لكل الناس ما عدانا ؟ قالت : نعم يابني .. الجار ثم الدار "انظروا الى تربية فاطمة الزهراء (ع) لابنها ، انها منذ البدء ربت ابناءها على حب الآخرين ، و فعل الخير الى الناس جميعا ، و هكذا كان عيسى (ع) مباركا أينما كان ، يفعل الخير ، و يدعو اليه.

]و أوصاني بالصلاة و الزكاة مادمت حيا[

و الصلاة و الزكاة هما أسمى ركيزتين بعد عبادة الله وحده و توحيده ، و قد استدل عيسى على صدق رسالته بهاتين الركيزتين ، حيث ان اقامة الصلاة و إيتاء الزكاة فريضتان معروفتان.

أخلاقه ؟

] [32]و برا بوالدتي و لم يجعلني جبارا شقيا[

الجـبار هـو الذي لا يرى لأحد حقا عليه ، بينما يفرض على الناس حقوقه ، أما الشقي فهو الذي يسبب لنفسه البلاء ، و الصفات الثلاث التي هي سلوك النبي عيسى) عليه السلام) تعود في الواقع الى جذر واحد ، وهو الخروج عن شح الذات الى افق الحق ، و العيش للناسو ليس للذات ، و جعل الحق و ليس النفس واهوائها محورا.

وإن في هذه الآية تأكيد على دور الأم و ضرورة البر بها ، و قد وصى انبياء الله جميعا بها خيرا ، و البر بها دليل الايمان و وسيلة الزلفى الى الله ، و قد أكد الاسلام على دورها ، و ضرورة البر بها ، فهذا النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يسأله رجل:

"من أحق الناس علي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : اباك " (١)و مرة جاءت أم سلمة الى رسول الله تشكو اليه حالة بنات جنسها و تقول : ان كل الفخر للرجال ، فيقول لها الرسول (ص: (

"بلى .. اذا حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم ، القائم ، المجاهد بنفسه و ماله في سبيل الله ، فاذا وضعت كان ما من الاجر مالا يدري احد ما هو لعظمه ، فاذا(١) وسائل الشيعة / ج١٥ / ص ٢٧٠

ارضعت كان لها بكل مصة تعدل محرر من ولد اسماعيل ، فاذا فرغت من رضاعة ضرب ملك كريم على جنبها وقال : أستأنفي العمل فقد غفر لك " (١)[٣٣] [والسلام علي يوم ولدت و يوم اموت و يوم ابعث حيا]فحقيقة السعادة أو الشقاء تتجسد منذ لحظة الولادة.

وإنه بعدما وضح عيسى) عليه السلام) أهداف ومحتوى رسالته المبدئية ، اراد ان يكمل هذه الاهداف

بتوضيح الاطار الاجتماعي لرسالته ، بأنه لم يرسل جبارا ، فيعثي في الأرض فسادا ، بل أرسل رحمة الى الناس و سلاما ، يحمل السلام اليهم منذ لحظة ولادته ، الى لحظةبعثه للحياة مرة اخرى.

و كلمة اخيرة : ان هذا الدرس يلخص قيم الرسالة فيما يرتبط بدور الأم ، و كيفية تربيتها لوليدها.

وان وراء كل قصة في القرآن قيمة حضارية.

(1)جامع السعادات / ج ٢ / ص ٢٦١.

لماذا الإمتراء و كيف نزيله ؟

هدى من الآيات

كنا مع عيسى (عليه السلام) و قد بشر برسالته صبيا ، و أمر الناس بأن يعبدوا ربهم.

و القرآن الحكيم يوفقنا هنا ليبين لنا حقيقة هامة و هي : إن الخلاف العقائدي الذي انتشر حول عيسى (عليه السلام) ، إنما كان بسبب عدم معرفة الله ، و الجهل بصفاته و أسماءه و بقدراته الواسعة المطلقة ، و بكيفية خلقه للأشياء ، و إن هذا الخلاف ينبع من ضعفالايمان بالآخرة.

ان خلق الله للكون إنما هو خلق أرادي إذ يقول للشيء : كن ، فيكون دون أدنى تأخير ، لذلك فربنا تعالى لا يحتاج الى أن ييتخذ ولدا أو معينا يرثه ، بل هو الذي يرث ما في السموات وما في الارض جميعا ، و الذين قاسوا ربهم بأنفسهم لم يعرضوا الفرق الشاسع بين طبيعة المخلوق و صفات الخالق ، لذلك قالوا : عيسا إبن الله.

و الايمان بالآخرة يسقط الخلافات الدينية ، لأن قسما كبيرا من هذه الخلافات نابع من الأهواء و الشهوات ، ومن عدم تحمل مسؤولية العلم ، و من إن الذين كلفوا ببيان العلم أختاروا شهواتهم على دينهم فباعوا علمهم ببضع دراهم معدودة.

فالقرآن الحكيم يذكر الناس بيوم القيامة أبدا ليبين إن هذه الخلافات تتبخر إذا كان الايمان بالمعاد إيمانا راسخا ، ذلك أن الانسان يختلف مع الآخرين في الدين حينما لا يتخذ الدين محورا لحياته ، بل تكون أهواؤه و شهواته هي المحور أما لو إتخذ الدين محورا بحث عنه بجد و فكر بموضوعية . فإن الله سيؤيده لمعرفة الحقائق بسهولة.

بينات من الآيات

كن فيكون

] [34]ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون[

أي إن هذه القصة التي نقلها القرآن الحكيم عن عيسى كانت قول الحق الذي لا ريب فيه ، أما الناس فانهم يمترون و يجادلون فيه لعدم معرفتهم بالله و بالبعث ، و يوضح القرآن ذلك فيما يلي من الآيات:

] [35]ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه[

إن من صفات الألوهية صفة القدرة و الهيمنة و الخلق ، فكيف يتخذ الخالق من مخلوقيه ولدا له ؟!

الولد واحد من إثنين : أما ان يكون ولدا بالتبني أو بالولادة ، فالولد بالتبني إنما يكشف عن حاجة الأب الى ذلك الولد ، والله سبحانه أسمى من أن يتخذ ولدا بالتبني لأنه قادر لا يحتاج إلى شيء.

أما لو افترضنا أن الولد بالولادة فهناك نظرية فلسفية معقدة تقول بأن الكون قد خرج من الله كما تخرج أشعة الشمس من القرص ، و كما تخرج الأوهام من القلب ، و كما يصدر الماء الرافد من النبع - فسبحان الله ! - إن هذا إلا قول جاهلي بعيد عن صفة الألوهية و الربوبية و تناقض في ذات الوقت ، إن طريقة خلقه سبحانه للأشياء هي مجـرد الارادة و المشيئة ، فقد خلق الله المشيئة ثم خلق الأشياء

بالمشيئة .. يقول : " كن فيكون " و ليس لفظة (كن) تعني التلفظ بها ، و إنما هي مجرد الارادة . وليس خلقه للأشياء عن طريق الممارسة و المعالجة ، حتى يخرج شيء من شيء فيسمى بالولادة وإنما عن طريق الآمر و الابداع ، إذن فنسبة الأولاد إلى الله خطأ ، وإذا صحت هذه الفكرة فلابد أن تصح في الكون كله فنقول بأن السماوات والأرضين وما فيهمــا أولاد لله ، لأنها كلها خرجت من الله - سبحانه - حسب هذا القول الجاهلي ، وهذا قول متناقض في ذاته فكيف يكون المخلوق خالقا ؟!

حينما يلد شيء من شيء فلابد أن يكون الوليد من جنس الوالد و مما لا جدال فيه أن الإبن فيه كل الصفات الموجودة في والده ، و ليس في مجال البشرية فقط وإنما كل شيء ، فأشعة الشمس صفاتها نفس صفات الشمس ، و الماء الذي يخرج من النبع صفاته نفس صفات النبع .. وهكذا فلابد أن تكون الأشياء المخلوقة في الكون تحمل صفات الخالق .. (صفة الحياة .. الخلود .. الثبات و عدم التغير) و هذه الصفات غير موجودة في الخلق و إنما هي صفات منحصرة في الخالق فقط . ولو افترضنا وجودها في المخلوق إذا لما كانت هنالك حاجة الى الخالق!

و أساسا فان هذه الفكرة متناقضة يرفضها العقل ، و الله سبحانه ينسف هاتين الفكرتين معا في آية واحدة حينما يقول:

"ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه"

و لماذا يتخذ الله ولدا ؟ إن ذلك ليس من صفات الألوهية ، فالله سبحانه غني عن كل شيء ، و غير محتاج الى شيء ، فما حاجته الى أن يتخذ من بين مخلوقاته ولدا ؟!

ومن جهة ثانية ان خروج الولد من الله لابد أن يكون عن طريق التناسل أو الانقسام وهذا غير وارد لأن الله سبحانه غير مركب من أجزاء وإلا أفتقد صفة الكمال المطلق التي تشهد له بها كل ذرة من ذرات هذا الكون.

]إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون[

إن الله خلق الكون بهذه الطريقة أنه يقضي أمرا فيقول له : كن فيكون ، و ليست خلقته بصدور شيء عنه أو ولادته منه سبحانه . (١)[٣٦] أما رسالة عيسى فلم تكن رسالة تدعو الناس الى عبادته ، وإنما تدعوهم الى عبادة الله وحده ، و كيف يدعو الاله الى عبادة غيره لو كان عيسى إلها - حاشا لله - ؟!

الصراط المستقيم

]وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[

هناك تساؤل : ما هي العلاقة بين الجملتين في هذه الآية الجملة الأولى التي تقول "و إن الله ربي و ربكم فاعبدوه " و الجملة الثانية التي تقول : " هذا صراط مستقيم " ؟

إن العلاقة هي علاقة العمل بالفكر ، و بالتالي علاقة الحياة الدنيا بالآخرة ، إن إيمانك بالله و عبوديتك المطلقة له هما اللذان يرسمان خريطة مسيرتك في الحياة و يعطيانك الضوء الكافي لتحركك نحو الله ، " هذا صراط مستقيم " فاذا عبدت(١) عالج المؤلف هذا البحث بتفصيل في كتاب " العرفان الإسلامي. "

الله وحده فسوف ترسم لنفسك الصراط المستقيم الذي يؤدي بك الى الله ، أما إذا لم تعبد ربك فان حياتك سوف تكون منحرفة ، ولا يمكنك أن تصل الى أهدافك ، وهذه هي العلاقة بين الجملتين.

بالرغم من إن هذه كانت رسالة عيسى الى قومه إلا أن قومه اختلفوا فيه إختلافا واسعا حتى أن قسطنطين إمبراطور الروم جمع ألفين و مائة و سبعين من الأساقفة في مجمع كبير وطرح عليهم سؤالا خلاصته : من هو عيسى ؟

فاختلفوا بينهم الى عشرات الآراء ، بعضهم قال : إن عيسى هو الله نزل الى الأرض ، ثم رجع الى السماء و بعضهم قال : إن عيسى إنما هو إبن الله ولنا إلاهان هما : الأب و الابن ، و بعضهم قال : إنه واحد من ثلاثة الأب والابن و روح القدس ، و بعضهم قال : هو جزءان : جزء إلهي و جزء بشري ، و بعض قال : إنه عبد الله .. و هكذا ، و لم يتفق منهم سوى ثلاثمائة و نيف إجتمعوا على رأي واحد .فاعتبره الأمبراطور الرأي الحائز على الأكثرية النسبية (حوالي سدس الآراء فقط) و جعله الرأي السائد الذي لا يزال أقوى النظريات الشائعة اليوم بينهم.

و في الحقيقة إن هؤلاء إختلفوا في عيسى هذا الاختلاف الشاسع ، بالرغم من إن القضية كانت واضحة جدا [فالذي خلق الكون هو الذي خلق عيسى و طريقة خلقه لعيسى هي نفس طريقة خلقه للكون " كن فيكون "] و هذه الآية تشير الى الاختلاف بالرغم من أنها لاتوضح أسبابه.

الحزبية طريق الضلالة

] [37]فاختلف الأحزاب من بينهم[

الناس العاديون كانوا على الفطرة ، ثم بعد ذلك ظهرت بينهم أحزاب مختلفةو لم يكن هدف تلك الأحزاب (الحقيقة) إنما كان هدفهم شيئا آخر وهو (أنفسهم أو طائفتهم) ولعله - لذلك ينسب القرآن الاختلافات الى التحزب.

في البداية ينشأ التحزب ثم يتبعه الاختلاف ، فلكي أجمع أنا مجموعة من الناس حولي و لكي يجمع منافسي مجموعة أخرى من الناس حوله ، فلابد أن نخلق نوعا من الاختلاف بيننا حتى أكون أنا شيئا و هو شيئا آخر ، و خيال البشر يستطيع أن يكشف أبدا بعض الفروقات ، و أنيخلق بعض الأمور الخلافية ، لأن الخلاف ليس أصلا إنما هو فرع للتمحور الذاتي . ولكن تتبخر هذه الخلافات التحزبية المصطنعة في يوم القيامة.

]فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم[

يذكرنا القرآن بأن هذا الخلاف لم يكن خلافا دينيا ، و لم يكن من أجل الله ، إنما كان من أجل شهواتهم و أهوائهم بدليل و صفهم بالكفر ، " فويل للذين كفروا " و عبارة " من مشهد يوم عظيم " تشير الى موقفهم يوم القيامة.

] [38]أسمع بهم و أبصر يوم يأتوننا[

لو تراهم ولو تسمعهم في ذلك اليوم الذي يأتون فيه الى الله سبحانه لاكتشفت بأن الظالمين في هذه الدنيا كانوا في ضلال مبين ، فبدل أن يبحثوا عن طريقة لانقاذ أنفسهم من نار جهنم ، ومن أهوال يوم القيامة ، فانهم أخذوا يبحثون عن الدنيا و عن بعض الشهوات البسيطة و الانانيات و الخلقيات الضيقة.

"أسمع بهم و أبصر " أي ليكن سمعك و بصرك متوجها إلى هؤلاء في ذلك اليوم حتى ترى و تسمع واقعهم وهم يقفون خائفين مرتجفين في المشهد العظيم أمام الله سبحانه و تعالى.

]لكن الظالمون اليوم في ظلال مبين[

إن الظالمين اليوم في ضلال ظاهر يمنعهم عن إحساسهم بذلك عدم تصورهم للمصير و لو تصوروه لما اختلفوا ، بل اتخذوا الدين مقياسا لهم ، و لتحاكموا إليه بدل أن يختلفوا فيه.

] [39]وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر[

أعمالهم -أفكارهم - طاقاتهم تذهب سدى ، و يقى لديهم شيء واحد يكون زادهم الى القيامة ، وهو الحسرة و الندامة ، لأنه في ذلك اليوم لا يجدون طريقة للعودة ولا يجدون فرصة أخرى لتصحيح مسيرتهم وإصلاح ما افسدوه من انفسهم.

]وهم في غفلة وهم لا يؤمنون[

لكن الناس اليوم في غفلة عن ذلك اليوم ، وهم لا يؤمنون ، و عندما يزعمون أنهم مؤمنون فانهم يكذبون لأنهم لو كانوا كذلك لما اختلفوا ، و لما تحزبوا ، بل اعتصموا جميعا بحبل الله.

في الحديث الشريف ، أنه يؤتى يوم القيامة بكبش أملح فيوضع بين أهل الجنة و أهل النار ، بعد أن يستقر أصحاب الجنة في نعيمهم و أصحاب النار في جحيمهم ، فينادي المنادي يا أهل الجنة هل تعرفون هذا الكبش ؟ إنه الموت ، فيذبح ، فآنئذ تكون الحسرة الكبرى لأهل النار لأنهم لا يموتون فيتخلصون من العذاب ، ولا يخفف عنهم العذاب فيستريحون ، وإنه لو ظل الموت موجودا في الآخرة لمات أهل الجنة فرحا بنقل الموت عنهم و بقاءهم خالدين في الجنة ، و لمات أهل النار حسرة على خلودهم في النار.

الله الوارث:

] [40]إنا نحن نرث الأرض و من عليها وإلينا يرجعون]هذه الأرض وما عليها من مباهج و متع ليست لهم ، انها بالتالي تعود إلينا فنحن الوارثون لها ، و هم بدورهم يعودون إلينا ليحاسبوا فلماذا التحزب والاختلاف من أجل هذه المتع الزائلة ، من هنا نقول :إن الخلافات البشرية خصوصا تلك التي تتقولب ضمن الأديان و الرسالات الساوية يجب أن ننسفها بطريقتين:

الطريقة الأولى : بتذكرة الناس بربهم ، ليؤمنوا بخالق الكون.

الطريقة الثانية : بتذكرة الناس بيوم القيامة.

ولو عرف الناس ربهم لأنتهى الخلاف النابع من الجهل ، و لو عرف الناس أنهم سيبعثون في القيامة لانتهى الخلاف النابع من الجهالة ولأن الخلاف اما يأتي من الجهل واما من الجهالة ، لا غيرهما فانه يتلاشى مع معرفة الله و الايمان بالآخرة.

و أعتزلكم وما تدعون من دون الله

هدى من الايات

علاقة الانسان بربه يجب أن تكون فوق علاقاته ألأخرى بل تكون موجهة لسائر العلاقات ، و إطارا لسائر الروابط الاجتماعية ، وفي طليعتها رابطة الانسان بأسرته.

ومـــن القضايا الطبيعية في حياة الانسان ، إستلهامه من أبيه : الفكرة و الخبرة ، فالأجيال البشرية تتلاحق و يرث كل جيل ، أفكار السابقين ، و يورثها للاحقين ، و الله سبحانه قد أركز في الانسان غريزة التقليد و إتباع الآباء ، كما أركز في الآباء غريزة التعليم لنقل أفكارهم الى أبنائهم بل وإكراههم عليها.

بيد إن هذه الغريزة التي هي من السنن الكونية يجب أن لا تترك بعيدة عن التوجيه ، بل على الانسان أن يوجهها في ذاته و يوجهها في الآخرين ، فالابن الذي يطيع والده و يتبعه من دون تفكير لا يكون فقط عاجزا عن إبتداع تجارب جديدة ، بل يكون أيضا غير صالح لنقل التجربة فالتجربة ينقلها جيل يكتوي بنارها ، و يعرف قيمتها و يستلهمها بأرادته و حريته ، اما الجيل الذي يضطر الى قبول تجربة السابقينو إستلهـــام أفكارهم فانه لا يمكنه أن يعرف قيمة التجربة ، و بالتالي لا يمكنه أن يستفيد من هذه الخبرة شيئا كثيرا ، إذ يصبح آلة عمياء لا يستوعب الحقائق التي تجري حوله.

من هنا .. يركز القرآن الحكيم في هذه الآيات على مسألة نقل الأفكار من الجيل السابق الى الجيل اللاحق و يحدد في ذات الوقت طريقة التعامل بين الأجيال.

كثيرا ما يفكر الجيل الناشيء فيجد أن أفكار الأجيال السابقة إنما هي أفكار خاطئة و غير سليمة ، و لذلك يتوجه هذا الجيل نحو التغيير و الاصلاح و تطوير الأفكار و الأساليب ، فيحدث الصراع بين الأجيال ، كل جيل يوجه الحياة الى طرف معين و هذا ليس من مصلحة المجتمع ، فالمجتمع الذي يعيش صراع الاجيال ينهار بسرعة ولا تكتسب الأجيال الناشئة فيه تجارب الأجيال السابقة.

وفي هذه الآية الكريمة نجد القرآن الحكيم يركز على طريقة التعامل بين الأجيال ليقول : حتى لو كان الخلاف حول محور أساسي كعبادة الله فينبغي ان يتم عبر أساليب مرنة ، لذلك نجد إبراهيم يوجه خطابه لأبيه قائلا : " سلام عليك سأستغفر لك ربي. "

ولكن إذا لم تنفع المرونة ينبغي أن يكون الاعتزال ، لأنه هو الحل الأخير ، فحينما وجد إبراهيم إن أباه لم يهتد ، وإن قضية التوحيد لا يمكن أن تخضع لأهواء والده و لضلالات الأجيال السابقة ، فانه قرر أن يثور ، ولكن كيف كانت ثورته ؟

إنه لم يقتل أباه و لم يتمرد عليه ، وإنما إعتزل ما يعبد بعد أن جادله بالحسنى و أعتقد أن هذين الاسلوبين ، الأسلوب المرن ثم إسلوب الاعتزال هما أمثل طريقة للتعامل بين الاجيال في قضايا الصراع و في حالات التغيير.

هناك ملاحظة تبدو في هذه الآيات وهي : إن القرآن الحكيم يركز الضوء هنا على مشهد واحد فقط من قصة إبراهيم الخليل (عليه الصلاة و السلام) ، و هو مشهد الحوار مع أبيه ، بينما ترك سائر المشاهد كمشهد صراعه مع النظام القائم و مع المجتمع الجاهلي ، و لعل السبب ان هذه السورة تركز على موضوع علاقة الانسان بأسرته ، و علاقته بالأقربين إليه.

كما إن القرآن الحكيم يبين حقيقة أخرى و هي : إن الانسان الذي يترك أهله و يعتزلهم لوجه الله ، فان الله سبحانه سوف يعوضه بآخرين ، أحسن منهم ، و القرآن الحكيم يؤكد هذه الفكرة في هذا المشهد من حياة إبراهيم الخليل ، حيث يبين بأن الله قد عوضه عن أسرته السابقة بأسرة جديدة ، و جيل جديد ، ووهب له إسماعيل و إسحاق و يعقوب و ذرية طيبة منهم ، و نجد تكرارا لهذه الفكرة في الدرس القادم ..

بينات من الآيات

] [41]و اذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا[

كان إبراهيم قدوة و كان صديقا ، صدق بكل ما أنزله الله ، ان بعض الناس يصدقون و يعملون بما أنزل الله ولكن بشرط أن لا يتعارض و مصالحهم ، اولا يكون صعبا ، بينما إبراهيم كان صديقا آمن بكل ما أنزله الله من هدى و برامج برغم كل الضغوط و الصعوبات ، و كان نبيا مرسلا من قبل الله.

] [42]إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا]لقد وصل إبراهيم بفطرته و بهدى ربه الى نتيجة وهي : إن عبادة الآلهة الحجرية خطأ لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تستطيع أن تفعل شيئا.

في كثير من الأوقات يصل أبناء البشر الى نقطة محورية فطرية واضحة و لكنهم بعدئذ يتركون الأمر ، ولا يفكرون تفكيرا جديا في متابعة ما توصلوا إليه ، بل كل إنسان يعيش في مجتمع فاسد تبرق له بعض الأحيان من هدى ربه بارقة هدى ، لو سار وراءها لاهتدى ، ولذلك نرى إن هؤلاء الذين يعيشون في أقاصي الأرض بعيدين عن هدى الرسالات الالهية ، تبقى لله عليهم حجة تتمثل في انهم في بعض لحظات حياتهم يصلون الى بعض النتائج الأولية ، و يجب أن تكون لديهم الشجاعة الكافية للأستمرار في الأخذ بها و البحث عما وراءها ، أما إذا كانواجبناء فلله عليهم حجة ، لماذا جبنوا و لماذا لم يهتدوا بنور عقلهم حين أضاء لهم الطريق ؟

بعد رحلة قفل أبو ذر الغفاري راجعا الى قبيلته ، وإتجه الى صنمها يتبرك به كعادتهم حين يعودون من سفر يبدأون بأصنامهم فبرقت في نفسه بارقة هدى ؟! فسأل نفسه : إن الصنم ليس إلا صخرة صماء ، فلماذا أعبد الحجر الأصم ؟ وما عساه أن يفعل بي ؟ فقرر أن يجربه ، ففكر في خطة بأن يضع أمام الصنم شيئا من الطعام و الشراب ، فاذا أكل و شرب فلابد أنه على حق و هكذا فعل ، فوضع أمامه قدحا من اللبن و جلس عنده ناحية يراقب ، فلم يطعم الصنم شيئا فقال : ربما يخجل مني ، فذهب واختبأ وراء صخرة و أخذ يراقبه ، و بعد فترة إذا بثعلبان يأتيان و يشربان اللبن ، ثم يتبولان على الصنم و يغادران

المكان دون ان يمسهما الصنم بأذى فأنشد أبو ذر يقول:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالبفترك عبادة الأصنام.

إن مثل هذا المشهد كان يتكرر عند كثيرين في التأريخ الجاهلي ، ولكن لم يكن أحدهم يمتلك شجاعة أبي ذر ، لذلك فأنهم كانوا يسايرون الأوضاع الفاسدة ولا يجدون في أنفسهم حرجا من ذلك ؟

إن الانسان قد يفكر تفكيرا حرا وعلى أثر تفكيره هذا يكتشف إنحرافا كبيرا فيهتدي بسببه الى كل البرامج الرسالية ، فاذا عارضه والداه في تلك النقطة ستنكشف له سائر النقاط و تصبح هذه النقطة البسيطة بداية لمسيرة طويلة ، هكذا نجد إبراهيم يقول لوالده : "يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا.. "

وحينما اكتشف إبراهيم تلك النقطة تشجع و استمر في محاولات الكشف ، فكشفت له نقطة أخرى و هي : إن إتباعه لأبيه خطأ ، لأن أباه يعبد صنما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئا.

إن هذه قفزة جديدة لا يصل إليها الانسان عادة ، خصوصا الانسان الذي يعيش في جو عائلي مغلق يفرض عليه إتباع والده ، لكن إبراهيم و صل الى تلك القفزة بشجاعته و باتباعه لفطرته..

ولاية الشيطان

] [43]يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك[

إن مقياس الطاعة و التقليد هو العلم ، فاذا كنت أنا أعلم منك فلابد ان تكون أنت الذي تطيعني و ليس العكس.. !

]فاتبعني أهدك صراطا سويا[

واجه إبراهيم (ع) أباه بهذه الشجاعة ، حيث طلب منه أن يتبعه لأنه يمتلك العلم ، و هذه إشارة بأن الاعتبار الأول في القيادة العلم ، و ليس شرطا عمر القائد أو منزلته.

] [44]يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا]عـرض إبراهيـم على أبيه في البداية أن لا يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ، وهنا يقول له : لا تعبد الشيطان ، فالشيطان هنا هو الذي يتجسد لهم على صورة صنم ، او على شكل و ساوس نفسية فيزين لهم عبادة غير الله ، و مادام الشيطان عصيا لله ، فهو - بطبيعة الحال - لا يهدي الى سبيل الرشاد ، بل يقود الناس على ما هو عليه من العصيان.

لماذا وضـع الله كلمـة (الرحمـن) في مقابل الشيطان ، و لم يضع مثلا " الرب "؟ ربما لكـي يوضـح حقيقة هامة ، وهي إن الشيطان هو حالة ضد الرحمة و نقيض لها.

و عموما فليس المقصود من عبادتهم الشيطان مجرد عبادة الصنم الذي لا يضر ولا ينفع ، بل المقصود أيضا عبادة الشيطان المتمثل في الطواغيت او سدنة الأصنام الذين ينتفعون مباشرة من عبادة هؤلاء.

] [45]يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا]إن الانسان الذي يريد أن يجمع بين الحق و الباطل ، بين الهدى و الضلال ، بين الخير و الشر ، فانه سيجد أن الخير و الهدى قد تبخرا ولم يبق معه سوى الشر و الضلالة ، إذ لا يمكن أن يجتمع عند الانسان الخير و الشر معا ولابد أن يذهب أحدهما وإذا تمادى البشر فيعبادة الشيطان فان الله يسلب منه ضوء العقل فيصبح وليا للشيطان الى الأبد ، وهذا عذاب عظيم يمس الذين يتبعون الشيطان.

ولعل الآية تنفي - بصورة إيحائية - فكرة ضالة يبثها الشيطان في روع تابعيه خلاصتها : إن الله يبغضه وإنما الشيطان يحميه من غضب الرب .. و يسفه السياق هذا الزعم.

أولا : بأن الله هو الرحمن . ولا يبغض أحدا لذاته بل بسبب فعاله القبيحة.

و ثانيا : إن إتباع الشيطان عذاب و شر مستطير و ليس فيه أية فائدة.

هذا هو حوار إبراهيم الذي يتميز بعدة سمات:

أولا : إنه حوار هادىء.

ثانيا :إنه يتدرج و يتصاعد شيئا فشيئا ، ففي البداية يقول لم ؟ ثم يقول لا تعبد ، ثم يقول إتبعني ، ثم يقول : إنه يخشى أن تكون وليا للشيطان.

في الواقع إن عم إبراهيم الذي يخاطبه إبراهيم (ع) بالأب لأنه كان يعيش في بيته كان فعلا وليا للشيطان ، بيد إن إبراهيم لم يجابهه بالحقيقة مرة واحدة ، ولكن لننظر الى الآخر ماذا يقول في حواره..

الارهاب في المحيط العائلي

] [46]قال أراغب انت عن ءالهتي يا إبراهيم[

لم يقل أراغب أنت عن الحق يا إبراهيم ، لأن الحق و الباطل لم يكن محورا لعمل "آزر " عم إبراهيم ، إنما قال عن آلهتي لأنه أراد أن يفرض سيطرته و هيمنته.

]لئن لم تنته لأرجمنك[

هذا هو الارهاب العائلي يقول : لأن لم تنته لأرجمنك ، وأرجمنك اما بمعنى ان اقذفك بالحجارة كما يرجم مرتكبوا الكبائر ، وهو أشد أنواع الاعدام ، و اما بمعنى اني لأرجمنك بالضلالة فأقول إنك مارق ، أو أتهمك بتهمة كبيرة أمام المجتمع . و من سياق الآية يتبينأن المقصود هو المعنى الثاني للرجم و ليس الاعدام .

]و أهجرني مليا[

في البداية هدده بالرجم و التشهير ، ثم أمره بأن يهجره ، أي يخرج من بيته نهائيا وهذه عملية نراها اليوم عادة بين الآباء ، حيث يقوم الواحد منهم بطرد ولده إذا وجد لديه عملا ثوريا أو أنه ينتمي الى حركة إسلامية أو يقوم بنشاطات سياسية..

مواجهة الارهاب:

[47]عندما رأى إبراهيم إن الأمر قد وصل الى هذا الحد ، وإنه هجر أسرته فانه سوف تتكرس فيهم ضلالتهم ، لذلك:

]قال سلام عليك[

لعل إبراهيم (ع) كان يريد أن يتبع تكتيكا آخر بعد أن وصلت مواجهته الصريحة مع أبيه الى طريق مسدود ، وهو أن يبحث عن وسائط خير يمكن أن يقنع الأب بدعوته الحقة ، وهذه الفكرة التي نستوحيها من الآية تفيدنا كثيرا في حياتنا العملية ، إذ أن كثيرا من الشباب الذين تنفتح بصائرهم على الهداية و الايمان يريدون أن ينقلوا تلك الهداية الى آبائهم أو أعمامهم أو اخوانهم الكبار ، ولكنهم غالبا ما يصطدمون بالحواجز التقليدية التي تحول دون تقبل هؤلاء ممن هم أصغر منهم سنا و تجربة ، فلا يكون أمام الأولاد إلا أن يلجأوا الى الطرق غير المباشرة فيبحثون عن أصدقاء أو معارف لآبائهم يشترط فيهم كبر السن و الوعي الثوري ، ليقوموا بدور الوسيط في تبليغ الرسالة.

]سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا[

قال إبراهيم لأبيه سأطلب لك المغفرة من الله ، فهو يحبني و يبر إلي ، وكان إبراهيم في استغفاره يريد هداية أبيه ، كما جاء في آية أخرى ، فلما تبين له إن أباه لا يريد أن يهتدي وأنه مصر على الضلال تركه و شانه.

] [48]وأعتزلكم و ما تدعون من دون الله و أدعوا ربي عسى الا أكون بدعاء ربي شقيا]يقـول إبراهيم لأبيه أنت تريد أن تطردني من البيت ، و تقول لي و أهجرني مليا ، حسنا - فأنا بدوري سوف أعتزلكم و أترككم ، ولكن حين أترككم فأن عندي ملجأ آخر ألتجأ إليه وهو الذي يبعد عني الشقاء حينما أدعوه و ألتجأ إليه ، بلى إنه الله ربي.

الأسرة الفاضلة

] [49]فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق و يعقوب[

لقد أصبح إبراهيم مؤسسا لحضارة ، و لخط فكري ، فوهب له الله من رحمته إسحاق و يعقوب.

]وكلا جعلنا نبيا[

إن الله وهب لابراهيم إسحاق و اسماعيل اخوين ، ولكن القرآن يقول وهبنا له إسحاق و يعقوب ليبين إستمرارية الخط الرسالي.

] [50]و وهبنا لهم من رحمتنا و جعلنا لهم لسان صدق عليا]لقد أصبح هؤلاء مضرب الأمثال في العالم ، فحينما يريد الناس ان يضربوا مثلا لأسرة فاضلة ، فانهم يضربون إبراهيم و أبناءه مثلا لذلك ، ولا يزال هذا الأمر منذ أكثر من خمسة آلاف سنة وإلى هذا اليوم ، فهناك أكثر من ألفي مليون إنسان في العالم يكرمون إبراهيم(ع) عبر التأريخ ، وهذا بعض معاني لسان صدق عليا أي ان الناس يلهجون بذكرهم ، و صحيحا ما يلهجون و صادقا ما يقولون.

وهكذا نجد إبراهيم (ع) ترك والده و قومه و هجرهم ولكن بعد أن أتم الحجة عليهم ، و حاول بكل جهده هدايتهم ، و حين تركهم عوضه الله بأفضل منهم ، و جعلهم قدوة صالحة للآخرين.

إذن فعلاقتنا بآبائنا و بمن حولنا يجب ان تكون علاقة رسالية يوجهها التوحيد و الايمان بالله تعالى.

و فكرة أخيرة : إن المجتمعات الثورية الرسالية هي المجتمعات التي لا تخضع للارهاب ، ولكن كيف يمكن للانسان أن يتحرر من الارهاب و كيف يقاومه ؟

إن ذلك يكون عن طريق بناء اسرته على أساس الحرية ، لأن الفرد الذي يخضع في بيته لارهاب والده ، لا يمكنه أن يقاوم إرهاب النظام ، فأرهاب النظام صورة لأرهاب الأسرة ، وإذا تحرر الانسان من إرهاب الأسرة و استطاع ، أن ينقذ نفسه من ذلك المجتمع الضيق الخانق ،فانه يستطيع غدا أن يقاوم إرهاب السلطات الجائرة ، و أما الذي يخضع لوالده كليا خشية بطشه اليوم فكيف لا يخضع للنظام الفاسد غدا ؟!

إن الأسرة هي الأم الحقيقية للمجتمع لذلك فأن قصة إبراهيم مع والده تبين لنا : إن الخطـوة الأولـى في تحرير المجتمع هي تحرير الأسرة من الارهاب و الضغط الفكري..

القدوات الرسالية

هدى من الايات

لكي تكون علاقات الانسان إيمانية سليمة مع أسرته ، و بالذات مع والده و أبنائه و أخوانه فانه يحتاج الى أن يقتدي بأولياء صالحين يتخذ من حياتهم أسوة لتصرفاته.

وفي سورة مريم يذكرنا القرآن الحكيم ببعض تلك القدوات الصالحة ، كما يضرب لنا مثلا من أمثلة السوء الذين عكسوا الآية ، و كانت علاقاتهم سيئة بالنسبة الى أسرهم.

فمن جهة نرى موسى (ع) يتخذ من أخيه هارون مساعدا له في تبليغ رسالته ، و تربطه مع أخيه علاقة رسالية هدفها تبليغ الرسالة الالهية ، و ذلك لأنه كان مخلصا قد أخلص نفسه لله ، و انصهر في بوتقة الايمان فانزاحت عنه سلبيات البشر ، لذلك فهو لم يفكر أن يتخذ منأخيه و سيلة للفخر و الغرور أو أن تكون علاقته باخيه مصلحية شخصية ، بل إنه إستفاد من هذه العلاقة من أجل الرسالة.

و نرى إسماعيل الذي كان صادق الوعد مع الآخرين ، تربطه بأهله علاقة فريدة ، حيث انه كان يأمر أهله بالصلاة و الزكاة ، و لذلك فقد كان مرضيا عند الله سبحانه.

إن هؤلاء زكريا و أبنه يحيى ، و مريم و إبنها عيسى ، و كذلك موسى و أخاه هارون ، و إسماعيل و أهل بيته إبراهيم و ابناءه ، يجب أن يصبحوا قدوات لنا .

من جهة أخرى نرى في الطرف الآخر ذريتهم الذين كان ينبغي أن يكونوا لا أقلا مثلهم أو في مستواهم ، قد ضيعوا الصلاة ، و تركوا عبادة الله ، و اتبعوا شهواتهم.

بينات من الآيات

موسى النبي المخلص

] [51]و اذكر في الكتاب موسى[

ذكر موسى ، و ذكر سائر الأنبياء في القرآن ، إنما كان من أجل أن يتخذوا قدوة و أسوة.

ان من المستحبات الأساسية ، بل أحيانا من الواجبات ، الصلاة على محمد و آل محمد لأننا حينما نذكر رسول الله (ص) فاننا نتذكر صفاته و سلوكه ، و بالتالي نبحث في حياتنا عما يوافق حياة الرسول و نهتدي بهداه ، و هكذا يستحب ذكر النبيين و السلام عليهم بين الحين و الاخر لتوثيق الصلة الروحية بهم ، و ذلك بهدف إتباع نهجهم الصائب و القرآن الحكيم يؤكد هذه الفكرة هنا فيقول : " و اذكر في الكتاب موسى " ، " و اذكر في الكتاب إسماعيل " ، " و اذكر في الكتاب إدريس " .. الخ لكي نشعر بأننالسنا و حيدين في رحلة الايمان الطويلة ، فحينما نتحرك و معنا إبراهيم و عيسى و يحيى و موسى و إسماعيل فاننا سوف نستلهم منهم الاستقامة و الصمود كلما ضعفنا أو أصابنا الوهن.

]إنه كان مخلصا[

لقـد كانت علاقة موسى بالله خالصة ، وإذا كانت علاقتك أيها المؤمن بالله كذلك ، فأن لك علاقة أيضا مع موسى إذ أنه سيصبح أخا لك في الايمان . و قدوة صالحة.

]وكان رسولا نبيا[

فموسى هو أخوك في الايمان و أبوك بالأقتداء ، من جهة هو أخوك لأنه كان مخلصا لله في علاقته ، ومن جهة أخرى هو بمنزلة أبيك لأنه كان نبيا و رسولا إليك.

] [52]و ناديناه من جانب الطور الأيمن[

إن الانسان ليشعر بالاطمئنان حينما يرى إن واحدا من بني جنسه قد تقرب الى الله بهذا المستوى ، حيث ناداه الله و تحدث معه بصورة مباشرة من جانب الطور الأيمن و الطور هو الجبل.

]و قربناه نجيا[

لو أن أحدا كان على مسافة منك و هو يحدثك فأن ذلك لا يعتبر نجوى ، بينما حين يقترب منك و يكلمك حينذاك يصبح حديثه نجوى . لقد قرب الله موسى و تناجى معه ، فأي مستوى هذا الذي يرتفع إليه الانسان حينما يتكلم الله معه و يناجيه ؟!

إن الانسان لا يمكن أن يصبح الله ، و لكن يمكنه أن يصبح قريبا من الله ، و هذا هو أفضل كرامة له على سائر خلق الله.

] [53]و وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا[

ان من النعم العظيمة التي تفضل الله بها على موسى انه استجاب لدعائه فجعل أخاه هارون نبيا معه ليؤازره في مهمته العظيمة.

اسماعيل صادق الوعد

] [54]و اذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد و كان رسولا نبيا[

لقد جاء في الحديث الشريف ان إسماعيل هو اسماعيل بن حزقيل و ليس اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، و انه قد تواعد مع شخص خلف جبل ، فنسي الرجل موعده و لكن إسماعيل ظل ينتظره في مكانه عاما كاملا . و حدث ان مر الشخص صدفة في نفس المكان فوجد إسماعيل ينتظره ، فلذلك سمي بصادق الوعد.

ثلاث قواعد في التربية:

] [55]و كان يأمر أهله بالصلاة و الزكاة و كان عند ربه مرضيا]لقد كان يستفيد من علاقة الأبوة التي تربطه بأبنائه من أجل الله لكي يامرهم بالاتصال الدائم معه عن طريق الصلاة و الزكاة.

في هذه القطعة من الآية ثلاث ايحاءات:

الايحاء الاول : ان من أهم أركان التربية العائلية هي تربية الآبناء على الصلاة ، لانها أساس سائر الاعمال الصالحة ، و هي تقرب الأنسان الى الله.

ليس من المهم أن تلقن طفلك كل صغيرة و كبيرة من الواجبات و الاخلاقيات بل الأهم من ذلك هو أن تربطه بالله برابطة الايمان ، و ذلك عن طريق الصلاة ، فاذا اصبح الولد مؤمنا صادقا في طفولته ، فانه سوف يبحث عن الواجبات بل المندوبة عندما يكبر ، اما اذا كان ايمانه غير ثابت من الأساس ، فلن ينفعه علمه بكل تعاليم الدين.

ان الصلاة عملية منتظمة و القيام بها خمس مرات في اليوم شيء صعب ، لذلك فان الانسان يحتاج الى ان يتعود عليها من الصغر ، و اذا ذاك تصبح جزءا من حياته ، و ضرورة لا يستغني عنها.

الايحاء الثاني : الزكاة قد تكون بمعنى الفريضة الخاصة التي تتعلق بالغلات الاربع و الانعام الثلاث و النقدين ، و قد تعني مطلق العطاء و الانفاق ، و هي بنوعيها تربي الابناء على الخروج من الذات الى الاهتمام بالآخرين.

الايحاء الثالث : اننا نجد في سورة مريم تكرار معنى : الرضا و ما يخالفه من التجبر و الشقاء ، و هذا التكرار يعود لسببين:

الاول :أن الانسان يجب ان يربي طفله على أن يكون متكامل الشخصية ، حتى يكون مرضيا ، يرضى الناس عنه في سلوكياته و تصرفاته ، و بتعبير علمي يجب تنمية حس التوافق الاجتماعي عند الطفل تنمية سليمة ، لكي لا يصبح غير مبال بالاخرين ، بل يفكر فيهم و يرضيهم.

الثاني : ان طبيعة الانسان ان يكون مقبولا في المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ، ومن واجب الوالدين ان يربيا أولادهما بحيث تكون هذه الصفة الطبيعية فيهم متجهة الى الله ، أي في حدود تقوى الله و مناهج رسالته.

ادريس الصديق

] [56]و اذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا[

اما إدريس فان القرآن يذكرنا بصفة من صفاته التي يجب أن تتوفر عند الانسان وهي كونه صديقا . و الصديق صيغة مبالغة من صفة الصادق وهو الذي يصدق في المواقف الصعبة ، و يكون الصدق صبغة لحياته كلها.

يمكن ملاحظة ان ذكر الانبياء في عدة آيات يكون مسبوقا بصفات مختلفة ، فترى مثلا (و كان رسولا نبيا) (و كان صادق الوعد و كان رسولا نبيا) ، (انه كان صديقا نبيا) . مما يوحي الينا فيما يبدو : ان من اسباب نبوة هؤلاء هي تلك الصفات الفاضلة التي تحلوا بها.

فمن دواعي نبوة أحدهم رسالته فحينما يبدأ شخص بحمل رسالة الله بفطرته ، فان الله يختاره نبيا ، لقد كان إبراهيم منذ طفولته يحاور والده و يتكلم معه حول عبادة الاصنام ، و كثير من الانبياء كانوا يحملون الرسالة قبل النبوة ، و ذلك لان الرسالة موجودة في وجدانهم ، فإذا حملها الانسان و رأى الله منه الصدق فانه يرزقه النبوة .وأما لماذا سبقت كلمة (الرسول) كلمة (النبي) في الآية (رسولا نبيا) للاشارة الى ان وسام الرسالة اقدس من وسام النبوة واعلى درجة.

وبالنــسبة لاسماعــيل ربما كان صدقه لوعده هو السبب الذي أهله لحمل الرسالة ، كما أن صفة الصدق هي التي أهلت ادريس لحمل رسالة الله ، حيث ان الله يختار رسله من الصادقين العاملين ، ولا يختار من لا تتوفر فيهم هذه الصفات فيقول ربنا " :الله اعلم حيثيجعل رسالته. "

] [57]و رفعناه مكانا عليا[

أذا أردت العلو ، فكن صديقا مثل ادريس ، لان الصادق يحبه الناس و يرفعونه فيرتفع بين جماعته الى منزلة عالية.

الذرية الصالحة و الخلف الصالح:

]]58]أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية ءادم وممن حملنا مع نوح و من ذرية إبراهيم و إسرائيل و ممن هدينا و اجتبينا]هؤلاء هم الذرية الصالحة التي يجب أن تكيف اسرتك وفق هداها . و لعل تأكيد القرآن الحكيم على كلمة الذرية هنا يشير الى هذه الفكرة.

]إذا تتلى عليهم ءايات الرحمن خروا سجدا و بكيا[

ان الصفة الهامة التي وجدت في هؤلاء بعد هداية الله و اجتبائه لهم هي علاقتهم بالله و قربهم الروحي منه ، و هذا اعلى و سام يحمله الانسان المؤمن الصادق .

ان المؤمنين حينما تتلى عليهم آيات الرحمان و ما فيها من أوامر و نواهي و برامج و اخلاقيات ، فانهم يسجدون دلالة على تقبلهم ، و علامة على استعدادهم لتطبيقها.

ان السجود هو اظهار الخشوع خارجيا ، اما البكاء فهو اظهار الخشوع نفسيا ، لان نفسية الانسان تتفاعل مع الموعظة فتجري دموعه ، و هؤلاء قد خشعوا بهيأتهم و كذلك بنفوسهم فخروا سجدا و بكيا .

] [59]فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا]و هؤلاء هم النموذج الآخر و هم الأمثلة السيئة ، فقد اضاعوا الركن الاساسي للذين مما سبب فساد حياتهم ، و الركن الأساسي هو الصلاة.

و القرآن لم يقل تركوا الصلاة ، بل أضاعوا الصلاة ، و هذا يشمل بالاضافة الى معنى ترك الصلاة معنى آخر و هو تحويل الصلاة الى هيئة فارغة لا محتوى فيها ، فالصلاة الحقيقية هي صلاة المؤمنين الذين يقول عنهم ربنا سبحانه : " و الذين هم في صلاتهم خاشعون" . و هؤلاء الذين اضاعوا الصلاة و اتبعوا أهواءهم و شهواتهم فانهم سوف يسيرون في طريق الغواية و الضلالة بدل الهدى ...

الآخرة حصاد الدنيا

هدى من الآيات

الاسرة الفاضلة في الدنيا هي الاسرة التي تصنع في بيتها جنة معنوية تشبه الى حد بعيد جنات عدن

في الآخرة . ومن عاش في الجنان في الدنيا فحري به ان يعيشها في الآخرة ، فجنة الآخرة توفر للانسان الراحة الروحية و الرفاه الجسدي ، و كذلك الاسرة الفاضلة في الدنيا ، أما الراحة المعنوية فهي السلام ، البعيد عن اللغو ، و الذي هو قمة تطلع الانسان في الحياة ، فحين لا يوجد ألم و لا مرض ولا خوف ولا حزن ولا عقد نفسية ولا حسد ، وما الى ذلك مما تنغص حياة الانسان ، فآنئذ يعيش الانسان في جو من السلام يشمل العافية بكل أبعادها و النجاة من الأخطار جميعها.

و يوم القيامة يدخل ربنا سبحانه المتقين جنة السلام الخالدة ، لان المتقين قد ابتعدوا عن كل ما يسبب لهم انحرافا أو فسادا في الدنيا ، فالآخرة حصيلة الدنيا و أنعكاس لها ، و حسب ما يفيدنا القرآن الحكيم : ان الآخرة هي إرث الدنيا فما تعمل في الدنيا ترثه في الاخرة.

ان الصفات السيئة لها جزاء في الدنيا و جزاء في الآخرة ، فنار الحسد تأكل الانسان في الدنيا مرة ، و في الآخرة مرة ، و ثعبان الحقد يلدغ الانسان في الدنيا بطريقة ، و يلدغه في الآخرة بطريقة اخرى ، و في الآخرة يرى الانسان الحقد في صورة ثعبان عظيم أو عقربة ضخمة تلدغه ،ٍأما في الدنيا فان ذات الحقد يلدغ قلب الانسان ، و لكن دون أن يتجسد في ثعبان ظاهر ، ولا فرق بين أن يلدغ جسمه هناك أو يلدغ قلبه هنا . و هكذا سائر الصفات " ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى و اضل سبيلا . "

و هكذا نعلم بأن جهنم الآخرة انعكاس لجهنم الدنيا ولا أقول : ان جهنم هناك رمز لجهنم هنا كلا .. لان عذاب جهنم في الآخرة أشِد ألما و أشد ظهورا و هي حصيلة هذه و حصاده ، من هنا تاتي آيات القرآن تعبر لنا عن الإرث ، فما هو الارث ، ؟ أليس يعني : أن تعمل ثم يأتي الآخرون ليأخذوا نتيجة عملك بعد ما تموت ، و قد لا يأتي انسان آخر ليأخذ ارثك و انما تكون أنت نفسك بعد موتك تأخذ ما كسبت ، و هذا نوع آخر من أنواع الارث " ونرثه ما يقول و يأتينا فردا. "

هناك شبهة عميقة الجذور في فكر الانسان ، تقول بأنه كيف يمكن للانسان ان يبعث من بعد الموت ؟

ان مصدر هذه الغرابة جهل الانسان ببداية خلقه ، فلو عرف الانسان كيف خلقه الله و ماذا كان قبل ذلك ، و لو تذكر الانسان أنه كان نطفة في صلب أبيه أو مضغة في رحم أمه أو طفلا وليدا لا يتجاوز وزنه (٣) كيلو غراما ، لو تذكر كل ذلك آنئذ يتحسس بأن الذي خلقه ورباه قادر على أن يحيله الى تراب ثم يخلقه مرة اخرى.

ان تذكر هذه الحقيقة بصورة مستمرة يرفع عن الانسان حجاب الغفلة عن الآخرة.

ان شبهات الجهل في قلب الانسان تشبه (الفطر) الذي يتكاثر باستمرار ، هذه هي طبيعة الشبهة الناتجة عن الضعف البشري ، أنت تجوع و تشبع ، ثم تجوع فتشبع ..و هكذا تحتاج ابدا الى الطعام حتى تمنع عن نفسك الجوع ، لماذا ؟ لان الجوع من طبيعتك ، كذلك الشبهات في قلب الانسان .. هي من طبيعته ، اذ طبيعة الانسان الجهل و الغفلة و النسيان . فاذا قرأت كتابا ثم لم تعد قراءته ، أو سمعت خطابا ثم لم نستمع اليه مرة أخرى ، فانك بمرور الزمان تنسى ما قرأت وما سمعت ، لان الجهل و الغفلة من طبعك ، كذلك الشبهات من طبيعة الانسان ، لذلك على الانسان ان لا يكتفي بدفع الشبهات عن نفسه مرة واحدة ، لانه اذا رفعها عادت و نمت نفس الشبهة.

اذا يحتاج الفرد الى مبضع يقوم بواسطته بعملية جراحية مستمرة اقلع الخلايا السرطانية الفاسدة التي تتكاثر في قلبه ، و ذلك عن طريق التذكر المستمر.

وهكذا يوجهنا القرآن الحكيم في مجال الحديث عن البعث الى ان نتذكر ابدا ، كيف كنا ؟ و كيف خلقنا ؟ و كما كنا و خلقنا و ترعرعنا ، كذلك يعيدنا الله سبحانه مرة أخرى.

بينات من الآيات

وعد الرحمن

] [60]إلا من تاب و ءامن و عمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة و لا يظلمون شيئا[

يبين القرآن في هذا السياق ثلاث مراحل مر بها المجتمع:

مرحلة الرواد و القادة و هم (الانبياء) و مرحلة الانحراف بعدهم الذي قال عنه ربنا في آية اخرى : " فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة " ، و من رحم هذا الجيل جاءت طائفة مثلت المرحلة الثالثة حيث أنهم تحدوا سلبيات هذا الجيل الفاسد و تابوا و أصلحوا ، فهيء الرب لهم الجنات.

] [61]جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب[

ان الجنات لا ترى بالشهود ، بل بالغيب و قد قلت في حديث مضى : ان الطالب الذي يجسد امام ناظريه قاعة الامتحان ، و التاجر الذي يتصور يوم خسارته ، و الجندي الذي يتخيل في ذهنه ساحة المعركة ، ان هؤلاء انفع من غيرهم ، و هكذا الحياة كلها و القرآن الحكيم يقول : " وعد الرحمان عباده بالغيب " فالرحمان برحمته الواسعـة يـريد ان يرحم عباده الذين خلقهم فجعل لهم جنة كبيرة مليئة بالطيبات و النعم ، ولكن بشرط ان يؤمنوا بها بالغيب.

]إنه كان وعده مأتيا[

مادام ذلك الوعيد هو وعد الله فهو لا ريب آت.

] [62]لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما[

اللغو هو الانحراف مثل السب و الفحش ، و الجدل ، و كل ما يعكس حالة العداء بين الناس ، و يقابله السلام ذلك النور الذي يضيء الجنة وإن أول وأهم تجليات السلام هـو سـلام القلب حيث يعيش الجميع في ظل رب السلام يشربون من كأس السلام ، و يسرحون في وادي السلام ، ويسمون الى افق السلام ، ولا يبقى غل في قلوبهم ، ولا طمع ولا حسد ، واذا التقى بهم خزنة الجنة حيوهم بالسلام:

"ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود " (٣٤/ق(

و ربهم سبحانه يحييهم بالسلام:

"سلام قولا من رب رحيم " (٥٧/يس(

و سلام القلب يعكس سلامة الاعضاء و العافية من جميع الأخطار الحالية و المستقبلية.

]و لهم رزقهم فيها بكرة و عشيا[

يظهر من هذه الآية و من النصوص ان افضل و جبات الرزق ما كان أول النهار و آخره (١. (

و لعله في الجنة يتبدل الوقت الى ما يشبه الليل و النهار بازدياد النور و نقصه و نتسائـل : اليست الجنة تفيض ابدا بالنعم ، فلماذا إذا الرزق بكرة و عشيا . و الجواب : ان المؤمن يزداد رزقا كل يوم و يسير نحو التكامل هناك ابدا.

فقد جاء في حديث نبوي شريف و تعطيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا (٢. (

] [63]تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا]الجنة ميراث العباد الذين قاموا باكتسابها في الدنيا عن طريق التقوى.

] [64]و ما نتنزل إلا بامر ربك[

لا تنزل الملائكة من السماء الى الارض الا بأمر الله و حكمته ، كما جاء في(١ (راجع تفسير نور الثقلين /

ج ٣ / ص ٣٥١

(2)روح المعاني / ج ١٦ / ص ١٠٣

الحديث :ان النبي صلى الله عليه وآله و سلم قال لجبرئيل:

"ما منعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا ؟"

فنزلت الآية : " وما نتنزل الا بأمر ربك " ، و هذه الآية توحي بأن الوعد الذي وعد الله سبحانه و تعالى عباده بالغيب انما هو وعد أكيد اثبته القرآن ، لا ينزل الا بأمر الله سبحانه.

]له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك[

ان الله تعالى هو الذي وعد و ليس (الملائكة) التي وعدت ، وانما الملائكة رسل لله تأتي بالوعد الى البشر ومن ثم فان الله لا ينسى وعده.

]وما كان ربك نسيا[

الله سبحانه و تعالى وعدكم وهو يعلم و عده و سيفي لكم به ، ولو كان ربنا سبحانه ينسى ، اذا لأختل نظام الكون ، و لما استطاع ان يلبي نداء الكائنات ، و لما استطاع ان يحفظ جزاء المحسنين ، أو يميز المحسن من المسيء حين لقائه.

الايمان بالله و بالبعث

] [65]رب السموات و الارض و ما بينهما فاعبده و اصطبر لعبادته[

ان طاعة الله و عبادته و الاستقامة عليها بحاجة الى صبر عظيم (و اصطبر لعبادته) لان عبادة الله تعني التحرر من كل القيود ، و الارتفاع فوق كل السفاسف ، و الصبر أمام كل الضغوط ، لذلك فان القرآن الحكيم يقول (و اصطبر) أي حمل نفسك الصبر حتى تستطيع أن تعبد ربك..

]هل تعلم له سميا[

لعل أحد معاني هذه الآية هل هناك اله يدعي ولو مجرد ادعاء بانه رب السماوات و الارض ، و رب هذه الآفاق البعيدة اللاّمتناهية ؟!

كلا ، ليس هناك أحد يدعي الالوهية بهذا المعنى ، اما هؤلاء الطواغيت الذين يدعون الالوهية صراحة أو ضمنا ، فان أقصى ما تصل اليه ادعاءاتهم هو أن يقولوا : نحن نمتلك جنودا نسيطر عليهم ، أو اننا نسيطر على قطعة ارض.

[66]هذا عن الايمان بالله سبحانه و تعالى ، و هناك بعد آخر من الايمان هو الايمان باليوم الاخر ، واذا ما آمن الانسان بهذين البعدين (مبدأه و معاده) فانه يصبح انسانا متكاملا ، لذلك يركز القرآن الحكيم دائما عليها.

]و يقول الإنسان أذا ما مت لسوف أخرج حيا[

اتصور ان القرآن حينما يستخدم كلمة (الانسان) دون كلمة الناس أو البشر وما أشبه فان ذلك للدلالة على طبيعته ، فهناك غريزة اركزت في خلقة البشر وهي : ان هذا الانسان كثيرا ما يتساءل اذا ما مت لسوف اخرج حيا ؟!

هل الموت نهاية أم بداية ، أم مرحلة بين هذه و تلك ؟؟

] [67]أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا]على الانسان ان يفكر .. ماذا كنت قبل أن أخلق ، ان الذي خلقني وأوجدني يستطيع أن يعيدني ، وهذا الكلام ليس كلاما يمكن ان يقنعك بمجرد طرحه عليك ، إنما هذا يوافق الوجدان ، فاذا عدت الى وجدانك و تذكرت احوالك الماضية ، و تخيلت العدم الذي كنت فيه ، و كيف جئت بعد ذلك الى الوجود ، آنئذ تفهم قدرة الله سبحانه و تعالى ، و تحيط ببعض اسمائه الحسنى ، و كذلك تعرف نفسك ، و تعرف انك مخلوق ، وانك مقدر ، وان الله هو الذي يدبر حياتك و بذلك تستطيع ان تؤمن بالآخرة.

بينات من الآيات

[68]إن الله سبحانه لا يحضر الانسان وحده في يوم القيامة وإنما يحضره مع شياطينه ، فكما إن الشياطين كانوا يغوون الانسان و يضلونه في الدنيا ، فهم في الآخرة يقومون بدور تعذيبه فالشيطان كان يتبعه في الدنيا (يظلمه و يؤذيه و يجرح كبرياءه) و إنه يراه يوم القيامة أمامه يتلقاه بالصفع و الضرب ، و الشيطان الذي كان في قلبه يدفعه الى اتباع الشهوات ولم يره و لم يشاهد صورته هنا ، ولكنه سيأتي في يوم القيامة بأقبح وجه و أول عمل يقوم به اللعين هو أن يبصق في وجهه و يقول للانسان : ماذا جنيت عندما اتبعتني ، فبئس المصير مصيرك ، فيقول له : لقد اتبعتك فخلصني من النار ، فيجيبه : دعني أخلص نفسي أولا.. (!)

إذن فعلاقاتنا السيئة في الدنيا مع الشياطين (شياطين الجن والأنس) ستستمر الى الآخرة و يصبح هؤلاء إن لم نتب ، قرناء لنا في الآخرة منذ المطلع والى دخول النار و العياذ بالله.

القرآن الحكيم يقول

]فوربك لنحشرنهم و الشياطين[

أي لنبعثنهم محشورين مع شياطينهم الذين اتبعوهم.

]ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا[

يحشر الله الناس حول جهنم جاثمين على ركبهم ، ذلك إنهم لا يستطيعون ان يقفوا على أقدامهم من شدة الخوف إذ يمنعهم الزحام الشديد من الاستلقاء أو اتخاذ جلسة مريحة ، و لذلك هو يضطرون الى اتخاذ وضع الجثو على ركبهم وفي ذلك مزيد من العذاب لهم..

] [69]ثم لننزعن من كل شيعة ايهم أشد على الرحمن عتيا]في يوم القيامة ، يشير الله الى إمام المجرمين فيعزله ، ليكون قائدا لاتباعه الى النار.

و الشيعة : كل مجموعة يشايعون أحدا و يتبعونه..

] [70]ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا[

من الذين يكونون أولى بدخول نار جهنم ؟ انهم أئمة الضلآل و قادة الأنظمة الفاسدة فهم أول من يدخلها ، ثم يتبعهم شيعتهم الأقرب فالأقرب ، الملك أولا ثم رئيس الوزراء ، ثم الوزراء ثم الموظفون ، و هكذا حسب درجاتهم في الدنيا و اتباعهم للامام الظالم ، فأنهميوم القيامة ايضا يتبعونه الى نار جهنم..

] [71]و إن منكم إلا واردها[

كل واحد منكم سيرد نار جهنم..

]كان على ربك حتما مقضيا[

إن هـذا حتـم قطعه الله على نفسه ، فكما ان كل إنسان يدخل الدنيا ليمتحن فيها ، كذلك كل إنسان يدخل النار في الآخرة و عليه أن ينقذ نفسه بما قدم من أعمال صالحة في الدنيا و لقد جاء في حديث

عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، قال:

"يرد الناس النار ثم يصدرون بأعمالهم ، فأولهم كلمح البرق ، ثم كمر الريح ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب ، ثم كشد الرجل ثم كمشيه " (١)وجاء في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول:

"تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي " (٢)[٧٢] [ثم ننجي الذين اتقوا و نذر الظالمين فيها جثيا]يبقى الظالمون جاثين على ركبهم في جهنم ليذوقوا العذاب ، لأنهم ظلموا أنفسهم ولم يتقوا نار جهنم في الدنيا.

يقول رسول الله (ص) في خطبته التي ألقاها قبل شهر رمضان:

"إتقوا الله ولو بشق تمرة"

إن شق التمر الذي يعطيه الانسان سوف يكون له خلاصا من نار جهنم بقدره ، و كل عمل صالح يعمله في الدنيا يصبح زادا لمسيرة الخروج من نار جهنم.

المقاييس المادية

] [73]وإذ تتلى عليهم ءاياتنا بينات قال الذين كفروا للذين ءامنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا]هنا يعالج القرآن مشكلة نفسية أخرى وهي مشكلة تقييم الحقائق بالماديات ، فقد تتلى آية من القرآن على إنسان فلا يستمع إليها باعتبارها آية قرآنية نزلت من السماء ، لماذا لأن الذي يتلو عليه تلك الآية رجل فقير ، فيقول في نفسه : كيف أسمع كلامه ؟! في الحقيقةأنت لا تسمع كلامه ، وإنما تسمع كلام الله ، و هكذا فهو يقيم(١ (نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٥٣

(2)المصدر / ص ٣٥٤

الحقائق بحسب وضعه المادي ، و يقول : أي الفريقين خير مقاما و أحسن نديا.

خير مقاما : يعني أحسن مكانا ، و أكثر نديا : أكثر اصحابا و جماعة.

] [74]و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا]لقد أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة بالرغم من أنهم كانوا يمتلكون الأمتعة و مظاهر الأبهة و العظمة ، لأنهم لم يفكروا أو يعتبروا.

إن الحقائق تقاس بذاتها لا بما يملك الانسان من ماديات و مظاهر ، وإن هذه المظاهر ليست دليلا على ان الله يحب صاحبها أو أنه يرضى بعمله.

] [75]قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا]إن الله يمد في ضلالة الانسان الضال ، بامداده بالنعم ، حتى يفقد الأمل في العودة الى الهداية ، آنئذ يأخذه مرة واحدة أخذ عزيز مقتدر.

]حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة[

أما عذابا بئيسا في الدنيا أو عذابا بئيسا في الآخرة.

]فسيعلمون من هو شر مكانا و أضعف جندا[

آنئذ يعلمون بأن أموالهم و أولادهم لا تغني عنهم من الله شيئا ، كما أن أصحابهم و جنودهم و رجالهم لا يغنون عنهم من الله شيئا إذا حانت ساعة الثورة ، وأحاط بهم العذاب على يد المستضعفين في الدنيا ، أو سبق الأجل ثورة المستضعفين فأخذهم الى نار جهنم ، حينئذ سيعلمون عاقبة الغرور بالدنيا و زينتها . إن فخر الانسان و مباهاته يجب أن يتأخر الى الآخرة ، وإذا خطر بباله أن يغتر بالدنيا فعليه أن ينهى نفسه عن ذلك و يقول لها : إنتظري الى يوم القيامة ، حينما تكون الجنة من نصيبك فآنئذ يحق لك

الأفتخار و الأختيال أماإذا رموك مثلما ترمى القمامة في نار جهنم فهل تستطيع في هذه الحالة أن تدعي لنفسك شرفا ؟ كلا .. انه في نفس الوقت الذي يمد الله في ضلالة الضالين فانه يمد في هداية المهتدين بهداه ، و هذا هو الفرق ، فانك إذا أصبحت مهتديا فان الله يزيدك هدى ، أما الانسان الضال فان الله يزيده شهرة واموالا و أنصارا و يملي له الى حين.

و الباقيات الصالحات خير عند ربك

هدى من الآيات

في إطار الموضوع العام لسورة مريم في ترشيد العلاقة بين الانسان و بين أولاده و أسرته . ولكن لا تضل هذه العلاقة عن الصراط المستقيم . تعالج آيات هذا الدرس مرض النفس البشري و هو الغرور بالمال و الولد ، و تبين أن اهتداء البشر من مســؤوليته إلا إن الله يزيده هدى ، وإن من أهم ما يهدي إليه الرب عبده العمل للمستقبــل . ذلك ان الأعمال الصالحات التي تبقى خير عند الله ثوابها ، و خير مصيــرها ، أما الضالــون الذين يكفرون بآيات الله ، و يفترون بما أوتوا من مال و ولد . ولكن هل اطلعوا على الغيب و علموا ان اللهلا يعذبهم ، أم اتخذوا عند الرحمن بذلك عهدا . كلا .. إن ادعاءه الكاذب بذلك سوف يصبح بذاته وبالا عليه . سوف يمد الله له من العذاب مدا ، و سوف يورثه الله أقواله ، و يمتثل أمام ربه للجزاء وحده من دون مال و ولد .

و تراهم اتخذوا آلهة من دون الله ، ليعتزوا بهم . كلا .. بل سوف تكون عبادتهم للآلهة وبالا عليهم ، فيكفرون بعبادتهم ، و ينقلبون ضدهم . إن الشياطين يثيرون الكافرين ، و يسوقونهم نحو الضلالة ، فلا تعجل في طلب العقوبة لهم . إذ أن استمرار ضلالتهم و كفرهمسيكون سببا لمزيد العقاب عليهم.

هكذا ينبغي أن يتقي البشر الاعتماد على المال و الولد والآلهة ، و تكون صلته بالله هي الأسمى والأعلى و الأمتن.

بينات من الآيات

[76]بما أن آيات الذكر لا تسدي إلينا الوصايا و المواعظ فحسب ، بل تعالج بعمق الانحرافات النفسية التي تجعل الانسان يتورط في علاقات شاذة مع زينة الحياة الدنيا ، من مال و ولد ، سواء بالغرور بها أو بالاستسلام لها من دون إرادة أو تفكير ، وهكذا يؤكد السياق هنا أن (قرار) الاهتداء الى الله من مسؤولية البشر ، فعليه أن يخطو الى ربه الخطوة الأولى . حيث سيتولاه الله بعدئذ برحمته فيزيده هدى .

]و يزيد الله الذين اهتدوا هدى[

و ليس على الانسان أن يلاحظ لحظاته الحاضرة فقط ، وإنما ينظر بعيدا الى المستقبل ، و ماذا يجب أن يعمل فيه.

إن الأعمال الحسنة بالرغم من أنها قد تبدو ضائعة في بادىء الرأي ، الا أنها باقية ، و ستعود الى صاحبها بصورة مضاعفة ، لذلك نجد القرآن الحكيم يقول ، عن الباقيات الصالحات ، " و خير مردا " أي إٍنها ترد إليك أضعافا مضاعفة بعد أن تزكو و تنمو.

]و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا و خير مردا]فجزاؤه أفضل ، و عاقبته أحسن.

بلى إن كل فعل صالح تقوم به اليوم يصبح غدا جنات واسعة تعيش فيها باذن الله خالدا . حتى الكلمات التي يلهج بها اللسان ، وقد يستهين بقدرها المرء تصبح موادا أولية لبناء قصوره في الجنة.

جاء في حديث ماثور عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) عن جده الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) انه قال:

"لما أسري بي الى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها قيعانا يقفا (١) و رأيت فيها ملائكة يبنون ، لبنة من ذهب و لبنة من فضة ، و ربما أمسكوا ، فقلت لهم : ما لكم ربما بنيــتم و ربما أمسكتم ؟ فقالوا : حتى

تجيئنا النفقة ، فقلت لهم : وما نفقتكم ؟ قالوا:
قول المؤمن في الدنيا : سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فاذا قال بنينا ، و إذا أمسك أمسكنا " (٢)[٧٧] ثم يبين بأن أولئك الذين يتعلقون باموال الدنيا ، و يزعمون بان سعيهم و عملهم ينبغي أن يكون من أجل الدنيا ، و من أجل الحصول على المال و الولد . ان هؤلاء على خطأ كبير ، لأن زينة الحياة الدنيا ليس من المؤكد الحصول عليها ، فقد يحصل الانسان عليها وقد لا يحصل.

ولو افترضنا أنه حصل عليها فليس من المضمون أن تكون رحمة ، بل قد تكون عذابا له ، اما في الدنيا أو في الآخرة . وأخيرا فان ما يحصل عليه الانسان قد يسعده في الدنيا ، و لكن هل الدنيا نهاية رحلة الانسان ؟ كلا..

إذن عليه ان لا يحصر كل اهتمامه ، وكل سعيه من أجل الحصول على المال(١) أي اراضي بيضاء.

(2)تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٥٦.

و الولد ، كما عليه أن لا يتعلق بغير الله و يجعله إلها يعبده من دونه ، فان المال قد يصبح معبود الانسان ، كذلك الولد ، و العلم و الغنى.

وعموما إن على الانسان أن لا يفقد ذاته من أجل شيء ، أنى كان ذلك الشيء.

فاذا عشقت العلم لمجرد العلم ، و ليس لمنفعتك ولا لمنفعة الناس ، وإذا أحببت الفن للفن لا لمنفعتك ولا لمنفعة أحد ، وأي شيء في الحياة لو عشقته عشقا مجردا من دون أن تفكر في مدى منفعته لك أو لمجتمعك أو لقيمك ، فان ذلك لن يكون مجديا . لأن هذا الشيء سوف ينتهي ولن يعطيك شيئا ، بل سوف تخسر نفسك ، و تخسر آمالك و تطلعاتك.

نعم : العلم في حدود الايمان ، و الفن من أجل سعادتك و سعادة الناس ، و السلطة من أجل العدالة ، و الثروة من أجل العمارة ، و هكذا سائر أشياء الحياة الدنيا إن كانت من أجل القيم و في حدود القيم كانت نافعة لأننا آنئذ نحب تلك الأشياء لأننا نحب القيم ، أماإذا انعكست الآية وأردنا أن تكون القيم وراء الأشياء ، و تحولت الحياة الى شيء يعبد من دون الله ، فان هذا لن ينفعنا ، لا في الدنيا ولا في الأخرة ، يقول ربنا سبحانه:

]أفرءيت الذي كفر بآياتنا لاوتين مالا و ولدا[

في مقابل الباقيات الصالحات التي يدخرها الانسان لمستقبله ، هناك من يسعى و يدخر جهوده ليس من أجل الباقيات الصالحات ، و ليس من أجل الله ، ولا رسالته ، ولا من أجل المجتمع ، إنما لكي يصبح أكثر أموالا و أولادا.

و القرآن الكريم يقول : " أفرأيت الذي كفر " أي انظر و تدبر في عاقبة هذا الرجل الذي كفر بآياتنا . إن الانسان الذي يسعى من أجل المال و الولد في حدود الايمان بالله و في حدود القيم فلا بأس عليه ، أما الذي يكفر بالآيات من أجل المال و الولد و غرورا بهما فما عليه إلا ينتظر عاقبته ، و يبدو من الآية : إن الانسان يشعر في قرارة نفسه بالضعف ، و فطرته تدعوه الى أن يجبر هذا الضعف الذاتي بالايمان بالله ، وبآياته المبثوثة في الكون ، و المنزلة على النبي في الكتاب ، إلا ان الشيطان قد يضله عن هذا السبيلالحق ، و يغويه بالتمسك بالمال و الولد بزعم انهما يغنياه شيئا و يجبران ضعفه الذاتي ، ولكن هيهات.

هل يعلم هذا الانسان بأنه سيحصل على المال و الولد حتى يؤكد ذلك تأكيدا و يقول : " لأوتين مالا " بلام التأكيد و نونه ؟ كلا .. وأبسط دليل على عدم علم الانسان بالغيب هو أن يحاول كتابة قائمة تفصيلية لما سيعمله غدا ثم يحاول في اليوم الثاني بكلجهده أن يعمل كل الأعمال التي كتبها في برنامجه ، و لكنه سيجد نفسه قد فشل في تطبيق كثير من بنوده لأي سبب من الأسباب .. يقول الامام علي (ع: (

"عرفت الله بفسخ العزائم و نقض الهمم"

] [78]أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا[

إن ضمان تطبيق شيء لا يكون إلا عن طريق أمرين : اما العلم بالمستقبل ، واما قدرة الله ، ولكن الانسان الذي ليس لديه ضمانة من الله ولا علم له بالمستقبل كيف يعتمد على شيء غير موجود . جاء في حديث في سبب نزول الآية ما يلي:

عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله عز وجل : " أفرءيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا و ولدا " (ان العاص بن وائل بن هشام القرشي ثم السهمي وهو أحد المستهزئين ، و كان الخباب بن الأرث على العاص ، بن وائل حق ، فأتاه يتقاضاه ، فقال له العاص : ألستم تزعمون ان في الجنة الذهب و الفضة و الحرير ؟ قال : بلى ، قال : فموعد ما بيني و بينك الجنة فوالله لأوتين فيها خيرا مما أوتيت في الدنيا ، يقول الله عز وجل : " أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول و نمد له من العذاب مدا و نرثه ما يقول و ياتينا فردا و اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا " و الضد القرين الذي يقرن به] [79](1) (كلا سنكتب ما يقول[

وأما ما يحصل عليه عمليا من نعم ومكاسب مادية في الحياة الدنيا ، فمن يضمن أنها ستكون مصدر سعادة له ، بل على العكس من ذلك قد تجره الى تعاسة و عذاب.

]و نمد له من العذاب مدا[

إن هذه النعم ليست سعادة بالنسبة إليه ، و إنما هو ذنب عجلت عقوبته ، كما جاء في الحديث وهو لا يشعر بذلك.

] [80]ونرثه ما يقول و يأتينا فردا[

معنى الآية - كما ذكروا - إن الله يرث ما يقوله الفرد عن المال و الأولاد ، و بتعبير آخر : يرث الله منه ما يعتمد عليه.

إن ما يحصل عليه من المال و الولد سيذهب عنه بعد حين ، و الذين كان لديهم أموال و أولاد ذهبوا عن أموالهم و أولادهم أيضا ، و لم يصحبوا معهم الى القبر سوى قطعتين من الكفن.

الله سبحانه هو الباقي وهو الذي يرث الأرض و من عليها ، فالأولاد والأموال لا(١) نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٥٦

تبقى له ولا هو يبقى لها ، و يوم القيامة يأتي وحده عاريا حافيا حاسرا ، لا يملك أي شيء " ويأتينا فردا . "

] [81]إن البشر يبحث عن شيء أو شخص يعتمد عليه ، و يجبر به ضعفه الذاتي ، و يعالج به شعوره بالضعة و الذلة . فقد يتخذ المال و الأولاد جابرا لضعفه فيعتز بها ، و قد يبحث عن آلهة من أصنام بشرية أو حجرية - فيقول عنه ربنا:

]و اتخذوا من دون الله ءالهة ليكونوا لهم عزا[

هؤلاء بدورهم أتخذوا آلهة إنتموا إليها من أجل أن يكونوا أعزاء ، و أساسا إلانتمــاء الى جهة ما سواء كانت عشيرة ، أو حزبا ، أو تيارا سياسيا ، أو سلطة حاكمة ، أو ما أشبه ، إن لم يكن من أجل الله ، ومن أجل القيم و الرسالة ، فلابد أن تكون من أجل العزة الدنيوية ، ذلك ان الانسان حينما يشعر بنقصه الذاتي فيرى نفسه مهيئا ضعيفا يحاول الانتماء الى جهة معينة ، كان ينتمي الى تيار حزبي مثلا لكي

يعطيه العزة التي يبحث عنها ، وهناك طائفة كبيرة من الناس - وللأسف - يسيرون على هذا النهج ، فهم بالاضافة الى أنهم لن يجدوا عندهم العزة ، فانهم سيكونون عليهم ضدا.

] [82]كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا[

آنئذ سيندمون ندما شديدا ، و يتحسرون على شبابهم الذي ضيعوه في خدمة هذا التجمع الزائف ، و قيادته الكافرة ، و يقولون : لقد اتبعناه و وفرنا له العزة و السلطة على حساب مصلحتنا ، و مصلحة امتنا ، و قيم رسالتنا ، ولم نحصل مقابل ذلك إلا على سخط الله من جهةو عداوة من انتمينا إليهم . وهذه النهاية المأساوية ليست مقصورة على يوم القيامة ، بل هي كثيرا ما تتحقق في الدنيا قبل الاخرة ، إن الطاغية الذي نتخذه من دون الله إلها ، تسمع له ، و تطيع أمره ، و تزعم انه عز لك ، إنه يكفر بعبادتك ولا يوفر الحماية لك ، بلإنه سيكون ضدك لأنه يعيش لنفسه فحسب ، وإذا خالفت مصالحه مصالحك فانه سوف يضر بك عرض الحائط ، و كل تاريخ الطغاة شاهد حق على هذه الحقيقة ، و لعلك تقول : إني لا أعبده ، بل أطيعه . كلا.

إنك تعبده حين تسمع له ، و تطيع أمره ، و ما جوهر العبادة إلا الطاعة . جاء في حديث شريف في تفسير هذه الآية.

عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله : " وإتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا " يوم القيامة أي يكون هؤلاء الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ضدا يوم القيامة ، و يتبرؤون منهم ومن عبادتهم الى يومالقيامة ثم قال : ليس العباده هي السجود ولا الركوع ، وإنما هي طاعة الرجال ، من أطاع مخلوقا في معصية الخالق فقد عبده ، و قوله عز وجل : " إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا " قال : لما طغوا فيها ، وفي فتنتها ، وفي طاعتهم ، و مد لهم في طغيانهم و ضلالتهم ، أرسل عليهم شياطين الانس و الجن " تؤزهــم أزا " أ تنخسهم نخسا ، و تحضهم على طاعتهم و عبادتهم ، فقال الله عز وجل ": " فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا " أي في طغيانهم و فتنتهم و كفرهم " (١(

جزاء الكافرين

] [83]ألم تر أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا[

إن الشياطين يدفعون الكافرين دفعا الى العذاب ، الى حيث النقمة و الشقاء . هكذا يفعل الشياطين بالكافرين ، و لكن الله ليس بظلام للعبيد ، فهو لا يبعث(١) تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٥٧

الشياطين على المؤمن المخلص الذي أنتهج منذ البدء طريق الهدى ، و الشيطان لا يقدر عليه مهما حاول جهده ، أما ذلك الانسان الذي كفر بالله ابتداء ، و ترك الأعتصام بحبله ، و ظل بدون محور صحيح يدور عليه ، ولا قاعدة ثابتة يعتمد عليها ، فأن الله يرسل عليه شيطانايدفعه الى النار في الآخرة ، و العذاب في الدنيا ، والآية هذه شاهدة على الآية السابقة ، إذ إن الشياطين وهم الحكام الظلمة ، و الآحزاب الكافرة ، و إبليس و جنوده ، لا يزالون ينخسون مريديهم و تابعيهم ، و يحرضونهم على طاعتهم حتى يوردونهم نار جهنم.

] [84]فلا تعجل عليهم[

لذلك لا تعجل على هؤلاء الذين يمشون في هذا الطريق ، و ينتمون الى هذه الأحزاب المشبوهة الباطلة ، في سبيل تثبيت الأنظمة الفاسدة : فان الشيطان سوف يدفعهم الى مصيرهم المحتوم . جاء في حديث عن قوله : " ألم تر انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا " قال : نزلت في مانعي الزكاة و المعروف يبعث الله عليهم سلطانا أو شيطانا فينفق ما يجب عليه من الزكاة في غير طاعة الله ، و يعذبه على ذلك " (١)[إنما نعد لهم عدا[

إن كل خطوة يخطونها ، وكل سعي يسعونه ، يتحول الى عذاب يعده الله لهم ، و يحصيه عليهم ، وقد جعل لدى كل واحد منهم رقيبا من الملائكة ، يسجل عليه كل حركاته و سكناته بدقة بالغة ، بحيث لا

يفوته أدق الأمور ، و هذا الرقيب لا يمل ، ولا يتعب ، ولا يعتريه الخلل أو العطل ، و ربما لذلك يستغرق عذاب الآخرة وقتا طويلا ، قد يبلغ ملايين السنين ، وهي الفترة اللازمة لمعاقبة المجرم على كل ما اقترفه في الدنيا من آثام.

(1)المصدر.

فنفس واحد يتنفس المجرم في مجلس الشيطان ، أو في مجلس الظالمين ، أو في مجلـس الســوء أو .. أو . يسجل عليه اثما ، فكيف إذا كان يدفع الجنود الى الحرب ؟!

إن كل عمل تقوم به مهما كان صغيرا سوف يتحول الى عقرب يلدغه يوم القيامة ، وسواء كان يؤمن بهذا الشيء أو لا يؤمن ، فذلك غير مهم ، فليس من الضروري أن تؤمن بأن هذا لشيء الذي تاكله إنما هو سم قاتل حتى يضرك ، فاذا أخذت قرصا و بلعتها زاعما انها قطعة سكر وكان سما ، فهل ذلك يدفع عنك تأثير السم ؟ كلا..

هكذا إذا كنت تخدم الظالم ولا تؤمن بانك تقوم بجريمة ؛ فان ذلك سوف يكتب عليك جريمة ؛ لأنك اخترت طريق الخطأ ، و سواء رضيت أو لم ترض ، فهذا قدر الله و قضاؤه ، و يجب أن تخضع لأمر الله سبحانه .

إن من يريد أن يخلص نفسه يجب عليه أن يتوب سريعا ، أما إذا جاءه الموت أو الساعة ، و قرر أن يتوب فتوبته ستكون غير مقبولة . جاء في حديث شريف حول هذه الآية:

"قال لي : ما عندك ؟ قلت : عندي عدد الأيام قال : لا ، إن الآباء و الأمهات ليحصون ذلك ، ولكن عدد الأنفاس (1)(1) "المصدر.

وقالوا إتخذ الرحمن ولدا

هدى من الآيات

في الدرس الأخير من سورة مريم يذكرنا القرآن بسلسلة من الحقائق ، تلك التي ذكرت بها الدروس السابقة ، و هي تصلح علاقتنا بالناس و الأشياء و أبرزها:

تذكرة الانسان بيوم القيامة ، حيث يحشر المتقون مكرمين الى ربهم و فدا ، بينما يساق المجرمون الى جهنم ليردوها وردا ، وهذه التذكرة ليست تذكرة عقائدية فحسب ، وإنما تخلق أيضا معادلة في فؤاد الانسان ذلك لأنه ، إذا عرف الانسان بداية شيء و نهايته ، فانه يعرفه بصورة أفضل ، و بدون ذلك فان معرفته تكون ناقصة.

وإذا عرف الى أين تنتهي حياته الدنيا ، وما هو مصيرها فانه يكون قد حصل على معرفة عميقة بها ، فيتعامل معها معاملة سليمة ، علما بأن آيات سورة مريم : كما الكثير من آيات القرآن - تهدف فيما تهدف -جعل علاقة الانسان بالحياة الدنيا علاقة سليمة.

و تشير آيات هذا الدرس الى فكرة نفي الشرك ، و بالذات فيما يرتبط برفض فكرة الولد ، ولعل الحكمة في ذلك أن فكرة الولد هي التي تكمن وراء النزعة العنصرية وهي من العلاقات الشاذة بين الانسان و بين الآخرين.

إن الانسان الذي يحسب نفسه إبنا لله ، أو يحسب آباءه هكذا ، تكون علاقته بآبائه و جماعته و عشيرته شاذة ، تتمحور حول (الشيء) ، بينما القرآن الحكيم يهدف تحرير الانسان من العلاقة (الشيئية) في الحياة ، سواء كانت العنصرية أو العصبية اللتان هما من أبرزالعلاقات الشاذة بين الانسان و بين الآخرين . أو غيرهما من العلاقات الشيئية التي تخالفها علاقة القيم المعنوية التي تؤكد أنه ليس هنالك علاقة بين الله و الانسان سوى علاقتين ، علاقة الخلقة ، أي أن الله خلقنا و نحن عبيده ، و علاقة الايمان و العمل الصالح ،و بالتالي علاقة القيم ، أما أية علاقة أخرى كعلاقة الأنتماءات العصبي الجاهلي ، فانها مرفوضة

في الاسلام.

يذكرنا القرآن بهذه الفكرة ، ثم ينطلق بنا الى آفاقها البعيدة فتبين إن الانسان عبد داخر لله ، وإن كل من في السماء و الأرض آت للرحمن عبدا ، ويوم القيامة تسقط كل الأنتماءات و العلاقات . و يحشرون الى ربهم أفرادا لا جماعات عنصرية أو عصبية . لنتصور ذلك اليوم .. و لنبرمج حياتنا وفقه.

فلان إبن من ؟ أخو من ؟ ينتمي الى من ؟ لنحذف كل هذه الكلمات من حياتنا ، لكي نرى الحقيقة ، التي تتلخص في أن الانسان إبن عمله وإبن إيمانه فقط ، أما الأنتماء الاخرى ، فانها جميعا باطلة و ليست بحقيقة.

و أخيرا تذكر الآيات بأن القرآن جاء لكي ينذر الانسان ، ولكن من الذي يستفيد من نذر القرآن ؟ إنهم المتقون ، أما المعاندون الذين قرروا سلفا : عدم الايمان بآيات القرآن ، ولم يخشوا المستقبل ، ولم يهدفوا خلاص أنفسهم و نجاتها منالعذاب ، فان هؤلاء لن يستفيدوا من نذر القرآن و مواعظه ، و سيكون مصيرهم مصير تلك القرون ، التي هلكت ولم يعد يسمع لهم صوتا عاليا أو خفيا.

بينات من الآيات

الحشر و الشفاعة

] [86 - 85]يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * و نسوق المجرمين إلى جهنم وردا[

هذا منظر من ذلك اليوم حيث يرى المتقون وفودا مكرمة ، يحشرون الى لقاء ربهم ، بينما يساق المجرمون كما تساق البهائم الى جهنم . إن هذا المنظر وحده يكفينا عبرة لكي نختار طريق المتقين و وفدهم ، على طريق المجرمين و وردهم جاء في حديث شريف ماثور عن تفسير عليبن إبراهيم عن أبي عبد الله (ع) قال : سأل علي (صلوات الله عليه) رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن تفسير قوله عز وجل : " يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا " قال:

"يا علي الوفد لا يكون إلا ركبانا ، أولئك رجال إتقوا الله عز وجل فأحبهم و أخصهم و رضي أعمالهم ، فسماهم الله متقين ، ثم قال : يا علي أما والذي فلق الحبة و برىء النسمة إنهم ليخرجون من قبورهم بياض و جهوههم كبياض الثلج ، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن ، عليهم نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ "وفي حديث آخر قال:

"إن الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الجنة ، عليها رحائل الذهب مكللة بالدر و الياقوت ، و جلالها (١) الاستبرق و السندس و خطامها جذل الارجوان (٢)(١) جلال - ككتاب - جمع الجل و هو للدابة -كالثوب للانسان تصان به.

(2)الجذل - أصل الشجر الخشبي والارجوان : شجرة صغيرة الحجم من فصيلة القرنيات زهرها وردي يظهر في مطلع الربيع قبل الاوراق.

و أزمتهم من زبرجد ، فتطير بهم الى المحشر ، مع كل رجل منهم ألف ملك من قدامه و عن يمينه وعن شماله ، يزفونهم (١) حتى ينتهوا بهم الى باب الجنة الأعظم ، وعلى باب الجنة شجرة ، الورقة منها يستظل تحتها مأة ألف من الناس .و عن يمين الشجرة عين مطهرة مكوكبة (٢)قال : فيسقون منها شربة فيطهر الله عز وجل قلبوهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشعر . و ذلك قوله عز وجل " :و سقاهم ربهم شرابا طهورا " من تلك العين المطهرة ، ثم يرجعون الى عين أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون منها: وهي عين الحيوة، فلا يموتون أبدا.))

ثم قال:

((يوقف بهم قدام العرش وقد سلموا من الآفات والأسقام والحر والبرد، قال فيقول الجبار جل ذكره للملائكة الذين معهم: أحشروا أوليائي إلى الجنة ولا تقفوهم مع الخلائق، قد سبق رضائي عنهم ووجبت لهم رحمتي، فكيف أريد ان أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيئات، فتسوقهم الملائكة إلى

الجنة، فإذا انتهوا إلى باب الجنة الأعظم ضربوا الملائكة الحلقة ضربة فتصر صريرا فيبلغ صوت صريرها كل حوارء خلقها الله عزوجل وأعدها لأوليائه، فيتباشروا اذ سمعوا صوت صرير الحلقة ويقول بعضهم لبعض: قد جاءنا أولياء الله فيفتح لهم الباب، فيدخلون الجنة ويشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين، فيقلن: مرحبا بكم فما كان أشد شوقنا إليكم، ويقول لهم أولياء الله مثل ذلك.(

فقال علي (صلوات الله عليه): من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله.(

)يا علي هؤلاء شيعتك المخلصون في ولايتك، وأنت إمامهم وهو قول الله عزوجل) :يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) على الرحائل، (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا.(

من يملك الشفاعة؟

] [87]لا يملكون الشفعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا]الشفاعة في الدنيا نوعان: شفاعة باطلة وشفاعة صحيحة، فاذا قلت: انا إبن فلان، وأنتمي إلى الدين الكذائي دون أن أعمل بتفاصيله وأعماله، فهذه شفاعة باطلة، وكذلك لو قلت: إنني أنتمي إلى هذا الحزب او تلك المنظمة مما تعبد من دون الله، فأنت لا تشفع لهم ولا هم يشفعون لك وإنما أنت شفيع عملك، أي انك قرين عملك، وهو الذي يبقى معك، ومن عمل الإنسان إنتماؤه الصحيح إلى الرسالة، فإذا انتميت إنتماءا صحيحا إلى قائد او إمام عادل، وأطعته طاعة مخلصة لوجه الله سبحانه، ثم أذنبت ذنبا صغيرا فإن الله يعهد إلى ذلك الإمام بالشفاعة لك، وهذه هي الشفاعة الصحيحة. ومن ثم فأنت في وفد المتقين، وهذه فكرة الطاعة الواعية، التي تستتبع الشفاعة حتى ولو لم يكن هناك رابطة عنصرية ولا عصبية ولا قومية بينك وبين ذلك الأمام، ولكنك تطيعه لوجه الله، فأنت تكون ولياله، وفي وفده يوم القيامة ومن هنا جاء في حديث شريف تفسير العهد بإتباع الأمام العادل عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت: قوله: (لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال:

)الا من دان الله بولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده، فهو العهد عند الله.(

الشفاعة الباطلة:

[88]ثم يعود القرآن –بعد ذلك- لينسف فكرة الشفاعة الباطلة فيقول:

]وقالوا اتخذ الرحمن ولدا[

انما قالوا ذلك ليكرسوا فكرة الشفاعة اذ انهم يقولون: لأننا أولاد الله، او أبناء المتقين، فسوف ندخل الجنة ولا يعذبنا الله شيئا!

والقرآن ينفي هذه الفكرة أساسا فيقول:

] [89]لقد جئتم شيئا أدا[

أي ان فكرتكم هذه كذب عظيم فالله هو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق المنظومات الشمسية والمجرات والفضاء اللامتناهي، ولو كان له ولد سبحانه لوجب ان يكون ولده بمستواه سبحانه.

] [90]تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا]السماوات والأرض والجبال لا تتحمل تلك الكذبة المبتدعة، والقرآن الحكيم يعطينا هذه الصورة ليوضح لنا: بأن هذه الكلمة ليست صغيرة في مقياس الحق، فالذي خلق السماوات التي لا يمكن ان تحصى نجومها، والذي خلق الأرض الواسعة، هل يمكن ان يتخذ ولدا؟!

ان هذه فكرة غير متناسبة وعظمته سبحانه، ولا مع أية قيمة من قيم الفكر، واي مقياس من قياييس العقل!!

يتفطرن: أي يتفتتن ويتشققن.

ولعل هناك ايحاء آخر في هذه الآية، هو: ان الكذبة الكبيرة هذه، قد سببت جرائم كبيرة، بحجم تفطر السماوات وانشقاق الأرض، وهد الجبال، مثل الجرائم التي قامت بها النازية في العالم، او التي قام بها العنصريون في جنوب أفريقيا، وحتى الجرائم التي تقوم بها أمريكاوروسيا وسائر المستكبرين في العالم . وكلها، حين نبحث عن جذورها، نجد أنها تنمو من أرض العنصرية الخبيثة، حيث انها ناشئة من تمحور الإنسان حول ذاته، واعتقاده بأنه أفضل من نظائره.

أنظر –مثلا- إلى الأفكار العنصرية التي زعمت بأن الحضارة، انما تنشأ من العنصر الآري لأنه العنصر الذي خلقه الله بشكل أفضل، هذه السفاهة التي انتشرت بعد الثورة الفرنسية، والتزم بها بعض النبلاء والأشراف، وتورط فيها بعض علماء الاجتماع والتاريخ علما بأن الآريين لم يخلقوا الحضارة أصلا في أي فترة من فترات التاريخ، وغاية ما في الأمر انهم كانوا أسلاف اليونان الذين صنعوا الحضارة في التاريخ، ومن بين واحدة وعشرين حضارة نشأت في العالم، فإن هذه واحدة منها فقط أما العشرون الباقية فهي غير أوربية، وانما الأوربيون استفادوا منها، كما انهم قد اقتبسوا من الحضارة الاسلامية كثيرا.

] [91/92]ان دعوا للرحمن ولدا* وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا]الرحمن الذي شملت رحمته كل عباده، لا يمكن ان يفرق بين جنس وآخر، ولا يمكن ان يقول ان البيض او السود، او الأوربيين او الآسيويين او غيرهم، هؤلاء دون غيرهم، يستحقون رحمتي.. انه الرحمن وآثار رحمته موجودة في كل مكان.

-نعم- اذا رأيت الشمس أشرقت فقط على آسيا، او على أوربا او ان الرياح حملت السحب إلى المدينة الكذائية، او ان قارة أوربا فقط هي التي انبتت الزرع واحتوت على المعادن، اذا رأيت مثل ذلك فربما يكون لك الحق في ان تقول: ان أولاد هذه القارة هم أبناء الله سبحانه،لكن شيئا من ذلك لا يشاهد، فآثار رحمة الله تشمل كل شيء. اذن فهولا يتخذ من بين عباده ولدا دون آخر وهذه هي العلاقة بين فكرة نفي الولد عن الله، واستخدام كلمة الرحمن المكررة في هذه الآيات، فلأنه الرحمن، فهولا يفضل بعض الناس على بعضهم دون ان يكون ذلك التفضيل نابعا من عملهم وسعيهم.

] [93]ان كل من في السموات والأرض الا ءاتي الرحمن عبدا]هؤلاء جميعا متساوون أمام الرحمن في عبوديتهم له.

] [94]لقد أحصهم وعدهم عدا[

ان الله لا يمكن ان ينسى أحدا من عباده أبداً، سواء كان في غابة او في كهف فهو عبد الله والله قد كتب له اسماً، وقرر له مواهب، وأجرى له رزقا، وكذلك المتربع على الكرسي في قصره العظيم. والذي ملأ أرصدته البنوك الأجنبية أحصاه الله وأحصى ذنوبه.

ولعل تكرار الآية بمعنى الأحصاء ثلاث مرات)احصاهم –وعدهم- عدا) يعني انه لا يمكن ان يفلت من حساب الله شخص أبدا لا صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير، فكلهم سيحاسبهم ويجازيهم بما قدموا من أعمال في حياتهم الدنيا.

] [95]وكلهم ءاتيه يوم القيمة فردا[

كل العلاقات الدنيوية المزيفة ستتساقط، وسيأتون الرحمن بشكل أفراد –نعم- ان العلاقة الوحيدة المجدية بعد علاقة الخلق والعبودية التي تربط العبيد بربهم هي علاقة الإيمان والعمل الصالح.

] [96]ان الذين آمنوا وعملوا الصلحت سيجعل لهم الرحمن ودا]ان الله يحب هؤلاء وهم يحبونه، وهذه هي العلاقة الصحيحة بين العبد وربه، لذلك أمر الرسول (ص) عليا (ع) ان يدوعو ربه ليرزقه الود في قلوب المؤمنين كما جاء في الحديث التالي:

في تفسير علي بن إبراهيم وأما قوله: ((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)) فإنه قال الصادق (عليه السلام) كان سبب نزول هذه الآية إن أمير المؤمنين كان جالساً بين يدي رسول الله

(صلى الله عليه وآله) فقال له:

))قل يا علي: اللهم اجعل لي في قلوب المؤمنين وداً))فأنزل الله: ((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)) ثم خاطب الله نبيه (ص) فقال: ((فانما يسرناه بلسانك)) يعني القرآن ((لتبشر به المتقين وتنذر قوماً لداً)) قال: أصحاب الكلام والخصومة.

[97]ومن مظاهر رحمة الله، انه يسّر القرآن، وسهّل آياته وأوضحها، لكي يستطيع الرسول أن يبشربها المؤمنين وينذر بها المعاندين.

]فانما يسَّرنه بلسانك لتبشر به المتّقين وتنذر به قوماً لداً]قوماً لدّاً: جماعة معاندين وجاحدين:

إن أكبر ما ينذر الانسان هو الموت، ((كفى بالموت واعظاً)) لكن بعض الناس يقولون، ليس من المهم أن نموت فأولادنا سوف يبقون، وخطنا سوف يبقى، وبهذه الأفكار يهوّنون على أنفسهم الموت، ولكن القرآن، ينفي ذلك ويقول: ليس أنتم وحدكم الذين تموتون، بل سيموت معكم أبناؤكم وعشيرتكم، ونهجكم وخطكم، وكل شيء يرتبط بكم، يهلك ويفنى، وهذا أكبر إنذار للإنسان، وإذا لم يتعظ الإنسان بذلك، فإنه سوف يواجه مصيره الرهيب.

] [98]وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحدٍ او تسمع لهم ركزا]قد لا يبقى من الأمة أحدٌ، ولكن يبقى أثر من الآثار في بعض الصور أو بعض الكتابات او.. او، ولكن القرآن يقول: صفّيناها تصفية كاملة، ولا حتى صوت يخرج منها لا عالٍ ولا خفيّ، جاء في حديث مأثور عن أئمة آل البيت (عليهم السلام) فيما وعظ الله عزوجل به عيسى (عليهالسلام:(

))وطئ رسوم منازل من قبلك وادعهم وناجهم هل تحس منهم من أحد، وخذ موعظتك منهم، واعلم أنك ستلحقهم في اللاحقين))وكلمة أخيرة: إنَّ فكرة إتخاذ الولد لها وجهتان:

الأولى: إنها تعطي للظالم حق الظلم.

الثانية :إنها تلسب من المظلوم حق التمرد ولذلك نجد المستعمرين أشاعوا هذه الفكرة بين الشعوب المستضعفة، وانهم إنما تقدّموا لأن الله أراد لهم ذلك، ولأن الطبيعة التي كانت حولهم كانت أسخى، ولأن عقولهم كانت أكبر ولأن حظهم كان أوفر، ولأي شيء.

وينسف القرآن الحكيم هذه الفكرة ويقول: لا تفكر أيها الإنسان، إن للجنس الفلاني ميزة عليك وإن الله فضّله عليك تفضيلا، كلا.. بل ربما يكون أقل منك عقلا، وأرضه أقل سخاءا وبالتالي فهو أقل تعرضاً لرحمة الله منك، وبالتالي فإن الحضارة أقرب إليك، وإنما تقدم من تقدم، وتأخر من تأخر بسبب عمله..

وأتصوّر إن إشاعة هذه الفكرة المعاكسة وترسيخها في الشعوب المستضعفة، تلهمهم الاندفاع وتعطيهم الدافع نحو بناء حضارتهم والتخلص من نير المستكبرين.

سورة طه

فضل السورة

-1عن النبي محمد (ص) قال:

))من قرأها اعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار.((

-2عن الامام الحسين (ع) قال:

))لا تدعوا قراءة طه فان الله سبحانه يحبها ويحب من قرأها، أعطاه يوم القيامة كتابه بيمينه ولم يحاسبه ما عمل في الاسلام واعطي من الاجر حتى يرضى.((

الاطار العام

من المعروف ان اسم هذه السورة مستلهم من الكلمة الأولى التي نجدها فيها، وهكذا أسماء كثير من سور القرآن تستلهم من الكلمات الأولى او من بعض المشاهد البارزة في تلك السورة، فسورة يس استلهم اسمها من كلمتها الأولى، أما سورة الطارق فقد استلهم إسمها من كلمة بارزة فيها.

والسؤال: ما هو الموضوع الذى تبحثه آيات سورة طه؟

يحدد البعض من المفسرين نظراته حول سور القرآن عبر الموضوعات العامة والمشتركة بينهما وبين سائر السور، فكل سور القرآن في تصوره تدور حول ضرورة توحيد الله، والإيمان بحاكميته المطلقة على الأرض والسماء والإنسان وهكذا.

ولاشك ان هذا صحيح، ولكن لا يكفي ذلك وحده فالمواضيع الهامة موجودة في كل السور، فلماذا اذا تكررت؟ وما هي الفوارق بينهما؟ وهل يكفي لنعرف مدينة ان نقول بأنها بنيت من الطوب والأسمنت، وان شوارعها معبدة؟ ام انه يجب ان نرسم خريطة تفصيلية لها ولشوارعها، وأسواقها وجغرافيتها الطبيعية، وجغرافيتها الاقتصادية، والبشرية وما أشبه، لكي يتضح الفرق بينها وبين المدن الأخرى؟

إن العلم هو إحاطة بدقائق الأمور؛ وحدود الأشياء التي تفضلها عن سواها.

وعلم التفسير –بدوره- يجب ان يحيط خبرة بالموضوعات المتميزة في سور القرآن، وما يميز هذه الموضوعات عن مثيلاتها في سائر السور مع العلوم والمعارف الجديدة التي تستلهم من كل سورة، ومن كل آية من هذه الآيات، بل حتى الآية الواحدة التي تأتي في القرآن مرتين بنفسالألفاظ وبنفس التعابير ومن دون أية زيادة او نقيصة يجب ان نبحث فيها عن معارف جديدة تميزها عن التي سبقتها او تلحقها بسبب اختلاف السياق.

فهل ان معنى (بسم الله الرحمن الرحيم (في كل سور القرآن واحد؟ كلا.. ان كل سورة تبحث عن قضية و(بسم الله الرحمن الرحيم) في تلك السورة مرتبطة بتلك القضية.

اذا أراد المؤمن القيام يقول بسم الله، واذا أراد الطعام يقول كذلك بسم الله، وإذا أراد الذهاب قال بسم الله، وإذا أراد الكتابة قال أيضا بسم الله، فهل هذه الكلمات ذات معنى واحد؟ كلا.. بل يقول بسم الله أقوم، وبسم الله أجلس، وبسم الله أأكل، وبسم الله أذهب،وبسم الله أكتب، فهو يستعين بالله الذي أعطاه القدرة على القيام، وتفضل عليه بنعمة الطعام، وأعطاه العقل، وهكذا لا تعني البسملة ذات المعاني في مختلف المجالات التي ينتفع بها.

وكذلك في القرآن الحكيم نزلت –بسم الله الرحمن الرحيم- مع كل سورة، ولم تنزل مرة واحدة في القرآن كله، وإلا لم يكن الرسول يجعلها في رأس كل سورة وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وترتيب القرآن بهذه الصورة لم يكن اعتباطا انما هو من توجيه الرسول(ص) اذ كان يأمر بوضع آيات القرآن في مواضعها المحدودة لها من قبل الله تعالى، كما يظهر ذلك من ملاحظة سياق الذكر ويدل عليه التاريخ.

اذا فلماذا جعل القرآن –بسم الله الرحمن الرحيم- على رأس كل سورة، فإن لم تكن هذه الآية قد نزلت فمن المستحيل على الرسول ان يضيفها من تلقاء نفسه، وإلا فلماذا لم يكرر آية أخرى او كلمة أخرى؟!

فإن أية آية جديدة تنزل من السماء مرة جديدة، لأبد ان تحمل فكرة جديدة أيضا، ففي تفسيرنا للآيات القرآنية، وفي معرفتنا للسورة القرآنية وموضوعاتها يجب ان نبحث عما يميزها عن سائر الأمور، في نفس الوقت الذي نبحث عن الخطوط العامة المشتركة بينها وبين سائر السور.

فآيات القرآن متشابهات)بعض آياته مثل بعضها) لأن أصولها واحدة وبلاغتها واحدة، وفي نفس المستوى، إذ كل آيات القرآن تدل على الاعجاز، كما تدل على انها من الله، وليست من البشر، ولكن –في نفس الوقت- نجد ان لكل آية من آيات القرآن موضوعا خاصا بها، وموضوعات أعمبالنسبة إلى سياقها، وأعم بالنسبة إلى السورة الواحدة التي نجد الآية فيها، فما هو الموضوع الرئيسي في سورة طه؟

أكثر من تسعين آية من آيات هذه السورة البالغة مئة وخمسة وثلاثين آية تبحث قصة موسى، والأربعين آية الباقية منها تبحث مواضيع شتى، من بينها قصة أبينا آدم عليه أفضل الصلاة والسلام، وسبب خروجه من الجنة، وكيفية إغواء إبليس له.

فهل هذه السورة كسورة يوسف، حيث تبحث عن قصة موسى، كما كانت تلك السورة تبحث عن قصة يوسف؟

حدثنا القرآن الحكيم عن قصة بني إسرائيل وقصة موسى معهم في سورة البقرة، ويحدثنا عن موسى وقصته مع قومه ومع فروعون كما يحدثنا أيضا عن السحرة، فما هو الفرق؟

الفرق هو إن القرآن الحكيم في سورة البقرة –مثلا- انما يحدثنا عن الجانب الاجتماعي والأمني –إن صح التعبير- لبني إسرائيل، بإعتبارهم أمة مستضعفة قاومت المستكبر واتصفة بصفاتها عندما بنت حضارتها وكيف انسجت عليها تلك الصفات فبدأت بحركة للتطهير وما أشبه.

هذه الموضوعات نحمدها في سورة البقرة وفي حديثها عنب بني اسرائيل اما قصة بني اسرائيل وقصة موسى عليه الصلاة والسلام معهم ومع فرعون في سورة طه، فإنها تتناول جانبا آخر هو جانب الإنسان في هذه القصة.

الإنسان الذي خرج من الجنة بسبب غريزتيه الذاتيتين اللتين انحرفتا وتضخمتا وهما غريزتا التملك وحب الخلود، هذا الإنسان نجد عند عرفون وقد اكتملت فيه أسباب الانحراف حتى أوصلته إلى أبعد ضلالة، ونجده عند موسى وقد قاوم الغريزتين فاكتملت فيه صفات الاستقامة، ونجده في الصراع بينهما الذي يتمخض عن مفاجأة هامة، هي السحرة الذين انحرفوا حتى وصلوا في انحرافهم إلى حد انهم أصبحوا أدوات بيد الطاغوت فرعون، ثم مرة واحدة وبسبب تلك الإنسانية الكامنة فيهم وصلوا إلى القمة.

هذا هو الإنسان، والقرآن يركز الضوء على هذا الإنسان، ليس بصورة عامة كما نلاحظ ذلك في سورة الاعراف مثلا، بل بصورة خاصة يركز الضوء على علاقة الإنسان بهدى الإله، ومن الذي ينقذ الإنسان في صراعه مع الطبيعة والشهوات، وكيف ينبغي للإنسان ان يتحدى الطبيعة، وبماذا؟

في آيات سورة طه إشارات دقيقة إلى موضوعات خفية، ينبغي ان نتدبرها فيها لنعرف أسباب رقي الإنسان، وما هي العوامل التي لو التزم بها الإنسان لاستطاع ان يتحدى وأن يقاوم طبيعته وبالتالي لاستطاع الوصول إلى الجنة؟

الداعية وهموم الدعوة

هدى من الآيات

يبحث هذا الدرس من سورة طه موضوعات شتى ولا غرابة، فكما قلنا مرارا: ان الدرس الأول والأخير من سور القرآ، قد تبدو موضوعات غير منسجمة بادئ الرأي، إلا انها –عند التأمل- نجدها ترمز إلى كل الموضوعات التي نجدها في السورة ببلاغة نافذة وقول فصل.

والموضوعات في هذا الدرس تشير إلى دور الرسالة، وانها جاءت لسعادة الإنسان، وان صاحب الرسالة التي يحملها لا ينبغي ان يقتل نفسه من أجل هداية الناس، بل يكفي ان يذكرهم، فمن خشي تذكر، ومن لم يخش أعرض، وان هذه الرسالة إنما هي من الله رب السماوات والارض المحيط بهما وبالإنسان وبما يجهر به من القول او يخفيه، وان لله الأسماء الحسنى، التي تتجسد في قصة موسى حيث انه ذهب فقيرا، مسكينا، ملتجئا إلى الله فحمل معه مشعل الرسالة مضيئا وهاجا وانقذ سائر الناس بهذا المشعل الوقاد من الظلمات التي كانوا فيها.

ذلك المشعل الذي كان قوامه ذكر الله المتجسد، وتوحيد العبادة لله، والإيمان بالآخرة، والإيمان بأن عمل الإنسان هو الذي يتجسد في الآخرة، وان كل نفس تجزى بما عملت، هذه هي الموضوعات التي يبحثها الدرس الأول عن سورة طه.

بينات من الآيات

الرسول وهموم الهداية

قيل في كلمة (طه) ما قيل في الحروف المقطعة في بداية السور، وأقول فيها ما قلته في أمثالها في سائر السور القرآنية، حيث أتصور بأن الكلمة ترمز إلى القرآن الحكيم، ولعلها هنا –كما جاءت في النصوص الاسلامية –رمز إلى الرسول صلى الله عليه وآله، فتكون لفظة (طاء)اختزالا لجملة (طالب الحق) بينما تكون لفظة (هاء) اختزالا لجملة (الهادي اليه.(

كما اننا نشير إلى كتاب ونقول: هذا الكتاب، فكذلك لفظة (طه) انما هي إلى القرآن ذاته، وقيل: ان طه هو رسول الله (ص.(

] [1-2]طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى[

إن رسالة السماء تنزل على الإنسان لا لكي يهلك نفسه حزنا عليها لأن المجتمع لا يؤمن بها، فهو لا يتحمل مسؤوليته الا بقدر البلاغ فقط، وإنما الرسول مبلغ، فلماذا يشقي نفسه؟

قيل ان الرسول (ص) كان يسهر الليل بالعبادة، ويمضي النهار بالصيام، متعبا نفسه، وقد جاء في حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

))ولقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه، وأصفر وجهه، يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك فقال الله عزوجل –طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى- بل لتسعد به.((

والتفسير صحيح، وهو سبب النزول، ولكن القرآن الحكيم ليس خاصا بشخص الرسول الكريم فقط، وانما نزل كما في حديث للإمام الصادق (ع) على لغة (إياك أعني واسمعي يا جارة)، ونستفيد من هذه الآية ان صاحب الرسالة ينبغي ان لا يشقي نفسه لأن الناس لا يؤمنون، ولا أن يكلفنفسه فوق طاقتها في تحمل واجبات الرسالة ومندوباتها، وقد أجهد الإمام الحسن عليه السلام نفسه بالعبادة مرة فنهاه والده أمير المؤمنين (ع) قائلا: يا بني ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق.

] [3]إلا تذكرة لمن يخشى[

فإذا خشي الناس واعتبروا فلهم جزاؤهم، وإلا فليس عليك من أمرهم شيء.

والقرآن تذكرة لمن يستفيد منه ولمن يوجد في ذاته الاستعداد لذلك، كما الأرض لا تستفيد من المطر إلا بشرط ان تكون مستعدة لإستقباله، وكذلك قلب الإنسان لا يستفيد من بركة الرسالة، إلا بشرط استعداده لإستقبالها واستعداده بالتذكرة والخشية.

ومن الذي يخاف؟

هل المجنون او الطفل الصغير؟ ام الإنسان الهائج الذي أذهب الغضب عقله، او الغافل الذي حجبت الغفلة عقله؟ كلا.. انما يخاف الذي ينظر إلى المستقبل، ويفكر في عواقب الأمور، وهذا هو الإنسان الي يستفيد من الرسالة، لأنه عاقل، ولذا كان الخوف من علامات العقل.

هيمنة الله

] [4]تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى[

السماوات العلى أي العالية.

قد يبدي الإنسان نوعا من الذهول عندما يقرأ الأرقام العلمية، فقد كان العلماء يقدرون عدد النجومن بالآلاف، ثم قدروها بمئات الألوف، ثم بالملايين والمليارات، وبعد ذلك عجز علمهم عن الإحصاء، وكانوا في البداية يقدرون المسافات والأبعاد التي تفصل الاجرام السماوية عن بعضها بوحدات القياس الاعتيادية، ثم اكتشفوا ان هذه الوحدات الطويلة أعجز من ان تصمد امام المسافات الكونية الرهيبة، فلجأوا إلى استخدام السنة الضوئية في القياس، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة في حين ان

سرعة الضوء تبلغ حوالي (٣٠٠,٠٠٠) كيلومترا في الثانية.

هذه الأرقام يكاد الإنسان لا يصدقها من ضخامتها، وكثير منا لم يصدق بهبوط الإنسان على القمر، وانه للحقيقة، وكان القرآن الحكيم يشير إلى ان رسالة السماء نور منزل من خالق السماوات العلى.

][5]الرحمن على العرش استوى[

وهو رحمن، لأنه خلق هذه السماوات وهذه النجوم وهذا الفضاء اللامتناهي وهذا الإنسان، فرحمته تتجلى في إيجاد الأشياء من بعد العدم واعطائها كيانا بعد ان لم تكن شيئا مذكورا.

ثم لم يترك السماوات بعد خلقهان عبثا، انما استوى عليها، أي يشرف عليها ويأمرها فتأتمر ويزجرها فتزدجر، وبالتالي هو المسيطر المهيمن على السماوات والأرض، فلا شيء فيها أقرب اليه من شيء، لأنه محيط بها جميعا، علما وقدرة وسلطانا وتدبيرا، جاء في حديث شريف عن عبد الرحمن بن الحجاج قال، سألت أبا عبد الله عن قول الله عزوجل ((الرحمن على العرش استوى))، فقال: استوى من كل شيء، فليس شيء اقرب اليه من شيء، لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب، إستوى من كل شيء.

والعرش هنا بمعنى مركز القدرة والسلطة والتدبير، وتعالى الله عما يتصوره الجاهلون، من أن العرش مقام ربنا المادي.. كلا: ان العرش لا يتحمل الرب، انما الرب هو الذي يحمله، جاء في حديث مأثور عن الإمام علي عليه السلام قاله لوفد النصارى ورئيسهم جاثليق:

فكان فيما سأله ان قال له: أخبرني عن ربك أيتحمل؟ فقال علي (ع): ان ربنا جل جلاله يحمل ولا يحمل، قال النصراني: وكيف ذلك ونحن نجد في الإنجيل: ((ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)) فقال علي (ع :(ان الملائكة تحمل العرش، وليس العرش كما تظن كهيئة السرير، ولكنهشيء محدود مخلوق مدبر وربك عزوجل مالكه، لا انه عليه ككون الشيء على الشيء، وأمر الملائكة بحمله، فهم يحملون العرش بما اقدرهم عليه، قال النصراني: صدقت يرحمك الله.

وجاء في حديث آخر مأثور عن حنان بن سدير قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن العرش والكرسي فقال: ان للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة، فقوله: ((رب العرش العظيم)) قول: الملك العظيم، وقوله: ((الرحمن على العرش استوى)) يقول: على الملك احتوى: وهذا ملك الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصول منفرد من الكرسي لانهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعا غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه يطلع البدع، ومنه الأشياء كلها، والعرش هو الباب الباطنالذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية، وصفة الإرادة، وعلم الألفاظ والحركات، والترك وعلم العود والبداء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي، وعلمه أغيب من علم الكرسي، فمن ذلك قال: ((رب العرش العظيم)) أي صفته من صفة الكرسي، وهما في ذلك مقرونان.

] [6]له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى[ولم يملك القرآن أحدا شيئا، لأن الأشياء كلها لله سبحانه، وهو الذي يحكم فيها، وإذا أعطى الإنسان شيئا، فإنما يخوله الاستفادة منه، ويكون في الواقع مستخلفا فيه لا مالكا حقيقيا له.

] [7]وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى[

اذا جهرت بكلامك وأعلنته، فإن الله سبحانه لا يعلم ما جهرت به فقط، وانما أيضا يعلم خلفيات جهرك، ان كل كلمة ينطقها الإنسان جهارا قد يكون من ورائها ألف مقصد ومقصد، وكل ذلك قد أحاط به الله علما.

الله يتجلى

] [8]الله لآ إله إلا هو له الأسماء الحسنى[

كل ذلك الجمال والجلال وتلك العظمة التي نشاهدها في الموجودات المخلوقة من حلونا انما هي آية

لأسماء الله سبحانه وتعالى، وانعكاس منها على الطبيعة، أنت تبحث عن الجمال وعندما ترى شيئا جميلا فإنك تبحث عما هو أجمل منه، وتبحث عن القوة، فإذا رأيت قويا تبحث عمنهو أقوى منه، وتبحث عن العظمة فإذا رأيت عظيما تبحث عمن هو أعظم منه، لأن قلبك انعكست عليه أسماء الله الحسنى، أسماء الجلال والجمال والعظمة التي هي الله، فلا يقتنع القلب بالمخلوق، بل لا يبحث عنه حقا.

وأسماء الله تشير إلى صفاته وهي كثيرة، منها ما أوتي البشر علمه، ومنها ما أوتي الأصفياء من البشر فقط علمه، ومنها ما هو غيب لا يعلمه الا رب العزة، وقد جاء في حديث نبوي شريف:

))إن الله سبحانه وتعالى تسعة وتسعين إسما من أحصاها دخل الجنة((

النداء المقدس
هدى من الآيات

في اطار موضوع سورة طه التي تتحدث عن علاقات البشر بالدنيا وزينتها من جهة ، و رسالات الله و قيمتها من جهة ثانية ، يتساءل السياق هنا : هل سمعت قصة موسى حينما حار بأهله في الصحراء فرأى نارا فذهب اليها ليأتي منها بقبس ، أو يجد هدى ، ليعرف كيف يخرج من ازمته ؟

وحين و صل إليها ناداه الرب : اني أنا ربك ، وأمره بأن يخلع نعليه لأنه في مكان مقدس ، و أخبره بأنه اختاره لرسالاته ، و عليه أن يستمع اليها ، وهي عبادته ، و إقامة الصلاة لذكره ، و الايمان بالساعة التي لا ريب فيها ، و حينها تجزى كل نفس بما تسعى ، و التحصن ضد من يصدون عن الساعة لأنهم لا يؤمنون بها و يتبعون أهواءهم ، و هم يريدون هلاكه.

كما ان الانسان يفيق في الصحراء من الغفلة و الضلالة فتحيط به الظلمات ، و تلاحقه عوامل الخوف ، فيبحث عن مشعل يستضيء به ، و عن دفء يأوي إليه...

كذلك موسى كان في تلك الليلة المظلمة الشاتية يسير في صحراء سيناء يبحث عن دفء و عن نور ، يبحث عن دفء يعالج به البرد القارص و عن هدى و نور يضيء به طريقه ، فحينما رأى نارا من بعيد ، كانت تلك النار بالنسبة اليه " أنسا " فأقترب اليها فاذا بهاخير من النار و من النور ، انها (الرسالة) التي تعالج مشكلة الانسان ، معالجة جذرية ، فتسير سفينة عقله و تذكره بربه و تخط له خطا مستقيما الى الله.

إن تصور موسى في تلك الليلة ، في تلك الصحراء الى جانب وادي طوى ، و هو يكلم الله ، و الله يكلمه و يناجيه ، تصور هذا المنظر يبعث الينا مشاعر مختلطة من السرور و الرهبة.

فمن جهة نشعر بأننا حينما نضيع في صحراء الحياة فلا بد أن نجد ربا ياخذ بأيدينا ، ربا رحيما ودودا الى درجة أنه يحدثنا . ترى أن الله يناجي موسى بعبارات قصيـرة ، و لكن موســى يتحدث حديثا طويلا ، حديث موسى مع ربه يكون بنفس طويل ، لأنه وجد في حديث ربه أنسا ، كان يريد أن يبقى طويلا مع ربه ، برغم انه كان قد ترك أهله ينتظرونه ليرجع اليهم بالدفء و الهدى ، و هذا هو دائما منظر الانسان و حالته و علاقته مع ربه في الحياة ، وهي علاقة الأخذ من دون تكلف ، و الاهتداء به من دون خشية أو رهبة.

و يبعــث فيــنا هذا التصور بالرهبة ، حيث نخشى بأن يتركنا الرب اذا تركنا هداه.

ففي نفس الوقت الذي ترانا نحتاج الى الله حاجة ملحة فهو رحيم بنا ، ودود معنا ، مع ذلك شديد العقاب ، هذه هي علاقة الانسان بالله سبحانه و تعالى.

و الآيات هذه توحي الينا بفكرة أخرى ، تلك هي فكرة ارتفاع الانسان الى هذا المستوى ، حيث يكلمه الله سبحانه و تعالى تكليما.

نحتفظ بهذه الصورة لنقارنها بعدئذ بصورة آتية ، و هي صورة (فرعون) ، فمرة يكون الانسان في صورة (موسى) و مرة يكون في صورة (فرعون) ، و كل واحد من أبناء آدم في قلبه إنسانان ، موسى و فرعون

، فخذ لنفسك ما تشاء.

و هناك أفكار أخرى تستلهم من هذه الآيات سوف نتعرض لها عبر حديثنا التفصيلي .

بينات من الآيات

حديث موسى

] [9]وهل أتاك حديث موسى[

و هــذا الكلام ليس موجها الى رسول الله (ص) فقط وانما هو - بصورة مركزة - موجه إليك وإلي.

] [10]إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا]عندما جاء موسى (ع (من مدين الى مصر و بعد أن تاه في الطريق مع أهله فاذا به يشاهد نارا من بعيد فيتجه إليها لعله يحصل على جذوة منها كي يتدفى هو و أهله ، وآنست : مأخوذة من الأنس فلعله جاء تعبيرا عن تصور وجود بشر هناك.

]لعلى آتيكم منها بقبس[

ربما كانت النار بعيدة فلم يشأ موسى أن ياخذ أهله الى تلك النار فيحملهم مشقة الطريق ، لذلك أبقاهم في مكانهم.

]أو أجد على النار هدى[

لعلني أسأل من قد يكون عند تلك النار عن الطريق.

القرآن يوجز العبارات ، و يرمز من خلال الايجاز الى حاجات الانسان في الحياة ، فمن جهة كانت هناك حاجة مادية هي الدفء و النار ، و من جهة أخرى كانت هناك حاجة معنوية و هي الهدى ، و رسالة الله تأتي بهاتين الحاجتين معا و لكن عبر سعي الانسان.

فالانسان + الرسالة = الوفاء بحاجاته كلها .

النداء المقدس

] [11]فلما أتاها نودى يا موسى[

جاء موسى ليقتبس النار و ليهتدي بهدى أصحابها ، فاذا بنداء يتناهى الى سمعه لا يعرف مصدره ، و لذلك عبر القرآن بكلمة " نودي " ، فيأتيه النداء في البدء و ليست المناجاة لماذا ؟

لأن الانــسان الغافل يحتاج الى نداء حتى يستيقظ من غفلته ، ثم يناجى من قريب.

من هذا الذي يناديني باسمي ؟ من الذي يعرفني في هذه الصحراء ..؟

] [12]إني أنا ربك[

فجاءه الجواب واضحا بأن : الذي يكلمك هو رب العزة.

]فاخلع نعليك[

أول أمر هو أن يخلع موسى نعليه إحتراما لمن يكلم..

]إنك بالواد المقدس طوى[

لماذا يخلع نعليه ؟ و ما هي العلاقة بين خلع النعلين و بين وجود الانسان في مكان مقدس ؟ و لماذا

يقدس المكان ..؟

الجواب :إن خلع النعلين - كما أتصور - إنما هو رمز يشير الى تجرد الانسان من إرتباطاته و علاقاته ، و هذا التجرد ضرورة تمهيدية لاستقبال نور السماء ، نور الرسالة ، فاذا كانت عندك علاقة بأهلك ، بأولادك ، بسلطانك ، فانك لن تفهم الرسالة ، ولن تتمكن من استيعابها.

إنما تفهم الرسالة ، اذا انفصلت عن علاقاتك ، و اتجهت الى الله ؛ لذلك نحن في الحج ، نؤمر بأن نخلع ملابسنا العادية و نلبس ملابس بسيطة ، يعني تجردنا عن علاقاتنا الأرضية ، و قيمنا المادية ، و توجهنا الى الله سبحانه و تعالى ، لذلك أمر موسى بخلع نعليه ،و بذلك جاءت النصوص الإسلامية التي نفت في ذات الوقت أن تكون نعلا موسى - آنئذ - من جلد حمار ميت و لذلك أمر بنزعهما نقرأ معا النص التالي المأثور عن الامام الحجة القائم عجل الله تعالى فرجه:

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل و فيه : قلت فاخبرني يابن رسول الله عن أمر الله لنبيه موسى : " فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى " ، فان فقهاء الفريقين يزعمون انها كانت من إهاب الميتة ؟ قال صلوات الله عليه : " من قال ذلك فقد افترى على موسى فيها ، و استجهله في نبوته ، لأنه ما خلا الأمر فيها من خطيئتين:

أما أن تكون صلاة موسى فيها جائزة أو غير جائزة ، فان كانت صلاته جائزة ، جاز له لبسها في تلك البقعة اذا لم تكن مقدسة ، وإن كانت مقدسة مطهرة فليست باقدس و أطهر من الصلاة ، و إن كانت صلاته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى عليه السلام : أنه لم يعرف الحلالمن الحرام ، و علم ما جاز فيه الصلاة ، و ما لم يجز ، وهذا كفر ، قلت : فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها : قال صلوات الله عليه : ان موسى ناجى ربه بالواد المقدس فقال : يا رب إني قد أخلصت لك المحبة مني ، و غسلت قلبي عمن سواك ، و كان شديد الحب لأهله ، فقالالله تعالى : " فاخلع نعليك "أي انزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة ، و قلبك من الميل الى من سواي مغسول " (١)و السؤال الآخر : ما هي العلاقة بين خلع النعلين و بين الوادي المقدس طوى ؟

العلاقة ان الانسان في الأماكن المقدسة و المشرفة ، يجب أن لا يكتفي بخشوع قلبه ، و انما يجعل مظهره بشكل يدل على انه خاشع لله سبحانه.

لذلك يستحب في بعض الأماكن المقدسة أن يتحرك الانسان إليها بخطى وئيدة ، لكي تدل طريقة مشيه على انه خاشع ، و هكذا أمر الله موسى بأن يخلع نعليه في ذلك المكان المقـدس الذي لم يقـدس لذاته ، و انما لأنه ينتسب الى من هو متصف بالقدسية ، أو ليس أوحى اللهسبحانه في هذا المكان ، أو ليس الوحي مقدسا ؟

الوادي المقدس " طوى " هو في جانب طور سيناء ، و سبب قداسته حسب حديث الرسول (ص) لأنه قدست فيه الأرواح ، و اصطفيت فيه الملائكة ، و كلم الله عز وجل موسى تكليما (1)(2) . نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(2)نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٧٤.

] [13]وأنا اخترتك فاسمع لما يوحى[

الاختيار هو تفضيل شيء لصفة مميزة فيه ، وانما اختار ربنا الحكيم موسى (عليه السلام) لما وجد فيه من الصفات المثلى لحمل الرسالة ، و أهمها - فيما يبدو لي - صفة : الخروج عن الذات ، و الاهتمام بالآخرين.

و هذه الصفة كانت متوفرة في كل الأنبياء و في موسى - عليه السلام - بالذات ، فأنت ترى انه نسي أهله ، و جلس يتحدث مع الله حديثا مفصلا ، لم يقل : إأذن لـي يا الهـي حتى أذهب و احضر أهلي ثم أكمل الحديث ، كلا بل ظل يواصل الكلام ، كذلك يقول الله عن يوسف: " ولما بلغ أشده آتيناه حكما و

علما و كذلك نجزي المحسنين " ، إن الله يجزي اولئك الذين يحسنون الى الناس و يحبونهم و يعملون من أجلهم ، و يخرجون عن ذواتهم من أجل المصلحة العامة ، هؤلاء يهديهم الله باعطائهم الرسالة ، و الحكم (الرسالة. (

خلاصة الوحي:

] [14]إنني أنا الله لا إله إلا انا فاعبدني[

إن خلاصة الوحي هي هذه الكلمات : الايمان بالله إلها واحدا و عبادته.

]و أقم الصلاة لذكرى[

و إقامة الصلاة ليست فقط بهذه الحركات الشكلية التي يؤديها المصلي ، و انما هي رمز لخضوع الانسان لأمر الله عز وجل ، و استعداده لتطبيق كل أوامره و شرائعه على نفسه و على أسرته و على مجتمعه و أمته . و لذلك فهي عمود الدين ان قبلت قبل ما سواها ، وإن ردت رد ما سواها ، ومن هنا وجب إقامة الصلاة متى ما ذكرها الفرد في وقتها أو بعده ، كما روى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله:

"من نسي صلاة ، فليصلها اذا ذكرها ، لا كفارة لها غير ذلك ، و قرأ : وأقم الصلاة لذكري " (١)لماذا قال الله لذكري ؟

ان العبادة الشعائرية و حدها لا تكفي ، لأن تلك العبادة بمرور الزمن تتعرض للآنحراف و التشويه ، لذلك فان الانسان بحاجة الى ذكر دائم لله كي تبقى عبوديته لله سبحانه و تعالى في مأمن من التحول - بسبب ضغوط الحياة و و سوسة الشيطان - الى عبودية غير الله فيشتى صورها.

لذلك - أتصور - إن كلمة " ذكري " تعني : ان ذكر الله سبحانه إنما هو في الواقع الهدف الأسمى من الصلاة ، حيث جاء في آية أخرى " و لذكر الله أكبر " ، فالصلاة تهدف الى ذكر الله و الارتباط المباشر به سبحانه.

و هذه الآية تدل على أن في الصلاة وجوبين:

الوجوب الأول : هو الصلاة في وقتها.

و الوجوب الثاني : هو أن الصلاة واجبة بعد وقتها ، فاذا نسيت الصلاة و فات وقتها ، فعليــك أن تقضيها في غير وقتها ، لماذا ؟ لأن وجوب الصلاة إنما هو لذكر الله ، و ذكر الله هو سر السعادة و الفلاح في الدنيا و الاخرة ، لانه سبحانه مصدر الخير الحقيقــي فيهذا الوجود ، ولا يمكن للعبد المخلوق أن يحصل من الله على الخير ، في حين أنه منصرف عن ذكره و التوجه إليه.

كمـا تـدل الآية أيضا على أن الصلاة يجب أن تكون بخشوع و من أجل ذكر الله ، (1)المصدر / ص ٣٧٥.

فأساس الصلاة هو تحيتك مع الله ، فحينما تركع و تقول : " سبحان ربي العظيم و بحمده " أو تسجد و تقول : " سبحان ربي الأعلى و بحمده " فان هذا هو نوع من التحية لربك تحييه بتنزيهه و تعظيمه.

الحتمية التي لابد منها

] [15]إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى[

في بعض المدن التي تفتقد الأمن ، ترى أن السلطة تقوم ببعض الدوريات المفاجئة ، بالاضافة الى الدوريات الاعتيادية الثابتة ، فجأة تأتي دورية تقف على رأس شارع معين ، و تأخذ بتفتيش المارين ، لماذا ؟ لان الناس اذا كانوا يعرفون متى و أين تأتي الدورية فان بامكانهم أن يفلتوا منها بطريقة أو بأخرى

.

و كذلك نلاحظ في بعض المدارس ، أن الأساتذة لا يحددون موعد الامتحان الى الطلبة ، و فلسفتهم في ذلك أن كثيرا من الطلبة لو علموا بهذا الأمر ، سيتقاعسون عــن الدرس بانتــظار أقرب موعد للامتحان ، حيث يجدون و يجتهدون لفترة قصيرة فقط.

إن الله سبحانه و تعالى قد جعل الدنيا دار عمل و سعي يمر فيها الانسان بمواقف كثيرة و امتحانات عديدة ، فيتحتم عليه أن يبذل كل مافي وسعه ليجتازها بنجاح ، ولا يتقاعس أو يؤخر واجباته على أمل أن يقوم بها فيما بعد ، لأن الموت قد يفاجئه في أي لحظة ، و يفقدتلك الفرصة الذهبية الثمينة التي منحها الله إياه في الدنيا ، ثم لايجد في الآخرة إلا الحسرة و الندامة ، و الانسان بطبعه يغفل أو يتغافل عن يوم الحساب ، و حينما يغفل فانه يقوم بجرائم و اخطاء ، فالغفلة طبيعية عند الانسان ، و ربما كان هذا من سنة الله ، فلولم تكن الغفلة موجودة لم يكن الامتحان موجودا.

ولكن من الذي يميز الطيبين عن الاشرار ؟

إن الطيبين هم الذين يجدون لكي لا يغفلوا ، و يعملون أبدا من أجل إيقاظ أنفسهم دائما.

إن القرآن يضع مسؤولية الهداية و التربية على الانسان نفسه ، فلا تنتظر أيها الانسان مساعدة من الغير في تنبيهك من غفلتك ، بل يتوجب عليك أن توقظ نفسك باستمرار من تلك الغفلة ، وإلا تعرضت للاخطار الجسيمة ، و صار مصيرك في الآخرة الى عواقب و خيمة.

و هذا التنبيه المستمر ، يتم عبر إقامة الصلاة بشرائطها و حدودها الصحيحة و المحافظة على جوهرها ، و الحيلولة دون تحولها - مع مرور الزمن - الى شكليات و طقوس فارغة من كل محتوى ، و طريقة ذلك كما يرشدنا اليها الحديث الشريف:

"إعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك "و كلمة " أكاد أخفيها " تشير الى أن الله عز وجل لم يخف الساعة إخفاء كاملا فقد أعلنها ، و بين كل ما يتعلق بها ، و فصل كل ما يجزي فيها ، و لكنه فقط أخفى موعدها ، و هذا لكي يتحمل الانسان المسؤولية كاملة في الحياة الدنيا ، ذلك انه لو عرف موعدها لأمضى قسما كبيرا من عمره دون تحمل أي مسؤولية ، إذا فإخفاء موعدها لابد منه لكي يكون الجزاء عادلا ، فالجزاء يأتي بعد تحمل المسؤولية وإلا فانه سوف لن يكون له أي معنى ان كان ثوابا أو عقابا . وهناك تفسير أعمق من هذا التفسير نجده في أحاديث آل البيت ، حيثجاء في تفسير علي بن إبراهيم في قوله : " إن الساعة آتية أكاد أخفيها " قال : من نفسي ، هكذا نزلت ، قلت : كيف يخفيها عن نفسه ؟ قال : جعلها من غير وقت . و روي مثل ذلك عن ابن عباس ، وهي كذلك في قراء ابي . (١)(١) نور الثقلين / ج٣ / ص ٣٧٥

] [16]فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها و اتبع هواه فتردى]والذي يؤمن بالساعة و يتذكرها دائما يتبع برامج الله و يمتثل أوامره ، و بالتالي يجد الفلاح ، و إلا فان مصيره التردي و السقوط ، و لو اتبع موسى هواه ، و نسي ذكر الله ، لهبط الى الحضيض ، كما حدث ذلك بالنسبة الى بلعم بن باعوراء الذي أكرمه الله و اتاه علم الاسم الأعظم ، و لكن حين اتبع هواه أخلد الى الأرض ، فجرده الله من كل ما أنعم عليه ، ثم شبهه بالكلب و قال : " فمثله كمثل الكلب. "..

وبكلمة موجزة ، فان ذكر الله يعني السعادة ، و الانصراف عن ذكره يعني الشقاء.

موسى يحمل رسالات الله

هدى من الآيات

وجد موسى عليه الصلاة و السلام عند ربه في تلك الليلة المظلمة الشاتية دفئا و أنسا و هدى ، وحينما سأله الله عن عصاه فاذا به يسترسل في حديثه ، بلى ان الفائدة الأولى التي يحصل عليها المؤمن من إيمانه ، هي السكينة القلبية و الاطمئنان النفسي.

لكن سرعان ما امتحنه الله و ابتلاه بأمره الصعب ، إذ لا يكفي للانسان أن يدعي الإيمان من دون أن يحمل - بقدر إيمانه - مسؤولية و بلاء ، و كلما كان الإيمان أعمق ، كلما كان البلاء أشد " البلاء للأنبياء ثم الأولياء الأمثل فالأمثل. "

و قد مر موسى (ع) بامتحان عسير ، ففي البدء أمره الله أن يخلع نعليه ، لأنه في الوادي المقدس طوى ، و ربما خشي موسى أن يؤمر من قبل الله سبحانه بترك عصاه كما فعل بنعليه ، فلذلك حينما سأله الله عنها إذا به يبين فوائدها العديدة : إنه يتوكأ عليها ، و يهشبها على غنمه ، وله فيها حاجات أخرى غير تلك ، فأمره الله أن يلقي عصاه فألقاها ، و سرعان ما رأى أن تلك العصا قد تحولت الى ثعبان ضخم ، حيث جاء في النصوص إنه كان من القوة ، بحيث يحطم الحجر ، و يقتلع الشجر ، و تتوقد عيناه في الليل المظلم ، كان هذا امتحانا: حيث أمره الله بأن يلقي عصاه فامتثل موسى ، و الامتحان الآخر كان حيث أمره بأن يأخذ الثعبان فيمسكه من حلقه ، و هو أخطر عضو فيه . ترى كم ينبغي أن يكون إيمان الانسان بالله و بالرسالة ، و تغلبه على طبيعته البشرية كبيرا حتى يتمكن من أن يقدم على هذه العمليةالصعبة ؟!

إن الانسان بطبيعته يشكك نفسه - ألف مرة - في مثل هذه الحالات ، فاذا تعرض لامتحانات صعبة كما تعرض لها موسى)ع) ، يقول لنفسه : من يقول بان هذا هو الله ؟ و من يقول بأن الأمر واجب ، و من يقول بأن الأمر فوري ؟ و هكذا .. ولكن موسى بالرغم من خوفه الشديد النابع من طبيعته البشرية تحدى و أخذ الثعبان فتحول - بمجرد أن أمسك به - الى عصا كما كانت.

لقد اجتاز موسى في لحظات معدودة تلك المراحل التي اجتازها إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام في سنين ، فأمر بحمل الرسالة الى البشر . لقد تعرض إبراهيم الخليل (ع) لخطر شخصي حينما ألقي به في النار ، و كذلك موسى تعرض لهذا الخطر حينما أمر بأن يأخذ الثعبان ، و إبراهيم ترك زوجته و طفله الرضيع و حيدين في الصحراء ، و انفلت عنهما و توجه الى الله ، و كذلك موسى ترك أهله و هم في ظروف صعبة ، و توجه الى الله.

إبراهيم الخليل تعرض - مرة أخرى - للغربة و الابتعاد عن بلده ، و كذلك موسى تعرض لذلك حيث بقي ظالا في الصحراء مدة الى أن اهتدى بفضل الله ، هذا غير فراره الى مدين و بقائه هناك لمدة عشر سنين.

هكـذا اجتاز موسى مراحل الاختبار ، و تخطى إمتحانات الرسالة بسهولة و يسر ، فلما اجتازها جميعا بنجاح ، حمله الله الرسالة ، و بعد أن حمل الرسالة ، طلب موسى من ربه أشياء لم تكن مجرد طلبات ، بل كانت أيضا قرارات أقرها موسى على نفسه.

إنك لا تدعو ربك بدعاء إلا بعد أن تقرر الوصول الى ما تدعو الله له بكل وسيلة مادية مقدورة لك ، و تدع بقية الوسائل التي لا تستطيعها الى الله سبحانه . اذا دعوت الله أن يطعمك فلا يعني ذلك بأن تجلس في بيتك إنما عليك أن تبحث عن أرض صالحة و عن طريقة لتوصيل الماء اليها ، و عن حب تزرعه فيها ، و عن عملية مبتكرة للزراعة و السقاية و الحرث و الحصاد ، ثم تطحنه و تخبزه و تحضره ، وآنئذ تأكله.

وأنت في هذه المسيرة الطويلة تتعرض لصعوبات و عوامل مضادة لعملية الزراعة ، تلك العوامل المضادة التي ليس في وسعك التغلب عليها ، فتدعو الله أن ينصرك عليها ، اما العوامل التي تستطيع أن تقوم بتوفيرها عمليا فينبغي أن تسعى من أجلها ، هذا هو جوهر الدعاء.

لقد طلب موسى من الله سبحانه مجموعة طلبات كانت في نفس الوقت مجموعة قرارات أقرها لنفسه كي يقوم بما طلب : أن يشرح له صدره ، و يحل عقدة من لسانه ، و ييسر أمره ، و يجعل له و زيرا من أهله و هكذا ، هذه الطلبات كلها كانت تعني حيث علم موسى : ان حمل الرسالةبحاجة الى هذه الشروط الخمسة.

الشرط الأول : سعة الصدر ، فسعة الصدر آلة الرئاسة ولا يستطيع الفرد أن يصل الى الرئاسة الحقيقية بحمل الرسالة و تبليغها الى الناس ، من دون أن يكون صدره واسعا ، و سعة الصدر تعني الصبر ، و عدم

الحزن أو التأثر من كلام المخالفين و الجاهلين ، و بالتالي فان صاحب هذه الصفة يستطيع أن يصدع بالحق دون أن تأخذه في الله لومة لائم ، أو يتأثر باعلام الناس.

الشرط الثاني : هو القدرة على الحديث ، فلقد كان موسى تمتاما لا يحسن الإعراب و الافصاح في حديثه عما يريده.

الشرط الثالث : بذل الجهود المكثفة لإفهام الناس رسالة الله و أحكام شريعته ، فليس وظيفة حامل الرسالة أن يكره الناس على تطبيقها تحكما و استبدادا ، و عوها أم لم يعوها.

الشرط الرابع : هو أن يبحث حامل الرسالة عمن يؤازره ، و يشترك معه في أمره ، و ينبغي أن يكون أقرب الناس إليه.

الشرط الخامس و الأخير هو : أن يكون هو مع هذا الوزير بهدفان الى تسبيح الله و ذكره ، و الدعوة اليه لا الاستعلاء في الأرض ، و الطغيان على الناس.

و هذه الشروط تنبه اليها موسى عليه الصلاة و السلام حينما حمل الرسالة ، و كان في ذلك دليل على أن اختيار الله موسى لرسالته انما تم بحكمته البالغة ، إذ ان الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلننظر كيف يحاور موسى ربه.

بينات من الآيات
معجزتان

] [18 - 17]وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكؤا عليها و أهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى]يعلم الله سبحانه مافي يد موسى ، و يعلم لماذا هو يحمل عصاه ، و مع ذلك فهو يسأله ربما ليمتحنه ، إذ ان هذا السؤال يجعل موسى ينتبه الى أهمية عصاه و فوائدها المادية له التي ربما يكون قد غفل عنها.

فعندما يأتيه أمر الله بطرحها و القائها بعيدا يمتثل لهذا الأمر بوعي.

كما اننا نستفيد من جواب موسى (ع) عدة أمور جانبية اخرى وهي : انه يتعب نفسه في العبادة و الشغل بدلالة قوله (أتوكأ) ، وانه كان يعمل في مهنة الرعي ، كما كان يستعمل عصاه في أغراض اخرى ، كالدفاع عن نفسه اذا تعرض للاعتداء مثلا.

] [19]قال ألقها يا موسى[

ان أمر الله لموسى بالقاء العصا بعد أمره بخلع النعلين بالاضافة الى ما قلناه من اختبار للطاعة ، و التوجه الخالص له سبحانه ، فهو أيضا لاعطاء درس لموسى (ع) ولنا من بعده ، و ذلك الدرس هو ان اعتماد الانسان يجب أن يكون فقط على الله الذي بيده ملكوت كل شيء، و هو يجير ولا يجار عليه ، وان اعتماد الانسان على الوسائل المادية الموجودة في الحياة ما لم تكن باذن الله و امتثالا لأمره فانه لا يغني عنه شيئا فان القوة لله جميعا.

] [20]فألقاه فإذا هي حية تسعى[

كانت هذه مفاجأة مذهلة و منظرا رهيبا بالنسبة الى موسى ، و قبل ان يستبد به الخوف و يؤدي به الى الانهيار جاءه النداء الرحماني.

] [21]قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى[

أي كما كانت من قبل عصا.

] [22]واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء]أي اجعلها تحت إبطك ، فادخل موسى يده

الكريمة تحت ابطه ثم أخرجها فاذا هي تشرق نورا . و معنى من غير سوء : ان البياض لم يكن من البرص كما توحي الى مثل ذلك التوراة المنحرفة.

]آية أخرى[

و ذلك تعزيزا للآية الأولى (العصا. (

] [23]لنريك من آياتنا الكبرى[

وعد الله موسى بأن يريه آيات أخرى أكبر من هذه و فعلا كان فلق البحر و إغراق فرعون و أصحابه آية كبرى ، ولا ننسى الآيات المفصلات الأخرى (الجراد ، و القمل ، و الضفادع ، و الدم و .. و. (

هذه الآيات يجب أن تزيدنا إيمانا بامكانية الانتصار ، و بامكانية الحصول على آيات أكبر منها ، ان الله سبحانه يعطينا بعض الآيات الصغيرة ليشير بذلك الى قدرته ، و يجعلنا نؤمن بأن الآية الكبرى أمامنا هي الانتصار الكبير ، و انما علينا أن نسعى و نبذل جهدنا، ولا نتقاعس او نجبن و نخاف.

] [24]اذهب إلى فرعون إنه طغى[

القرآن حدد كلمة واحدة حول فرعون و هي الطغيان ، و لكن هذه الكلمة تكفينا عن ألف كلمة ، فالانسان الطاغي يفعل كل الجرائم و يرتكب كل الشرور..

الضروريات الرسالية

هذه هي طلبات موسى وفي نفس الوقت هي خطط موسى:

] [25]قال رب اشرح لي صدري[

اجعل صدري واسعا شرحا لا أتهيب الصعاب التي قد تواجهني في الطريق ، اني أعلــم بأن حمل الرسالة عملية صعبة لذلك فأنا أحتاج الى صدر يسع كل مشاكل التبليغ و يزيد.

] [26]و يسر لي أمري[

لعل موسى (ع) كان يرى إن فرعون يصعد الموقف مما يدفع بموسى (ع) الى التصعيد أيضا - خصوصا وان موسى (ع) كان مشهورا بالغضب في الله ، فكان يريد أن تمشي المسائل بهدوء بدون حاجة الى العنف.

هذا من ناحية و من ناحية ثانية فان موسى (ع (كان يدرك خطورة و صعوبة المسؤولية على عاتقه ، فكان يريد التيسير في أموره ، و رفع الثقل جراء حمله الرسالة.

هذا إذا علمنا أن الانسان الذي يحمل هموما كثيرة بسبب عمله لن يفلح أثناء عمله ، لأن الهم و الاحساس بثقل العمل يثبط الانسان عن العمل ، فلذلك أراد موسى أن يزيل هموم عمله بدعائه لربه لتيسير عمله .. الذي يعني الاستعداد للقيام بدور أكبر..

] [28 - 27]و احلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي[

كلمة اللسان هنا ربما تعبر عن الاعلام ، فموسى (ع) كان يطمح الى اعلام قوي يدخل في الأعماق ، و ربما هذه الفكرة ماخذوة من قوله " يفقهو قولي " و بمعنى آخر إن موسى يطمح الى شيئين:

الشيء الأول : قوة الاعلام الذاتية ، و هذا لا يتم إلا بمعرفة منطق الناس ، كما قال رسول الله (ص) : " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم " و هذه الفكرة يدل عليها قوله : " و احلل عقدة من لساني " و هي التي تدل عليها الرواية التالية.

الشيء الثاني : خلق التأثير أو بمعنى آخر انه طلب من الله أن يلهم عقولهم التفهم لرسالته ، و كأن موسى يدعو لهم بالعقل : و هذا ما تدل عليه الجملة الثانية " يفقهوا قولي. "

جاء في تفسير القمي عن الامام الباقر (ع) : " و كان فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلما يلدون ، و يربي موسى و يكرمه ، و لا يعلم ان هلاكه على يديه ، ولما درج موسى كان يوما عند فرعون ، فعطس فقال : الحمد لله رب العالمين ، فانكر فرعون ذلك و لطمه و قال : ما هذا الذي تقول ..؟ فوثب موسى (ع) على لحيته و كان طويل اللحية فهبلها - أي قطعها - فألمه ألما شديدا ، فهم فرعون بقتله ، فقالت له امرأته : هذا غلام لا يدري ما تقول ، فقال فرعون بلى يدري ، فقالت : ضع بين يديك تمرا و جمرا ، فان ميز بين التمر و الجمر فهو الذي تقول ، فوضع بين يديه تمرا و جمرا ، و قال له : كل فمد يده الى التمر فجاء جبرئيل فصرفها الى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه ، و صاح و بكى ، فقالت آسية لفرعون : ألم أقل لك انه لم يعقل .. فعفا عنه. . "

هكذا أضحى موسى (ع) منذ ذلك اليوم ألثغا.

] [30 - 29]و اجعل لي وزيرا من أهلي * هارون اخي]لقد كان هارون أكبر سنا من موسى ، و كان جلال النبوة ظاهرا على محياه ، و كانت مهمات موسى عظيمة ، اذ لم تقتصر على تبليغ رسالات الله فحسب ، بل وايضا مقاومة طاغوت متجبر كفرعون ، و إنقاذ شعب مستضعف ثم قيادته و توجيهه ، فدعا ربه أن يجعل هارون وزيره.

و قد جاء في حديث ماثور عن أبي جعفر الباقر عليه السلام:

قال الراوي فقلت لابي جعفر : و كان هارون أخا موسى للأم و أبيه ؟

قال :نعم أما تسمع قول الله تعالى : " يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي " ؟ فقلت : فأيهما كان أكبر سنا ؟ قال : هارون ، قلت : و كان الوحي ينزل عليهما جميعا ؟ قال : كان الوحي ينزل على موسى ، و موسى يوحيه الى هارون ، فقلت : أخبرني عن الأحكام و القضايا و الأمر و النهي كان ذلك اليهما ؟ قال : كان الذي يناجي ربه و يكتب العلم ، و يقضي بين بني اسرائيل موسى ، و هارون يخلفه اذا غاب من قومه للمناجاة . (١)[٣١] [اشدد به أزري[

أي قو به ظهري ، و لعل ذلك يعني انه كان يستخلفه عندما يغيب عن قومه.

] [32]و أشركه في أمري[

أي يتحمل جزء من مسؤولياته حتى عند وجوده.

] [33]كي نسبحك كثيرا[

التسبيح هو تنزيه الله كما جاء في الحديث : انه سئل الامام أبا عبد الله عن معنى سبحان الله ؟ فقال : تنزيهه . (٢)(١) نور الثقلين / ج٣ / ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(2)بحار الأنوار / ج٩٣ / ص ١٧٧.

] [34]و نذكرك كثيرا[

ولا يعني ذكر الله مجرد تحريك اللسان ، بل جعل الله مراقبا في السر و العلن ، و يدل على ذلك الحديث الشريف : قال أبو عبد الله (ع) : " ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من خصال ثلاث حرمها ، قيل : و ما هن ؟ قال : المواساة في ذات الله ، و الانصاف مننفسه ، و ذكر الله كثيرا.

أما واني لا اقول لكم : سبحان الله و الحمد لله ولا إله الا الله و الله أكبر ، و لكن ذكر الله عندما احل له ، وذكر الله عندما حرم عليه " . (١)[٣٥] [إنك كنت بنا بصيرا[

باعمالنا و تصرفاتنا ، و لعل هذه الآيات توحي بأن هدف موسى و هارون لم يكن السيطرة بل تطبيق واجبات الرسالة.

ونتـساءل :ما الذي دعا موسى (ع) الى أن يطلب من الرب و زيرا كهارون (ع) ؟ الجواب : إن موسى عليه السلام عرف منذ البدء أبعاد الرسالة التي سوف يحملها ، و الصعاب التي تعترضه في سبيل تبليغها ، و الضعف الذي اعترى قومه من بني إسرائيل نتيجة الاستعباد مدة طويلة ، و القوة التي طغى بها أعداؤهم من الأقباط بقيادة فرعون.

و كان يشعر - لذلك - بالحاجة الى من يسند ظهره ، و يطبق واجبات الرسالة بلا تردد ، فيكون إماما في الطاعة ، و قدوة في تنفيذ أوامر القيادة ، فلم يجد افضل من أخيه هارون.

(1)المصدر / ص ١٨٣.

و هكذا كل صاحب دعوة بحاجة الى شخصية تتجلى فيه رسالته و يكون مثلا أعلى لها ، كما كان هارون لموسى ، و واصف بن برخيا الذي أوتي علما من الكتاب لسليمان ، و يحيى لعيسى بن مريم ، وكما كان علي بن ابي طالب عليه السلام للنبي محمد صلى الله عليه وآله ، و هكذانجد الرسول يكرر : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي.

ولقد حدثت واقعة تاريخية : أظهرت الحاجة الى ذلك.

حيث إن النبي لما أراد الخروج الى غزوة تبوك استخلف أمير المؤمنين عليه السلام في أهله و ولده و أزواجه و مهاجره فقال له : يا علي ان المدينة لا تصلح إلا بي أو بك ، فحسده أهل النفاق و عظم عليهم مقامه فيها بعد خروج النبي صلى الله عليه وآله و علموا انهاتتحرس به ولا يكون للعدو فيها مطمع ، فساءهم ذلك لما يرجونه مـن وقوع الفساد و الاختلاف عند خروج النبي - صلى الله عليه وآله - عنها ، فارجفوا به عليه السلام و قالوا : لم يستخلفه رسول الله إكراما له ولا إجلالا و مودة و انما استخلفه استثقالا له ، فلما بلغأمير المؤمنين (عليه السلام) ارجاف المنافقين به أراد تكذيبهم و فضيحتهم ، فلحق بالنبي صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ان المنافقين يزعمون : أنك انما خلفتني استثقالا و مقتا ، فقال رسول الله (ص " : (إرجع يا أخي الى مكانك فان المدينة لا تصلح إلا بي أو بك ، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي و قومي ، اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي ؟" (١)[٣٦] [قال قد أوتيت سؤلك يا موسى[

و هكذا من الله على عبده و رسوله موسى بن عمران ، فاتاه كل ما سأله مرة و احدة ، لانه كان من وسائل تبليغ الرسالة ولم تكن طلبات شخصية.

(1)المصدر / ص ٣٧٨

موسى بين يدي العناية الالهية

هدى من الآيات

سلسـلتان من النعم تتوافر عند الانسان لتكون شرطا مسبقا لتلقية النعمة الكبرى ، وهي نعمة الهداية الالهية.

السلسلة الأولى : النعم المادية.

مثل النمو الجسدي ، و التكامل العقلي ، و وجود أدنى ضرورات الحياة المعيشية .

السلسلة الثانية : النعم المعنوية.

مثل سلامة القلب ، و عدم وجود نقص في أي حاجة من الحاجات النفسية ، أو في احساس الانسان تجاه الآخرين ، و سلامته من العقد النفسية التي تمنع الهداية.

تشير هذه الآيات الكريمة الى ان موسى (ع) قبل أن يتلقى الرسالة ، تلقى هاتين السلسلتين من النعم ، فمن جهة نرى ان الله سبحانه و تعالى انقذ النبي موسى (ع) من قتل محتم ، فقد كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل و يستحيي نساءهم ، فلما رأى أن نسل بني إسرائيلسوف ينقطع بهذه الطريقة ، أخذ يقتل فيهم عاما و يتركهم عاما ، و قد ولد موسى (ع) في تلك السنة التي يقتل فيها فرعون أبناء بني إسرائيل و أنجاه الله مع ذلك من القتل ، و بعد ذلك نجي من موت محتم آخر ، عندما قتل قبطيا ، فهرب الى المدائن ، حيث تشكل هذه الهجرة الانطلاقة الرسالية الكبرى.

كما تعرض موسى (ع) لسلسلة طويلة من الأخطار ، كذلك كل انسان يتعرض لأخطار محدقة تكاد تؤدي بحياته ، ولكنه ينقذ منها برحمة من الله و فضل ، و القليل من الناس من يلتفت اليها أو يذكرها عندما يكبر ، و هنا يذكر الله موسى (ع (بطفولته حينما كاد جلادوا فرعون أن يقتلوه فأنقذه الله ، و لابد أن نذكر أنفسنا بتلك الأيام الخوالي التي كادت الأخطار فيها أن تهلكنا فأنقذنا الله منها.

كما يذكر الله موسى بالسلسلة الثانية من النعم ، فقد ألقى الله عليه محبة ممن كانوا يحيطون به ، لكي تنمو نفسه نموا متكاملا دون عقد أو أدنى نقص ، و يكون بذلك مستعدا لتلقي نعمة الهداية ، ولكن السؤال هل هذه نعمة خاصة ؟

كلا ! كل واحد منا قد تلقى أمواجا من الرحمة و الحنان من قبل والديه ، ومن قبل المحــيطين به ، فالكثير نمت نفوسهم سليمة و مستقيمة مستعدة لتلقي نعمة الهداية ، ولكن عند موسى يصبح هذا الأمر أكثر وضوحا ، حيث ان الله سبحانه حمل التابوت الذي يحمل موسى البيت عدوه فرعون ، و عندما رآه فرعون وقع في قلبه موقعا حسنا و أحبه فلم يقتله ، و حينما فتش فرعون عن المراضع لم يجد إلا امه و هو لا يعرفها انها أمه ، فعاد موسى الى أمه كي ينمو في حضن الأمومة الدافىء ، الذي يربي نفس الطفل على الاستقامة و السلامة المعنوية، لأن من يفقد حنان الأمومة طفلا يظل محتاجا لها كبيرا .

الطفل لا يرضع من ثدي أمه لبنا فقط ، و انما يرتضع من أمه حنانا و دفئا ، و في قصة موسى رمز الى هذه الرضاعة.

بعد أن تتوفر هاتان السلسلتان من النعم التمهيدية تاتي النعمة الكبرى و هي نعمة الهداية .. و بعدما ذكر الله رسوله موسى (ع) طلب منه أن يبلغ هذه النعمة (الرسالة. (

إن نعمة الهداية بالنسبة لموسى ، هي نعمة الرسالة ، و ليس للرسول الذي يبلغ الرسالة فقط ، بل هي للمرسل اليه الذي يتلقى الرسالة و يستقبلها محاولا تطبيقها أيضا.

بينات من الآيات
منة النجاة

] [37]ولقد مننا عليك مرة أخرى[

كما مننا عليك اليوم بالرسالة ، كذلك مننا عليك بنجاتك و رضاعتك و تربيتك.

] [38]إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى[

وضعنا خطة لخلاصك من يد فرعون و جلاديه ، حيث اننا أوحينا الى أمك صنع تابوت و وضعك فيه ، ثم تتركه في اليم.

إن الانسان مزود في حياته بتعاليم حول السلامة و الاسترزاق دون أن يعرف ان هذه تعاليم ، و بطريقة ما ينقذ نفسه و ينقذ من كلف به من الاخطار بسببها ، جاء في تعقيب صلاة العشاء : " اللهم إنه ليس لي علم بموضع رزقي وإنما أطلبه بخطرات تخطر على قلبي ..." (١) كل ذلك بوحي من الله سبحانه و تعالى ، و لكن ذلك يتجلى عند موسى (ع) بشكل أكبر ، ليرمز به الله سبحانه في وحيه الى الناس .. كل الناس .. في سائر الظروف.

] [39]أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم[

قالوا :بأن أم موسى (ع) حينما جاءها الوحي أن تصنع تابوتا لم تعرف كيف تصنع التابوت ، فجاءها جبرئيل و علمها كيف تصنع التابوت ، ثم بطنت داخل التابوت بالقطن ، لتمنع تسرب الماء الى داخله ، ثم أغلقت التابوت على موسى ، فقذفته في اليم ، و اليم هنا هو نهرالنيل.

]فليلقيه اليم بالساحل[

أي يقذفه النيل الى الشاطىء ، و لكن أي شاطئ ؟! انه بيت فرعون ، و هنا نلاحظ بوضوح كيف تسخر الطبيعة في خدمة الانسان.

من مأمنه يؤتى الحذر

]ياخذه عدو لي و عدو له[

لماذا يربي الله موسى (ع) في بيت عدوه ؟

لأن الله سبحانه و تعالى يريد أن يقول للبشرية جميعا : أيها االبشر ! أنا خالقكم و أموركم بيدي ، فها أنا ذا أربي موسى في بيت فرعون عدوي وعدوه ، تحت عيني فرعون ، ثم اسلطه عليه ، وهذا دليل على أن قوة الله و قدرته قد تأتي من داخل قصور الطغاة ، و كما يقول المثل : (من مأمنه يؤتى الحذر. (

(1)كليات مفاتيح الجنان / ص ٤٣.

]و ألقيت عليك محبة مني[

ألبس الله سبحانه موسى (ع) ثوب المحبة كما يلبس الانسان ثوبا ، بحيث ينجذب إليه و يحبه كل من يراه.

/ 1في تنمية المواهب:

]ولتصنع على عينى[

أراد الله أن ينــمي مواهب موسى (ع) بصورة استثنائية تمهيدا لتحميله الرسالة ، و كذلك بالنسبة الى جميع الأنبياء (ع) حيث أن الله سبحانه يختار أنبياءه منذ طفولتهم فيعرضهم للامتحانات ، و ينمي مواهبهم بطرق معينة ، وهذا لا يخالف الفكرة الإسلامية حول : انالانبياء يتعرضون لامتحانات كما يتعرض غيرهم ، قال تعالى : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن " . (١)إن الله سبحانه و تعالى يعرض أنبياءه لامتحانات صعبة الى درجة لا يتحملها الانسان العادي ، واذا لم يتحملها النبي فلا يختاره ، و لكن مع ذلك هناك نعمة تسبق نعمة الامتحان ، و هي بناء النبي بناء استثنائيا استعدادا لتحميله مسؤوليات ضخمة في المستقبل ، و يمكن أن نضرب مثلا لهذه الحالة بالتدريب في الوحدات الخاصة في الجيش.

هؤلاء المنتمون الى هذه الوحدات يتعرضون لتدريب صعب و شاق لتنمو مواهبهم ، و تتدرب أجسادهم

على الصعاب ، و لكن هل يكتفي المدرب بهذه(١) سورة البقرة / ١٢٤.

التدريبات الصعبة الشاقة ؟ كلا .. إنما يمتحنهم بعد ذلك امتحانا ، فاذا سقط أحدهم في الامتحان يسرح .

النبي كذلك يتعرض منذ نعومة أظفاره لصعوبات ، فعيسى (ع) تعرض لصعوبة ما ، حيث انه ولد من غير أب ، فاتهموا أمه الطاهرة مريم (ع) ، فانقذهما الله من هذه التهمة ، و ابراهيم (ع) ولد في وضع مشابه لوضع موسى (ع) ، حيث كان نمرود يقتل الأبناء و يستحيي النساء ،فولدته أمه في هذا الوضع و نجاه الله سبحانه ، و نبينا محمد (ص) تعرض منذ طفولته لليتم.

/ 2في بيت فرعون:

] [40]إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله]حينما انقذ الله موسى من فرعون ، أنقذه من خطر مادي ، ولكن ينقذه هنا من خطر معنوي و نفسي ، ذلك هو تربيته بدون أم و أب ، فيفتقد الى الحنان ، و افتقاده الى حنان الوالدين قد يسبب له عقدة نفسية ، فيفقد السلامة النفسية الضرورية لاستقبال الوحي ، ولكن اللهقدر أن يحل هذه المشكلة.

أخذ فرعون هذا الطفل الصغير من بني إسرائيل فالقى الله محبته في قلبه ، ولكنه مع ذلك تجلد ، وقال : أيها الجلاد إضرب عنقه ، لانه عرف أن ملامحه هي ملامح بني إسرائيل ، فتدخلت زوجته آسية بنت مزاحم : " و قالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسىأن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون " (١) وقبل فرعون ترجي زوجته ، وبعث الى من حوله من المراضع فجئن ، ولكن موسى (ع) هذا الطفل الصغير أبى ، ان يرتضع من أي ثدي ، و هنا جاءت أخته التي أمرت من قبل أمه(١) سورة القصص . 9/

بأن تقص أثر التابوت ، و تمشي وراءه ، و كانت واقفة بباب فرعون حين بعث الى من حوله من المراضع ، فأدخلت و قالت : أني أعرف من يرضعه و يكفله لكم.

/ 3العودة الى الأم:

]فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن[

تقر عين الأم بوجود طفلها و تطمئن ، و يستفيد الطفل من هذا الاطمئنان . و القرآن يشير هنا الى حنان الأمومة الضروري لتنمية مواهب الطفل ، لان الطفل لا يفهم شيئا آنئذ ، ولكن الأم وحدها هي التي تفهم مدى حنانها الى طفلها ، وان الطفل قرة عينها وان افتقادهيسبب حزنا لها.

/ 4في محنة القتل:

مرة أخرى ينجي موسى من الخطر المعنوي فيقول:

]و قتلت نفسا فنجيناك من الغم و فتناك فتونا[

انقذه الله سبحانه و تعالى مرة أخرى من الموت ، ولكن الله لم ينقذه من الموت فقط ، بل انقذه ايضا من الغم ، حيث ان موسى (ع) بعد أن قضى في صراعه على القبطي ، اغتم بسبب هذه الفعلة ، و القلب المصاب بالغم لن يكون مستعدا لتلقي الرسالة ، فأنجاه الله من هذاالغم ، لكي يكون مستعدا لتلقي زخات الرسالة ، و كم نجانا الله وأنقذنا من أمثال هذا الغم ، الذي يسبب تراكمات في النفس ، و بالتالي عقدا نفسية تحجب الانسان عن فهم الرسالة.

]فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى[

أي بقي عشر سنين في مدين عند عمه شعيب ، ثم بعد انتهاء هذه السنوات العشر جاء على قدر .. يعني جاء و قد قدر الله مجيئه تقديرا.

ونحن كثير من أعمالنا نحسبها صدفة ، بينما هي اقدار من الله سبحانه ، و هكذا قدر لموسى أن يأتي بعد عشر سنوات ، وأن يتيه في الصحراء ، و تلد زوجته ، و يحتاج الى قبس من النار .. قدر له كل ذلك ، ثم جيء به لاستقبال الرسالة.

الأحداث هي التي تدفعك لان تختار طريقا ، قد يكون فيه خيرك ، فمثلا : بعض الناس قد لا توجد لديه رغبة أساسا في السياسة ، ولا يتدخل فيها ، لكن قد ينتمي ابنه الى حركة إسلامية ، فيطارده الأمن ، و يفتش عنه في بيته ، فيسبه الأمن هو و أهله ، فينتبه الأب و تنتبه الأم و الأخوة ، ثم قد ينتمون الى هذه الحركة و قد يصبحون قادة لها أو شهداء فيها.

إذا جاءك قدر من هذه الأقدار ، فاعرف بأن نعمة من الله سبحانه قد هبطت عليك ، وان الله يريد لك الجنة ، و يريد لك أن تكون ذا شأن ، فلا تغلقن الأبواب أمام الأقدار الخيرة ، ولا تمنع نفسك من بركات السماء.

ثم تاتي مرحلة التربية ، و يجب على الانسان أن يشكر مربيه الذي رباه على الخير و التقوى و الاستقامة و . . و .. منذ طفولته المبكرة ، و يجب على الانسان أن يشكر ربه الذي وفر له مثل هؤلاء المربين الذين يربونه على الصفات الحسنة ، و شكر الله على التربية الفاضلة التي تلقيتها هو أن تستجيب للرسالة التي تهبط عليك.

التبربية المثلى:

] [41]و اصطنعتك لنفسي[

خلق الله الانسان لنفسه ، و خلق الأشياء للانسان ، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي : [عبدي ! خلقت الأشياء لأجلك ، و خلقتك لأجلي ، و هبتك الدنيا بالاحسان و الآخرة بالايمان] (١)خلق الله الانسان ليكون منه خلفاؤه في الأرض ، و سخر له كل شيء من الطبيعة ، و كل شيء منه ، العلم و الارادة و العقل ، ولكن كثير من الناس لا يشكرون ربهم ، ولا يعرفون منزلتهم فيهبطون الى حضيض الأنعام ، بل أضل سبيلا : " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلسبيلا " (٢) و الاصطناع الرباني أكثر بروزا عند الأنبياء ، لان الله يوفر للأنبياء التربية المثلى ، و يولدون من آباء و أمهات مؤمنين ، فهم في قمة الكمال و الصلاح ، ولولا صلاح الأبوين لما اختار الله سبحانه و تعالى من أولادهم أنبياء.

جاء في الآية الكريمة حول نبينا محمد)ًص) : " و تقلبك في الساجدين " (٣)فسرت هذه الآية إن النبي كان يتقلب في صلب الآباء و الامهات الساجدين لله سبحانه ، وأن جميع آباء النبي مؤمنين و صالحين.

] [42]اذهب أنت و أخوك بآياتي ولاتنيا في ذكرى[

بعد أن وفرنا لك وسائل و ظروف الاستجابة للرسالة ، من وسائل مادية و معنوية ، و هديناك الى الرسالة ، احمل أنت و أخوك الرسالة بقوة ولا تضعفا ولا تهنا في تبليغها.

ما هو الذكر ؟

قد يكون الذكر هو الرسالة ، و قد يكون الذكر هو ذكر الله الذي يربي نفس(١ (مشارق أنوار اليقين.

(2)سورة الفرقان / ٤٤.

(3)سورة الشعراء / ٢١٩.

الانسان لتحمل صعوبات تبليغ الرسالة .. فأنت حين تبلغ الرسالة تتعرض لمجموعة من الصعاب و المشاكل ، و تجاوز تلك الصعاب و المشاكل لا يكون إلا بذكر الله سبحانه ، فبذكر الله يطمئن قلبك ، و تشتد إرادتك ، لذلك على الانسان الذي يحمل الرسالة ألا يني ولا يفترعن ذكر الله أبدا ، كي ينصره الله على المشاكل.

الحركة الرسالية و أساليب الدعوة

هدى من الآيات

في طريق الانسان الى ربه عقبات ولابد من تصفيتها:

اولا : الاستهزاء (أو انعدام الاحساس بالمسؤولية. (

ثانيا : الرجعية (و الحنين الى سيرة القرون الأولى. (

و تعالج آيات هذا الدرس هذه العقبات:

أول كلمة قالها الله لموسى و هارون (عليهما السلام) حينما أمرهما بدعوة فرعون الى الهدى هي : " إنه طغى " ، و طغيان فرعون جاء من إحساسه بالاستغناء ، فكلما أحس الانسان بعدم الحاجة ، و زعم إن حاجاته تتحقق يطغى ، فأمر الله سبحانه و تعالى موسو هارون (ع) بمعالجة الطغيان عن طريق التذكرة و التوجيه ، و بيان حاجة فـرعون الحقيقية ، بالرغم من زعمه بعدم الحاجة ، ثم عالج السياق العقبة الثانية ، الاستهزاء ببيان ان الجزاء لواقع ، وان الانسان لمسؤول عن مواقفه ، لان الانسان لا يبالي مادام لا يعلم إنعليه جزاء ، أما إذا عرف انه سوف يجزى بمواقفه ، فسوف يعود الى رشده.

أما العقبة الثالثة و هي الحنين الى الماضي ، و الخوف من تطويره ، فقد عالجها القرآن الحكيم ببيان إن كل الحياة ماضيها و حاضرها و مستقبلها محكومة بارادة الله ، وإن تدبير الله و تقديره و قضاءه يحيط بالحياة احاطة كاملة ، و ان القرون الماضية لا يجب أن تقدس تقديسا مطلقا ، بل إن علمها عند الله ، فاذا كانت تلك القرون في طريق الحق فهي لأجل الحق مقدسة ، أما اذا كانت في طريق الباطل فعليها لعنة الله لانها لم تتبع الحق .

هذا ولقد جاءت رسالات الله لتعالج أيضا كل عقبة أو شذوذ في حياة البشر ، إن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل كعنصر مخالف لعنصره ، فعالج القرآن هنا هذه العقبة أيضا ببيان إن بني إسرائيل يجب أن يتحرروا ، و بالرغم من ان هذه العقبات ذات أبعاد مختلفة ، بعداجتماعي ، و بعد سياسي ، و بعد ثقافي و .. و .. الخ ، لكن الآيات الكريمة في سورة طه - كما يبدو - تركز الضوء على البعدين النفسي و الثقافي أكثر من أي بعد آخر.

بينات من الآيات

كيف يعالج القرآن الطغيان ؟

] [43]اذهبا إلى فرعون إنه طغى[

الانسان الذي يطغى إنما يطغى لاحساسه بعدم الحاجة ، وان الآخرين محتاجون إليه ، فاذا أحس الانسان بحاجته أنحسر عنه الطغيان.

و الطغيان يأتي بسبب إحساس الانسان بأن أهدافه في الحياة قد تحققت ، وان طموحه قد بلغت غايته ، أما الفرد الذي يشعر بأنه لم يحقق أهدافه ، فانه يخشع للسبل و الوسائل التي تحقق ذلك الهدف.

] [44]فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى[

كيف يعالج الطغيان القول اللين ؟ لأن الطغيان حالة إستكبار و غرور ، و معالجة الغرور قد لا يمكن بالعنف ، بل بما ينفذ في الأعماق ، ولا يثير دفائن الكبر ، ومن هنا كان على الداعية أن يعرف : ان هدفه ليس تحطيم المتكبر ، بل إرشاده ، و بالتالي فعليه ألا يقابل طغيانه بطغيان مثله ، بل بسعة الصدر و دماثة الخلق.

القول اللين هو الدرس العملي للطاغية ، ليعرف أن طغيانه في غير محله ، القول اللين يأتي ليهدم أساس الطغيان و ليعرف صاحب الطغيان بأن هناك طريقا آخر لتحقيق الأهداف.

هناك فكرة أخرى نستلهمها من هذه الآية وهي : ان الطاغية حتى لو بلغ بطغيانه الى مستوى طغيان فرعون الذي يضرب به المثل ، فهو لا يزال بشرا ، ولا تزال هناك فرصة لهدايته ، لذلك يجب أن لا نيأس من هداية أي بشر.

] [45]قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى]كان موسى و هارون (ع (يخافان على الرسالة قبل أن يخافا على أنفسهما ، حيث كانا يخشيان مبادرة فرعون بقتلهما ، أو تعذيبهما بحيث يقطع عليهما الكلام ، أو يمنع وصول الرسالة الى الناس ، و لعل هذا هو معنى " أن يفرط علينا " بمعنى يبادر بالعمل ضدنا.

وعلى هذا المعنى فلم يكن خوفهما هنا على أنفسهما ، كما لم يكن خشية موسى في مقام آخر على نفسه ، حيث يقول الامام علي (ع " : (اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان ! عزب رأي أمرء تخلف عني ! ما شككت في الحق منذ رأيته ! لم يوجس موســى عليه السلام خيفة على نفسه ، بل أشفق من غلبة الجهال و دول الضلال ! " (١) هذا خوف . و الخوف الآخر هو أن يسبب الحديث معه المزيد من الطغيان.

هذان درسان لكل داعية ، فعليه أن يحاول ايصال الهداية الى من يريد ، قبل أن يبادر هو بقطع كلامه ، و يفعل ذلك بحيث لا يزيده طغيانا.

ما هو القول اللين ؟

بعض الناس يتصورون بأن القول اللين هو مجرد الخضوع في القول ، و لكن يبدو أن القول اللين أوسع من هذا المعنى ، فانه يشبه الماء الذي ينفذ في كل مكان ممكن ، فهو يبحث عن الثغرات في قلب الطرف المقابل للنفوذ من خلالها، فهو ليس اسلوبا واحدا ، إنما هو الحكمةفي اختيار الأسلوب المناسب في الوقت المناسب.

] [46]قال لا تخافا[

بعد أن بين القرآن هاتين المشكلتين و حلهما ، أعطى حلا للمشكلة النفسية عند الداعية ، و هي مشكلة الخوف.

]إنني معكما اسمع وأرى[

عندما يطلب الله منهما عدم الخوف ، فإنه يوفر لهما سبل نجاح دعوتهما ، و الحفاظ عليهما ، وهذا ما قضاه الله حين قال : " إنني معكما أسمع و أرى " ، والذي يسمع هو القريب ، و الذي يرى هو الشاهد ، و لعل معنى الآية : إني أسمع القول ، و أرى الفعل.

(1)نهج البلاغة / ج ٤ / ص ٥١.

الجانب الاجتماعي للرسالة

] [47]فاتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم[

لقد حملت الرسالة الالهية الى الانسانية المعذبة بشرى العدالة ، أو ليست الرسالة الالهية تنزل من أجل إصلاح ما فسد من حياة الناس ، أو ليس فساد المجتمع الفرعوني الأخطر هو العنصرية ، و استضعاف طائفة من الناس .. هم بنو إسرائيل ، هكذا جاءت الرسالة تأمر فرعون الطاغية بهدم أساس حكمه ، و اطلاق حرية الفئة المستضعفة.

]قد جئناك بآية من ربك و السلام على من اتبع الهدى]الهدى هو الإسلام ، و الإسلام يعني السلام ، ولا يمكن أن يتحقق السلام من دون الهدى ، فمن الخطأ أن يتصور البعض بأن السلام يتحقق عن طريق الظلم.

الإسلام يرفض هذه الفكرة و يقول : إن السلام يجب أن يقام على أساس (الهدى) وانه من دون الهدى لا سلام ، و الحرب و الصراع سيبقيان حتى يتحقق الهدى.

] [48]إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب و تولى]يبدو من السياق : ان الفكرة الثانية التي طرحتها رسالة الله هي فكرة المسؤولية ، وان البشر مجزي بعمله ، فله السلام إن اتبع الهدى ، و عليه العذاب إن كذب و تولى ، و هذه الفكرة التي تؤكدها فطرة البشر ، هي حجر الأساس في بناء صرح الثقافة السليمة.

] [49]قال فمن ربكما يا موسى[

كان البشر عبر التأريخ يعتقدون بالله رب السماوات و الأرض ، و لكن اعتقادهم كان أبدا مشوبا بالشرك ، لذلك يطرح هذا السؤال : ماذا أراد فرعون باستفهامه عن رب موسى و هارون ؟ الجواب : لعل فرعون كان يريد أن ينسب حركة موسى و هارون التغييرية الى قوة سياسية أرضية ، و كان يعني بالرب هنا ما يقال عن (رب العائلة) : أي مسؤولها - أي كان يريد أن يقول : إنكم تريدون أن تفسدوا السلطان الذي أملكه ، عن طريق الدعوة الى دولة أخرى ، و بالتالي كان فرعون - كاي طاغوت آخر - يتهم الحركات التحررية بانها حركات عملية ، فاجابهموسى (ع) : باننا لا ندعو الى إسقاط هذه الحكومة و قيام حكومة نحكمها نحن ، وانما ندعو الى تحرر الانسان و خاصة بني إسرائيل ، ليس من عبوديتك فقط ، بل من عبودية أية سلطة ، حتى ولو كانت من داخل تجمعهم ، و الدعوة الى عبودية الله التي هي الحرية المطلقة.

] [50]قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى[

إننا لا ندعو الى أحد وإنما ندعو الى الله الذي خلق الأشياء ، ثم هداها في طريقة تنفسها ، و أكلها ، و شربها ، و الحماية عن نفسها و .. و .. فالله حينما خلق الأشياء علم أنها تحتاج الى وسائل تغذية و حماية و تمتع وغيرها ، فهداها الى كل ذلك بفضله ! فهو إذن الرب الحقيق بالعبادة ، و التسليم و الولاية .

ومن خلال هداية الله للأشياء ينبغي أن يهتدي الانسان بهدى العقل و رسالة الرب ، الى منافعه و مصالحه الحقيقية.

الفكر الرجعي:

] [52 - 51]قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى]الأفكار التي تتشبث بها يا فرعون ! هي أفكار القرون الأولى ، و يبدو أن الطغاة ينصبون من أنفسهم مدافعين عن التقاليد و العادات ، و ذلك لهدفين:

اولا : إيهام الناس بأنهم يدافعون عن مقدساتهم ، و بالتالي فهم أجدر بالسلطة من غيرهم.

ثانيا : الخوف من التغيير ، لأنه قد يحمل معه ما يهدم سلطانهم ، ذلك إن أبرز خصائص النظام السياسي هو الثبات.

هكذا تساءل فرعون عن مصير السابقين ، هل هم في الجنة أم في النار ، واذا كانوا كفارا فلماذا لم يعذبهم الله في الدنيا ، فأعرض موسى عليه السلام عن الاجابة المباشرة ، ببيان السنة الالهية العامة ، وان عند الله علم هؤلاء في كتاب ، و بالتالي فان حسابهم محفوظ ، و تأخير العذاب لا يدل على نفيه ، كما ان الله يحكم عليهم بالقسط ، ولا يظلم أحدا شيئا ، وان هذا الكتاب لا يسجل باطلا ولا يمحى عنه شيء ، فلا يضل و لا ينسى.

ثم أشار موسى الى صفات الرب ، لعل فرعون يخشع قلبه لذكر الله ، و من لم يلن قلبه لذكر الله ، فانه أقسى من الصخور الصماء.

] [53]الذي جعل لكم الأرض مهدا و سلك لكم فيها سبلا]أي جعل الأرض بحيث تستطيعون البقاء عليها ، إذ لو كانت الأرض من حديد أو رمال متحركة أو أسمك قليلا ، أو أرق قليلا ، لتغيرت معادلة الحياة عليها.

]و أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى]نظرة الى الكون فيما حول الانسان ، كافية بأن تعطيه فكرة هامة هي : إن هذا الكون مخلوق ، لأن كل شيء فيه مرتب ترتيبا دقيقا لهدف معين ، فالأرض أعدت للسكن و الزرع و تخزين المعادن و المياه و غيرها ، و الجبال لترسي الأرض و تصد الرياح و هكذا..

وحسب حاجات الانسان و الحيوان و الأرض و البيئة ينبت نبات الأرض و هذا دليل على وجود حكمة بالغة تدبر هذا الكون.

] [54]كلو و ارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى]أولي النهى : أولو الفكر ، و قد قال الله عنهم : " الذين يتفكرون في خلق السموات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار" ، و أولي النهى ، أي الذين ينهون الناس عن الانحراف.

] [55]منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى]هذه الأرض هي أمنا الحنون التي خلقنا منها و تحركنا عليها ، ثم نعود الى بطنها ثم نخرج من بطنها مرة أخرى لكي نحاسب ، هكذا قال موسى لفرعون.

و لعل مراد الله في هذه الآية تذكير الطغاة الذين يستعلون في الأرض بغير الحق ، و يستعبدون الناس ، تذكيرهم بان الناس جميعا من تراب ، فلا تفاضل بينهم في المنشأ ، و يعودون الى التراب ، فلا تفاضل بينهم في المصير ، و يقومون من التراب للجزاء ، و هو الذي يجسد التفاضل الحقيقي بينهم و ذلك بالعمل الصالح.

أساليب الطغاة في مواجهة الرسالة

هدى من الآيات

على صاحب الرسالة أن لا يتصور الطاغوت حديدا لا يلين ، إنما هو بشر من لحم و دم ، يملك فؤادا يتقلب بين الخوف و الرجاء ، و الأمل و اليأس ، وعلى الداعية أن يسعى من أجل تذكيره بشتى السبل الممكنة ، ولكن لا يعني ذلك أن الطاغوت يستجيب له أبدا ، فقد يؤمنو يهتز ضميره ، و قد يبقى على ضلالته علوا و استكبارا.

وتؤكد هذه الفكرة مقارنة بين هذه الآيات و آيات الدرس السابقة ، ففيه نجد فرعون يتحدث و كأن الأمور جميعا بيده ، أما في هذا الدرس فقد تغير منطقه ، فصار يتحدث باعتباره ندا لموسى (ع) حين قال فلنأتينك بسحر مثله ، و قد جعل رأي الناس مقياسا.

وإنما تغير اسلوب الحديث عند فرعون ، بسبب الكلمات الصاعقة التي وجهها إليه موسى (ع. (

و هكذا قال فرعون لموسى (ع) : هل لك أن تأتيني بآية ؟ فأراه الآيتين : العصا و اليد البيضاء ، و لكنه كذب مبررا تكذيبه بالمعاذير التافهة - شأن كل انسان يكذب بالحقيقة - ، و الواقع إن هناك ثلاثة أساليب يتذرع بها الطغاة ضد أي تحرك يعارضهم:

أولا : تلفيق الاشاعات ضد المصلحين ، و التي تتكرر بصورة شتى ، فمرة يقولون : إن هؤلاء مجانين كما قالوا للرسول ، و مرة يقولون : إنهم إرهابيون ، و مرة يقولون : إنهم سحرة ، و مرة يتهمونهم بالتطرف الديني.

ثانيا : محاولة إحتواء الثورة ، و طرح شعارات كاذبة و متشابهة لمواجهة مبادىء الرسالة ، كالشاه المقبور حين رأى مدا ثوريا حاول إحتواءه بما سماه بالثورة البيضاء و التي لم تكن سوى شعارات فارغة ، و بديلا زائفا للثورة الحقيقية.

و هكذا المستكبرون يغيرون أنظمة الحكم في بلادنا كلما اهتزت عروشهم ، و اهترأت أساليبهم ، و يأتون بديلا عنها بأنظمة متناسبة و الظروف المتجددة ، و يسرقون شعارات الثوار ، و يفرغونها عن محتوياتها ليخدعوا بها السذج ، حيث قال فرعون : فلنأتينك بسحر مثل سحرك ، أي اذا كنت قد أتيت بعصا فسنأتيك بعصي و حبال مثلها.

ثالثا : طرح فكرة الصراع على الناس ، حيث طلب فرعون إجراء إستفتاء شعبي.

بينات من الآيات

] [56]ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب و أبى[

العصا و اليد آيتان ، و هناك آيات سبع أخريات ذكرها الله في سورة الأعراف هي : السنين ، و النقص في الثمرات ، و الطوفان ، و الجراد ، و القمل ، و الضفادع ، و الدم.

و أبلغ من هذه ، تذكرة موسى (ع) فرعون بالله و المعاد ، و بأن أصله من تراب ، و أن لا فضل له على الآخرين ، فكذب و أبى إلا الكفر.

] [57]قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى]تهمتان و جههما فرعون لموسى : إتهام موسى بانه مخل بالأمن ، و إتهامه بالسحر.

] [58]فلناتينك بسحر مثله[

و لعل هذا القول يشبه مزايدات الانظمة في طرح الشعارات الوطنية و الثورية ، و قد حاول فرعون إثارة حفيظة الجماهير ضد موسى ، شأنه شأن كل الطغاة الذين يحاولون خداع الجماهير ، فطلب من موسى تحديد موعد نهائي في مكان معين يجتمع فيه الناس فيتحدى السحرة آياتموسى.

]فاجعل بيننا و بينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى]فبادر موسى (ع) و حدد ميعاد المواجهة حين قال:

] [59]قال موعدكم يوم الزينة[

يوم الزينة : يوم العيد ، و لكن لماذا يوم العيد بالذات ؟

لأنه في يوم العيد يتفرغ الناس من أعمالهم.

]وأن يحشر الناس ضحى[

و حدد موسى (ع) وقت التحدي بالضحى ، لان هذا الوقت يناسب الجميع ، فالنائم يكون قد استيقظ ، و البعيد وصل ، و الانسان يكون في أفضل حالاته الفكرية.

] [60]فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى[

و أخذ فرعون يعد عدته ، و يجمع كيده ، و يلملم قواه.

] [61]قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى]لقد بادر موسى (ع) بالقاء الحجة على السحرة قبل أن يتحداهم.

أولا : لأنه رسول إليهم أيضا ، و أول واجبات الرسول هو إنقاذ الناس بالموعظة.

ثانيا :هز ضمائرهم ليلحق بهم هزيمة نفسية ، فكأنه قال لهم أيها السحرة ! يامن تخدمون النظام بعلمكم ، و تصبحون مرتزقة للظالمين من أجل لقمة خبز .. لا تفتروا على الله كذبا بادعائكم إني ساحر ، أو بتأليهكم فرعون و تكذيبكم رسالتي فانكم إذا كنتم كذلك ، سيسحتكم الله بعذاب بئيس ، لان العلم نعمة من عند الله للانسان يجب أن تشكر ، فاذا لم تشكر أصبح نقمة ، و السحت إقتلاع الشيء من جذوره ، واذا قلعت الشجرة من جذورها ، يقال سحتها.

] [62]فتنازعوا أمرهم بينهم[

بين مصدق و مكذب.

]و أسروا النجوى[

يبدو أنهم اتفقوا على أمر معين و اخفوه ، و لم يكن إتفاقهم على باطل ، لأنهم كانوا متفقين عليه منذ السابق.

يقــول بعض المفسرين : إن السحرة إتفقوا على أنه لو غلبهم موسى خضعوا له ، و قد كان هذا المنظر مثيرا ، لأن السحرة يعتبرون كيدا لفرعون ، و أداة ينفذ بها مآربه ، و هاهم يناجي الواحد منهم الآخر ، خشية بطش فرعون ، و تتضح هنا تبعية العلم للقوة.

] [63]قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبا بطريقتكم المثلى]يبدو إن المعارضة كانت موجودة ، وان الطاغوت كان خائفا من أن يميل الشعب تجاه موسى، و لذلك كان يريد أن يخلق البعد النفسي بين الشعب و منقذيه ، فادعى أن موسى و هارون يستخدمان السحر للوصول الى أهداف سياسية ، بل أهداف إجرامية تتمثل في إخراجكم من أرضكم ،و هذا ما يعمله الطغاة عندما يريدون أن يواجهوا تجمعا أو حركة حيث يربطون تحركهم بما يكره الناس ، ثم بعد أن اتهموا موسى (ع (بانه ساحر أضافوا كلمة أخرى و هذه الكلمة لا يقولها عادة إلا مرتزقة الأنظمة من علماء السوء حيث قالوا : بأن موسى و هارون يريدان أن يذهبا بطريقتكم المثلى ، أي إن هؤلاء يريدان ان يخرجاكم من دينكم و قيمكم ، وهذا ما يقوم به علماء السوء في كل عصر و مصر ، إنهم يدعون بأن الثوار يريدون هدم مقدسات الأمة.

] [64]فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا[

ولا يعني ذلك إن الطغاة يدعمون الوحدة ، بل يريدون صنع وحدة مزيفة تقف حجر عثرة أمام الرساليين ، و علماء السوء يؤكدون على ضرورة الوحدة حتى تلك الوحدة القائمة على أساس باطل ، و من ثم أثار هؤلاء العلماء رغبة نفسية وسخة حين قالوا:

]وقد أفلح اليوم من استعلى[

إنــنا الآن في صــراع ، و هذا الصراع حاد ، و هذه اللحظات مصيرية في حياتنا ، و نحن نريد أن تجمعوا كيدكم ، و توحدوا صفوفكم ، حتى نتغلب على هؤلاء المتمردين ..هذه الكلمات لا يشيعها إلا وعاظ البلاط و مرتزقة الفكر.

و ألقي السحرة سجدا

بعد أن هز موسى (ع) ضمائر السحرة ، استجاب لتحديهم ، وقال : ابدأوا ، و هذا التحدي نجده عند الأنبياء دائما ، و هو أبرز دليل على نبوتهم ، وأنهم رجال متصلون بالغيب.

وما كان من السحرة إلا أن جاؤوا بمجموعة حبال و عصي ، و خلقوا أجواء صاخبة توحـي بانـها تسعى ، فسحروا أعين الناس ، و لم يكن ذلك إلا ضربا من السحر ، أما الحقيقة التي كانت تتمثل في عصا موسى فقد ابتلعت ذلك السحر مرة واحدة ، وآمن السحرة بموسى و خروا لربه و ربهم ساجدين.

وان لنا في ذلك لعبرة ، فحينما تكون لدينا الحقيقة ، ولا يكون عندهم إلا الخيال الباطل سترى كيف ، تبتلع الحقيقة سحرهم.

و حينما سجد السحرة و آمنوا ، حاول فرعون إلصاق التهم بهم ، ليكون ذلك مبررا لتعذيبهم أو قتلهم ، و لكنهم أصروا و صمدوا أمام التهديد ، بصلابة الإيمان و بالاستعانة بالله.

بينات من الآيات

[65] [قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى]

هل أنت تبدأ أم نحن ؟

[66] فطلب موسى منهم أن يكونوا هم البادئين و كان ذلك تحديا عظيما.

[قال بل ألقوا فإذا حبالهم و عصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى] أي أنهم عملوا عملا أثاروا به خيال موسى (ع) ، و بالأ ولى أثاروا خيال المحتشدين!

و لعل هذا يعني : إن السحر تاثير نفسي في الانسان من خلال إثارة خياله و الإيحاء له ، أما هدفه فهو التضليل ، و عاقبته الخسران ، وأول ما يفكر به السحرة ، هو السيطرة على الجالسين نفسيا ، بالقيام ببعض الحركات المثيرة ، و بعد أن يستحوذوا على أنفس الحاضرين - بسرد القصص الخيالية ، و صنع أجواء صاخبة - يضحى كل عمل يقومون به عظيما ، يثير العجب و الدهشة في أنفس الناس .

كما إن بعضهم يستفيد من الجن ، بالاضافة الى بعض العلوم الغريبة ، و السحرة مجمـوعة مرتزقة ، و ضعوا علمهم في خدمة شهواتهم ، أو لدعم سلطة ظالمة ، شأنهم شأن الاقلام الماجورة التي توظف نفسها عند الظلمة.

هذا هو واقع السحر ، انه تخيلات لا تصمد أمام الحق ، و من كلمتي " حبالهم " و "عصيهم " نستنتج إن السحر ليس إلا تأثيرات نفسية لا يغير من الواقع شيئا ، و التعبير القرآني غاية في الوضوح حيث يقول : " يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" فهي في الحقيقة لا حراك لها ، وما الحركة الظاهرة إلا بتأثير الخيال السحري.

[67] لقد تحداهم موسى (ع) وهو يعرف بأنهم على باطل و انه على حق ، و مع ذلك تسرب الخوف الى نفسه حيث قال الله:

[فأوجس في نفسه خيفة موسى]

فلماذا خاف موسى ؟

لهذه الآية تفسيران
الأول :هو أن موسى (ع) بشر كسائر الناس ، من حيث الذات و البنية الجسدية و النفسية ، و لذلك ساوره الخوف ، و الملاحظ أنه كلما تحدث القرآن الحكيم عن معجزات الأنبياء ، تحدث في ذات الوقت عن جانب من ضعفهم البشري ، كالخوف و العجلة و الجزع و الميل في اتجاهالضغوط ، إلا أن هذا الجانب سرعان ما يتلاشى بتاييد الله.

و ذلك حتى لا يظن البشر أن الاعجاز نابع من ذاتهم ، فيقدسونهم ويؤلهونهم ولكي يكونوا حجة على الناس و يقطع عنهم سبل الأعذار.

الثاني : إن موسى (ع) لم يكن خائفا على نفسه ، بل خشي أن يستأثر السحرة بقلوب الحاضرين فلا ينفعهم بعد ذلك إعجازه شيئا.

] [68]قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى[

و تدل هذه الآية على التفسير الثاني بما تحمل من تطمين لموسى بانه هو الغالب ، و هذا النوع من التخوف موجود لدى كل الرساليين ، فهم يخشون من وسائل الاعلام و الثقافة المضللة أن تفسد الناس ، ولكن عليهم أن يتغلبوا على خشيتهم بذكر الله سبحانه و تعالى ، وانيثقوا بأن أقلامهم النظيفة التي تبين الحقيقة تعادل ملايين الأقلام التي تكتب الزيف و الباطل ، لأن الحقيقة قوة تبتلع سحر المبطلين.

] [69]و ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا[

و تقوم عصاك بابتلاع حبالهم ، و عصيهم التي صنعوها بما لها من وجود مادي وآثار نفسية.

]إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى[

فكل الذي قاموا به لا يعدو ان يكون مجموعة من الخطط الماكرة الباطلة ، التي لا تلبث أن تنتهي بوهج الحقيقة ، كما الظلام ينهزم أمام النور ، و باستطاعة الانسان المتصل بالله أن يتجاوز تأثُيرات السحر الوهمية ، وهكذا فالسحر لا يؤثر فيمن يؤمن بالله حقا ، وقد قال عنه تعالى : " وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله " (١) ، كما إن ذات الساحر لا يفلح ، لأن عمله هذا يكرس فيه الانحراف عن خط الفطرة و الحياة في الدنيا ، و يسبب له العذاب في الآخرة.

[70]صحيح ان عاقبة الساحر هي الخسار ولكن متى ، مادام متمسكا بسحره و انحرافه ، أما اذا تاب و تمسك بالحق و الرسالة ، فان عاقبته ستكون الى خير ، وهذا يدلنا على إن عاقبة الانسان ، رهينة عمله ، لا لونه ولا جنسه.

وقد طلب موسى (ع) الى السحرة أن يكونوا أول الملقين ، حتى يكون أثر إنتصاره على فرعون عميقا في أنفس الجميع حتى السحرة ، حيث يصبح ذلك السحر الذي أكبروه قبل لحظات هباء منثورا.

(1)البقرة / ١٠٢.

و بالفعل فقد جاءت النتيجة عظيمة إذ تجاوز الأثر الناس الى أعماق السحرة.

]فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون و موسى[

لقد كان التاثير بالغا ، بحيث وقع السحرة سجدا منهارين أمام نور الحقيقة ، فكأنهم ألقوا بغير ارادتهم ، وفي الآية إشارة الى هداية الله بأنها العامل الحاسم في سجودهم.

و السجود هو قمة العبودية و الخضوع أمام الله ، و لم يكن هذا السجود هيكليا إذ احتوى أسمى معانيه ،

وهو الاعتراف بالعبودية لله.

و السؤال : لماذا يذكر الله هارون في هذه الحادثة ، مع أن موسى هو الذي واجه السحرة مباشرة ، وكان الحديث حتى الآن عنه وحده ؟

هناك سببان رئيسيان ؟

الأول : إن هــارون كان الناطق باسم موسى ، و هو معروف في أوساط المجتمع.

الثاني :هناك دائما قيادات ثانية تتمثل في الأوصياء و الصالحين ، و يقتضي الموقف السليم ، أن تبرزها القيادات العليا في اللحظات الحاسمة ، كلحظة الانتصار ، حتى يتأكد دورها في المجتمع ، و هكذا نجد في تاريخ الرسالة الإسلامية أن النبي (ص) أعطى الراية لعلي (ع) حتى حين دخلوا مكة فقال (ع) : " اليوم يوم المرحمة اليوم تصان الحرمة " ، كما إنه (ص) رفض دخول المدينة حتى يأتي علي)ع) ، و ذلك ليعرف دوره في أداء الرسالة.

[71]ولكن هل كان فرعون يقبل بالحق أو يعترف بالهزيمة ، أو حتى يسمح للآخرين بذلك ؟

كلا..

]قال آمنتم له قبل أن آذن لكم[

لقد كان نظام فرعون قائما على الديكتاتورية المطلقة ، و نرى كيف أن الطغيان بلغ بفرعون حدا سلب الناس حريتهم في معتقداتهم.

ولكن الإيمان بالله يقاوم الدكتاتورية ، و يعطي الاستقلال ، فالتبعية التي وقع فيها السحرة إنتهت بمجرد إيمانهم بالله تعالى ، و الانسان إنما يكون تابعا بسبب إحساسه بالضعة ، فيعتقد أنه يقوي نفسه و يصبح عظيما حينما يربط مصيره بالطغاة و أصحاب القدرة ، ولكنه يثق بنفسه حينما يتصل بنبع الإيمان ، إذ يعطيه الإيمان العزة و روح الاستقلال.

و حينما أحس فرعون بانفصال السحرة عنه ، حاول أن ينتقم منهم ، فأخذ يبحث عن مبرر للانتقام فقال:

]إنه لكبيركم الذي علمكم السحر[

وهذا ديدن الطغاة مع المؤمنين ، و سائر أطراف المعارضة الحقيقية ، إنهم يلصقون بهم التهم الرخيصة ، لتبرر تعسفهم و ممارساتهم الجائرة بحقهم.

]فلا قطعن أيديكم و ارجلكم من خلاف و لأصلبنكم في جذوع النخل و لتعلمن اينا أشد عذابا و أبقى]وكان الصلب قديما يتم - فيما يبدو - بمد يدي الانسان على خشبة ، ثم يدقون فيها المسامير ، و هكذا أرجله و مواضع أخرى من بدنه ، و يظل على هذا الحال حتى يموت.

إلا إن فرعون هدد بقطع أرجلهم و أيديهم من خلاف ، زيادة في التعذيب ، وربما أراد التنكيل بعوائلهم ، و تشويه سمعتهم بعد موتهم ، إذ قال : " و لتعلمن أينا أشد عذابا و ابقى. "

[72]ولكنهم صمدوا امامه بصلابة الايمان ، و هكذا ينبغي أن يكون المؤمن أمام الطغاة صلبا شديدا.

]قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات[

أي أكتشفنا الحقيقة ، ومن يكتشفها يعشقها ، و أقسموا:

]والذي فطرنا[

تأكيد لقرارهم و دعما لموقفهم ، وإنه الموقف الحاسم ، و أضافوا ردا على تهديداته:

]فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا[

و هكذا يجب أن يكون المؤمن مستعدا لتحمل تبعات إيمانه و إستقلاله.

ولكن السؤال : كيف بلغ هؤلاء السحرة و بهذة السرعة الى هذه القمة السامقة من الإيمان و الجهاد ، حيث ألقوا بكلمة الحق أمام السلطان الجائر ، و حيث ءامنوا ذلك الإيمان العميق بالآخرة ؟؟!

و الإجابة كالتالي:

أولا :إن الحقائق تبقى غامضة إلى أن يتصل القلب بالحقيقة الكبرى في هذه الحياة ، و التي تتجلى في معرفة الرب ، فاذا عرف الانسان ربه ، ذابت عن قلبه جبال الجليد المتراكمة فوق قلبه ، فرأى الحقائق بوضوح كاف.

أوليس الله سبحانه خالق السماوات و الأرض ، و مبدىء الخلائق جميعا ؟ كذلك معرفته أول كل علم و ينبوع كل معرفة.

و هـؤلاء السحـرة حينـما آمنـوا باللـه صار بديهيا أن يتيقنوا بالبعث و الجزاء و .. و..

ثانيا :عندما يكون طريقه للإيمان بحقيقة معينة مليئا بالعقبات و الضغوط ، و لكن يصر الانسان على تجاوزها فيختصر المسافة الى الإيمان الخالص ، الذي يصعب الحصول عليه في الظروف الطبيعية.

و السحرة ، حينما آمنوا بالله ، كانوا قد اسقطوا حواجز الإغراء و الارهاب الفرعونـي ، و تنازلـوا عــن المكانــة الاجتماعية ، و اقتلعوا أنفسهم من حضيض الدنيا ، و .. و..

وبالتالي و صلوا الى هذه المرتبة العليا ، بلى إن مجرد إيمانهم في تلك الظروف كان يعني تحديا لسلطات الشهوة و القوة ، بكل أبعادهما ، فطوؤا كل المراحل في لحظة عظيمة تجلى الرب فيها لقلوبهم ، بعد أن استعدوا للتضحية بكل شيء لله ، و للحق الذي شاهدوه بأعينهم.

ثالثا : لأنهم عبدوا الطاغوت لبعض الوقت ، و لعلهم كانوا قد عرفوا ، بوحي ضميرهم ، و دلالة عقولهم : إنهم مجرمون ، لانهم يؤيدون مجرما قذرا جبارا في الأرض ، فكانت عقدة الذنب تلاحقهم ، فلما آمنوا كانوا يبحثون عما يطهرهم و يغسل ذنوبهم الكبيرة ، و يشهدعلى هذا التفسير الثالث ، السياق ، و هكذا حينما تجلت الحقيقة في عصا موسى (ع) لم يتمالك السحرة أنفسهم فألقوا ساجدين ، نعم .. لقد آمنوا بالآخرة و تيقنوا من البعث و الحساب فاستهانوا بالدنيا ، حتى صار تنازلهم في سبيل القيم أمرا هينا ، ثم استدركوا:

]إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا[[73]

ولو كان هذا الإيمان ، و هذه الأمنية بالغفران ، يكلفنا العذاب و الصلب ، وهذا هو الإيمان الحقيقي ، الإيمان الذي يستعد صاحبه لكل شيء إلا التنازل عنه.

و مع إنهم يطلبون الغفران بشكل عام ، إلا أنهم يخصصون خطيئة السحر ، لانهم أدركوا أبعادها السيئة أن يخدم الانسان نظاما فاسدا ، و يكون و سيلة له لمواجهة الرسالة و المؤمنين ؛ قالوا:

]وما أكرهتنا عليه من السحر[

بسبب إغراءاتك و تهديداتك ، و خططك الماكرة.

]و الله خير و أبقى[

ردا على مقولة فرعون تحديا : " أينا أشد عذابا و أبقى. "

قالوا : كلا .. الله - و لست أنت - خير و أبقى.

و اضل فرعون قومه و ما هدى

هدى من الآيات

خلاصة رسالات الأنبياء التي تتكرر في القرآن ، هي أن الانسان رهين عمله ، فعاقبة المجرمين النار لا موت لهم فيها ولا حياة ، بينما عاقبة المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار ، و ليست نتيجة العمل محدودة بالآخرة ، بل قد يحصل الانسان على عاقبة عمله في الدينا أيضا كما انحرف فرعون بطغيانه . معاقبة الله بالغرق.

لهذا حذر الله بني إسرائيل من الطغيان و كفران النعمة حتى لا يحل عليهم غضبه ، أما لو انحرف الانسان قليلا فان باب الرجعة و التوبة الصادقة يبقى مفتوحا له.

بينات من الآيات

] [74]إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى[

الذي يستمر في جريمته الى حين لقاء ربه فان مصيره جهنم . و التعبير " فان له جهنم " يوحي بأن المجرم يشتري جهنم بعمله الطالح ، حتى تصبح ملكا له فعلا.

و كم هو المكوث في النار ، حيث يبقى المجرمون بين الموت و الحياة ، يتجرعون العذاب ، و يذوقون الألم !؟

جاء في الأحاديث : يأتي أهل النار الى مالك يتوسلون إليه - بذلة - سبعين سنة ، حتى يخفف عنهم العذاب فيرفض ، فيقولون له : إذا لا نريد الحياة ، و لكنه لا يجيبهم الى حين ، ثم يأتيهم النداء انكم ها هنا ماكثون ، فييأسون و يطلبون من مالك أن يأذن لهم بالبكاء على ما فرطوا في جنب الله ، فيأتيهم الأذن فيبكون على أنفسهم ألف سنة.

[75]و على العكس من ذلك تماما هو حال المؤمنين:

]ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات[

فالايمان المستمر حتى لقاء الله ، و المقرون بعمل الصالحات ثمن الجنة.

]فأولئك لهم الدرجات العلى[

فكل صالحة من العمل بدرجة من الجنة ، و كلمة الدرجات جاءت هنا بازاء كلمة الصالحات ، و في الخبر أن ما بين الدرجة و الأخرى كما بين السماء و الأرض.

] [76]جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها]و الخلود من أسمى طموحات الانسان.

]وذلك جزاء من تزكى[

ان أعظم و أصعب مسؤولية على البشر في هذه الدنيا ، هي أن يزكي نفسه من آثار الشرك ، من البخل ، و الكسل ، و الضجر ، و الخوف من غير الله ، و .. و .. والذي لا يزكي نفسه في الدنيا يمكث بنسبة رذائله و انحرافاته في جهنم ، لأن الجنة لا يدخلها الا المطهرون ،و السبيل الى الطهارة أما هو التزكي في الدنيا ، أو النار في الآخرة.

[77]بعد التحدي بانتصار موسى على فرعون ، و الحقيقة على السحر ، أوحى الله الى موسى بالخروج.

]و لقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي[

الساري هو المسافر بالليل ، أما السارب فهو المسافر في وضح النهار ، و أمر الله موسى أن يسير ببني اسرائيل ليلا ، حتى لا يشعر به فرعون ولا جنده الا وقد فات الأوان ، و هذه من رعايته لعباده.

تى لقاء الله ، و المقرون بعمل الصالحات ثمن الجنة.

]فأولئك لهم الدرجات العلى[

فكل صالحة من العمل بدرجة من الجنة ، و كلمة الدرجات جاءت هنا بازاء كلمة الصالحات ، و في الخبر أن ما بين الدرجة و الأخرى كما بين السماء و الأرض.

] [76]جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها]و الخلود من أسمى طموحات الانسان.

]وذلك جزاء من تزكى[

ان أعظم و أصعب مسؤولية على البشر في هذه الدنيا ، هي أن يزكي نفسه من آثار الشرك ، من البخل ، و الكسل ، و الضجر ، و الخوف من غير الله ، و .. و .. والذي لا يزكي نفسه في الدنيا يمكث بنسبة رذائله و انحرافاته في جهنم ، لأن الجنة لا يدخلها الا المطهرون ،و السبيل الى الطهارة أما هو التزكي في الدنيا ، أو النار في الآخرة.

[77]بعد التحدي بانتصار موسى على فرعون ، و الحقيقة على السحر ، أوحى الله الى موسى بالخروج.

]و لقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي[

الساري هو المسافر بالليل ، أما السارب فهو المسافر في وضح النهار ، و أمر الله موسى أن يسير ببني اسرائيل ليلا ، حتى لا يشعر به فرعون ولا جنده الا وقد فات الأوان ، و هذه من رعايته لعباده.

و بالرغم من أن بني اسرائيل يصل عددهم الى (٧٠٠) ألف ، الا أن واحدا منهم لم يفش السر ، و لذلك سماهم الله (عبادي) ، فقد كانوا مخلصين يستحقون أن يجعل الله لهم في البحر طريقا يبسا ، و يخلصهم من فرعون و جنده.

]فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا[

لما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق و صار كل جانب منه كأنه الجبل ، و بينهما طريق يابس يصلح للسير عليه.

]لا تخف دركا[

أي لن يدركوك.

]ولا تخشى[

لا تخاف من الغرق.

] [78]فاتبعهم فرعون بجنوده[

لما طلع الصباح و اتضح الأمر ركب فرعون و جنوده دوابهم ليلحقوا بموسى و بني اسرائيل ، و لما وصلوا البحر وجدوا موسى (ع) و بني اسرائيل قد عبروا خلال البحر ، فدخلوا خلفهم ، و قد أعماهم الحقد و التكبر ان يلتفتوا الى هذه المعجزة الالهية ، فغشيت الأمواجفرعون و جيشه و غرقوا.

]فغشيهم من اليم ما غشيهم[

يوحي هذا التعبير القرآني بأن الموقف الذي مر به فرعون و جنوده بلغ من الهول و الرعب ما يفوق كل وصف ، بلى إن منظر جبال الأمواج البحرية الهائلة وهي تبتلع مئات الألوف من الرجال و الدواب إن هذا المنظر يفوق الوصف فعلا.

[79]و العبرة التي نستخلصها من ذلك الموقف ، تتلخص في الآية الكريمة:

]و أضل فرعون قومه وما هدى[

ان النهاية المأساوية كانت بسبب ضلال الحاكم ، و اتباع الناس له في ضلالته .

[80]و حتى لا يطغى بنو اسرائيل ، او ينسوا نعمة الله عليهم ، يذكرهم الله قائلا:

]يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم و وعدناكم جانب الطور الايمن]الأمن أساس أولي لأي حضارة ، بينما الوحي هو القيم و التشريعات الحضارية التي تحقق العز و الفلاح و .. و .. للأمة.

وقد من الله بهما على بني اسرائيل إذ أنجاهم و واعدهم جانب الطور.

]و نزلنا عليكم المن و السلوى[

المن هو الحلوى ، و السلوى طير مشوي ، كانا ينزلان عليهما من السماء.

[81]نعمة الله هدفها سعادة البشر ، و لكن قد تكون عاملا لانحرافه و انفلاته ، لذلك حذر الله بني اسرائيل قائلا:

]كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي]و غضب الله هو عذابه الشديد في الدنيا و الأخرة.

]ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى[

و تعالى الله أن يغضب و يطرأ عليه التغيير مثلنا نحن البشر ، انما هو العذاب ، و من يصيبه فكأنما يهوي من على قمة الجبل الى واديه ، و ليس هذا التمثيل الا للتقريب ، و الا فالواقع أدهى و أمر.

] [82]و إني لغفار لمن تاب و ءامن و عمل صالحا ثم اهتدى]من طبيعة الانسان أن يطغى حين يحس بنعم الله عليه " ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى " ، ولكن سبيل التوبة و العودة الى الصواب مفتوح امامه ، حينما يتورط في ذلك بسبب غفلته ، و نسيانه ، و .. و .. وآنئذ سيجد ربه غفارا لو كانت توبته كما تذكر الأية) .. تاب) عن ذنبه (و آمن) بالله صادقا " و عمل صالحا ثم اهتدى " و كان عمله بحيث ينتهي به الى الهداية.

و في بعض الروايات ان الهداية هنا بمعنى الولاية ، فينبغي للانسان أن يؤمن بالله ، و يعمل صالحا بعد التوبة ، و ان يبحث عن القيادة الرسالية ، ذلك انه لا يكمل الايمان و العمل الصالح الا بالولاية ، و معرفة القائد ، لأن الامام الذي يهدي الى سبيل الرشاد يكون عكس فرعون الذي أَضل قومه وما هدى ، و هذا هو سبيل التوبة النصوح ، و هو المعنى الحقيقي لكلمة الشفاعة.

وما أعجلك عن قومك يا موسى
هدى من الآيات
ذهب نبي الله موسى (ع) يناجي ربه ، فما عاد الا وقد حصلت الردة في قومه ، و في الوقت الذي يدلل الأمر على أهمية حضور القيادة في المجتمع لتقاوم محاولات التحريف من قبل الانتهازيين ، تشير الآيات الى أن علاقة بني اسرائيل بموسى (ع) كانت علاقة بشخصه لابرسالته ، مما أدى لانحرافهم بعد غيابه عنهم و تمردهم على خليفته هارون ، و كان من الضروري تغيير هذه العلاقة ، فأمر الله بمد غيبة موسى لهذا الهدف.

و قد انتقد النبي موسى (ع) هذا الوضع ، و حذرهم من غضب الله أن يحل عليهم ، و تساءل عن سبب هذه الردة .. و حينما حاول بنو اسرائيل التبرير احتج عليهم الله بأنه اعطاهم عقولا يميزون بها و كان ذلك أبرز حجة عليهم ، أما الحجة الثانية فكان شخص هارون وصي موساالذي نصحهم و لكنهم لم يسمعوا له.

بينات من الآيات:

] [83]وما أعجلك عن قومك يا موسى[

لماذا أسرعت الي و تركتهم وراءك ؟

] [84]قال هم أولاء على أثري[

أن قومي لا يزالون يقتفون أثري ، و يسيرون على نهجي.

]و عجلت إليك رب لترضى[

دفعني الى العجلة حبي لك و شوقي للقائك ، و هذه الآية توحي بمدى حب موسى لربه ، حيث بادر الى لقاء ربه ، و كان على عجل لنيل رضاه سبحانه . و هكذا حال من ذاق حلاوة مناجاة ربه ، و أنس بقربه ، و تجلى الرب لقلبه ، فمشى في ارجاءه الوجل ، و اهتزت جنبات فؤاده بنور الشوق ، فوجد من نور خالقه ما جذبه الى ما يقربه اليه ، ولاح له من جمال بارئه ما أنساه كل جمال..

لذلك كان رسول الله (ص) يجلس في محراب الصلاة على أشد من الجمر شوقا الى ميعاد اللقاء ، فاذا حان وقت الصلاة هتف ببلال المؤذن : أرحنا يا بلال بالصلاة.

و هكذا المؤمنون الصادقون يدعون الرب ليتجلى لقلوبهم بنور معرفته ، فيكونون :

"ممن دأبهم الارتياح اليك و الحنين ، و دهرهم الزفرة و الأنين ، جباههم ساجدة لعظمتك ، و عيونهم ساهرة في خدمتك ، و دموعهم سائلة من خشيتك ، و قلوبهم متعلقة بمحبتك ، و أفئدتهم منخلعة من مهابتك ..."(١)(١) الصحيفة السجادية / ص ٢٤٩.

و يكررون أبدا:

"يا من أنوار قدسه لابصار محبيه رائقة ، و سبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة ، يا منى قلوب المشتاقين ، و يا غاية آمال المحبين ! " (!)[٨٥] و كان غياب موسى قد ترك فرصة مناسبة للآنتهازيين أن يسعوا الى مصالحهم.

]قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك و أضلهم السامري[

يبدو أن السامري كان منافقا ، و كان يتحين الفرص للقفز الى أريكة الحكم ، و كانت مجموعة من الانتهازيين و ضعفاء النفوس ملتفين حوله ، و لعلهم كانوا يتآمرون مع بعضهم ضد القيادة الرسالية.

و الآن حيث تأخر موسى) عليه السلام) و ظنوا أنه قد أدركته الوجفاة ، بادروا الى الفتنة ، لكي يبعدوا خليفة موسى الشرعي هارون (عليه السلام) عن السلطة ، فأشاع السامري فيهم أن موسى قد مات ، و صنع لهم العجل كرمز لسلطته ، و أمرهم بعبادته ، مستغلا حب بني إسرائيل للذهب و رواسب الشرك عندهم ، أو ليسوا قد طالبوا نبيهم بأن يجعل لهم إلها حين مروا بقوم يعبدون الصنم ؟

و لعل ذلك كان ضرورة حضارية ، حيث أن موسى (عليه السلام) قضى على جيوب الفساد عند بني اسرائيل بعد هذه الفتنة ، و لو لم تقع الفتنة فربما كان السامري و قومه ينجحون في مؤامرتهم بعد وفاة موسى (عليه السلام. (

أما الآن فقـد افتضـح السامري ، و عاد موسى بكل ما تميز به من الحزم و الشدة في الله.

(1)المصدر

] [86]فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا[

غضبان عليهم ، أسفا مما حدث.

]قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا[

كالرجوع الى الأرض المقدسة ، و الجانب الأيمن من الطور ، و البركة ، و أن يقيم حضارتكم إن أنتم استقمتم ؟!

]أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي [بالطبع لم يكن بنو إسرائيل يتحدون الله حتى ينزل عليهم غضبه ، و لكن إتباعهم السامري هو الاسترسال مع الظروف و الشهوات ، و هذا يدل على أن البشر بأنفسهم و بمحض إرادتهم يختارون نوع واقعهم و مصيرهم ، و الذي يتجسد هنا بغضب الله.

] [87]قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا[

أي لم ننحرف بكامل وعينا ، و بما نملكه من عقل و ارادة.

]و لكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها[

هذا الانحراف جاء من غيرنا ، فالسامري هو الذي جمع لنا الذهب و الفضة التي جمعناها من القوم و حملناها وصنع لنا بها عجلا ، و الواقع انهم حاولوا بذلك تبرير واقعهم الفاسد و رفع المسؤولية عن أنفسهم.

]فكذلك ألقى السامري[

رأس الفئة الانتهازية التي عادة ما تكون موجودة في المجتمعات ، و الآية الآتية تشـــير الى أن المتورط في عملية الاضلال ليس السامري و حده ، بل كانوا فئة متآمرة ، و لعل معنى القى السامري : انه القى في روعهم و خدعهم ، و قالوا معناه : القى زينة القوم في النار ، أو هو ايضا القى زينته فيها.

] [88]فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار[

جسدا أٍي ميتا لا حياة فيه ، و الخور هو صوت الثور.

و هناك أقوال في العجل ، فبعض المفسرين قالوا : ان العجل كان يتحرك لأن السامري أخذ قبضة من أثر جبرائيل (ع) الذي جاء راكبا على فرس ليغري فرعون و قومه حين رفضت خيولهم دخول البحر ، و كان التراب الذي يدوس عليه فرس جبرائيل يتحرك ، و الذي قام به السامري أن جعل هذا التراب في جسد العجل ، فأخذ يتحرك و يخور بسببه.

و قال بعض المفسرين : ان العجل كان في مكان بحيث يظهر رأسه فقط للحاضرين ، ثم يأتي شخص من وراء العجل و ينفخ في دبره فيخرج خوار من فمه ، أو أنه صنع بحيث يصوت اذا جرت فيه الرياح.

]فقالوا هذا إلهكم و إله موسى فنسي[

[89]ولكن هل كانت أعذار بني اسرائيل و تبريراتهم مقبولة عند الله ؟ كلا ..لقد أجابهم بأن هناك حجتان عليكم تبطل ادعاءكم:

اولا : العقل .. فأنتم عقلاء تستطيعون أن تهتدوا الى الحق لو تفكرتم..

]أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا]فليس من صفات الاله : أنه لا حراك به ، ولا ارادة يضر بها أو ينفع.

[90]ثانيا : حجة القيادة الربانية.

]و لقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني و أطيعوا أمري]لقد دعاهم هارون الى طاعته ، بصفته القيادة الشرعية ، و أوضح لهم أن ما يدعيه السامري و جماعته باطل .

ومن الآية نستوحي بأن الصراع كان قائما على قيادة المجتمع ، بين الخط الرسالي الذي يمثله موسى و هارون (ع) ، و بين الخط الجاهلي أصحاب الردة الى الجاهلية ، و لعل هذا الفريق كانوا هم قيادات بني إسرائيل قبل بعثة موسى فيهم ، كما كانت قبيلة بني أمية قبل الاسلام ، فتآمرت للوصول الى السلطة بعد غياب الرسول حتى تسنى لها ذلك على عهد معاوية بن أبي سفيان.

] [91]قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى]يبدو من الآية ان تعلق بني اسرائيل لم يكن بالرسالة بقدر ما كان بشخص موسى (ع) ، فقد كان هارون أخاه من أبيه و أمه ، و كان امتدادا له في المجتمع ، و الوصي عليهم من بعده ، و لكنهم لم يستجيبوا له ، عندما دعاهم لطاعته ، و قرروا البقاء على الانحراف حتى يعود اليهم موسى (ع. (

و كانت هذه الفتنة مفيدة لبني إسرائيل ، فقد أفرزت الفئات التي لا تزال تمثل رواسب الجاهلية و الفئات المصلحية عن الأخرى المؤمنة الصادقة في ايمانها . أما الفائدة الثانية فهي التحصن ضد الانحرافات الفكرية و الاجتماعية التي قد يتعرضون لها في المستقبل و ذلك بعد غياب موسى عنهم.

ان من طبيعة البشر هي التمحور حول الأشياء دون القيم ، و ارتفاع الانسان الى مستوى الايمان بالغيب و عبادة الله تعالى متجردا عن الأهواء و عن الضغوط المختلفة ، يعتبر قمة الحضارة الانسانية . ذلك لأنه يعني ان الانسان قد أنهى صراعه الداخلي لصالح عقله ، ويتحدى كل الشهوات المحيطة بقلبه ، و كل الضغوطات المحيطة به في مجتمعه ، حتى يخلص عبادته لله ، ولا يهبط الى مستوى الشيئية في الحياة ، و هذا الأمر يحتاج الى مزيد من التوجيه و التربية.

ولو ترك الانسان و طبعه ، لهبط الى مستوى عبادة الأصنام ، لأنها تعني التفاف الانسان حول الأشياء ، و الخضوع لسلبيات الحياة و ضغوطها ، بينما الايمان بالله يعني الارتفاع عن كل ذلك و النظر الى الأشياء بأنها مخلوقات لله.

و قد هبط بنو اسرائيل الى مستوى عبادة الأشياء حينما غاب عنهم نبيهم موسى)ع) ، ثم هداهم الله اليه بعد الضلالة ، وفي ذلك عبر عظيمة.

موسى (ع) يعالج الردة الجاهلية

هدى من الآيات

بعد أن غاب عن قومه أربعين ليلة ، جاء موسى (ع) ليجد أكثرهم و قد تحول من عبادة الله الى عبادة العجل ، فبدأ مسيرة الاصلاح بالبحث عن مصدر الفساد حتى يتسنى له علاج الردة . و بدأ ذلك بسؤال أخيه لأنه خليفته في غيابه ، و انتهى بتوجيه خطابه الى بني اسرائيلو لكنه قبل ذلك إلتفت الى السامري رأس الردة ، و عالج معه الموقف بحزم.

و حتى يقضي على الانحراف قام موسى (ع) بشيئين:

الأول :عزل القيادة المنحرفة ، التي تعمق الواقع السلبي ، و تمده بأسباب البقاء في المجتمع . و في القرآن يذكر الله النفي كوسيلة لمواجهة الفساد و المفسدين و ذلك لكي لا يتأثر أفراد المجتمع بها.

الثاني : تحطيم رموز الردة و ذلك حين حرق العجل و نسفه في البحر نسفا.

و يلاحظ أن موسى (ع) كان صداميا ، فلم يراهن الواقع السلبي الفاسد ، و لا رموزه بل اصطدم معهما بشدة ، كما اصطدم من قبل مع فرعون و سحرته . و هذه كلها شواهد على أن حركات الأنبياء (ع) ، و حركات الرسالية التي تنبع منها و تمثل امتدادا لها حركات صدامية.

بينات من الآيات

إن من طبيعة البشر هي التمحور حول الأشياء دون القيم ، و إن ارتفاع الانسان الى مستوى الايمان بالغيب ، و عبادة الله تعالى متجردا عن الأهواء و تحدي المصالح و الضغوط المتخلفة ، يعتبر قمة الحضارة الانسانية . حيث ينهي الانسان صراعه الداخلي لمصلحة عقله ،و يتحدى كل الشهوات المحيطة بقلبه ، و كل الضغوطات المحيطة به في مجتمعه ، حتى يخلص عبادته لله سبحانه ، و لا يهبط الى مستوى الشيئية في الحياة ، و هذا الأمر يحتاج الى مزيد من التوجيه و التربية ، كما هو بحاجة الى عزيمة شديدة ، و إرادة حديدية!

و لو ترك الانسان و طبعه لهبط الى مستوى عبادة الأصنام ، لأنها تعني الالتفاف حول الأشياء ، و الخضوع لسلبيات الحياة و ضغوطها ، بينما الايمان بالله يعني الارتفاع عن هذه الضغوط ، و النظر الى الأشياء نظرة متسامية ، باعتبارها ليست سوى مخلوقات يدبرها اللهسبحانه.

و هكذا هبط بنو اسرائيل مرة أخرى الى حالتهم البشرية (عبادة الأشياء) حينما تركهم موسى)ع) و لم يصمدوا كثيرا أمام اغراءات العجل . و انما تؤكد آيات القرآن دائــما على ربوبية الله و حاكميته لكي يعرج الانسان الى قمة العبودية له تعالى ، و يقوم بعمل جادمن أجل الوصول الى ذلك المستوى ، و الاكتفاء به عن الأشياء حوله.

ومــن العجب أن بعض المؤرخين يفلسف عبادة الطوطم ، و الكواكب ، و الأصنام ، و ببعض التحليلات المعقدة ، علما بأنها لا تحتاج الى كل ذلك أذ انها من طبيعة الانســان ، ففي يوم كانوا يعبدون الحيوان الذي يخافونه لأنه كان يرمز الى القوة . فبعضهم كان يعبد الفيل و يعتبره رمزا للقوة ، و بعضهم كان يعتبر الأسد رمزا للقوة فيعبده . أما هذا اليوم فيعتبرون الأباطرة و الملوك رمزا للقوة فيعبدونهم . فاذا أردنا أن نصــل الى عبــودية الله علينا أن نتجاوز الأشياء لخالقها ، و الشيئية الى القيم ، و الشهود الى الغيب.

و هكذا هبط بنو اسرائيل الى درك الشرك ، فور ما تعرضوا لفتنة السامري . فلما عاد إليهم موسى (عليه السلام) ، و جه خطابه الى هارون أولا:

] [93 - 92]قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمري [و لعل السبب كان:

أ - أن هارون كان خليفة عليهم و القيادة الشرعية المسؤولة عنهم فكان أول من يسأل عنهم.

ب - أن موسى (ع) لن يهادن أحدا في قضايا التوحيد حتى ولو كان وصيه و خليفته هارون.

ج -أن موسى (ع) أراد أن يوضح لجماهير بني اسرائيل ، أن قضية التوحيد ليست هينة ، و أنه حتى هارون (ع) ، يتعرض للسؤال بل للمحاكمة ، حتى يثبت أنه قد أدى و ظيفته بالنسبة اليها ، كيف و أن الله سبحانه يسأل المرسلين في يوم القيامة عن أممهم ، و كان موسى (ع)قد أوصى أخاه قبل مغادرته الى الطور قائلا:

"أخلفني في قومي و أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين "و جاء الآن يسأل عما قام به.

أما هارون فقد أجاب موسى (ع) بأن بني اسرائيل لا يخضعون إلا لك ولا يزالون معتقدين بك ، لذلك اذا أمرتهم بترك عبادة العجل قالوا سنعكف على عبادته حتى يرجع الينا موسى ، فأشاع السامري بأنك مت و اعرف أنك ستعود و يكون ذلك دليلا على كذبه ، و لعل موسى (ع) كان يعرف بأن هارون (ع) شديد الغضب في الله ، لذلك و صاه باصلاحهم دون القيام ضدهم ، و نستوحي من هذا السؤال و جوابه ان الثورة ضرورة في المجتمعات المنحرفة ، و لكن على الثوار أن ينتظروا الأوقات المناسبة لتفجير ثورتهم ، ذلك لأنه عندما تشيع فكرة باطلة في مجتمع ما ، فان الجماهير تلتف حولها فلكل جديد لذة ، مما يسقط خيار المقاومة لو تعجلوا في محاربتها ، فاذا انتظروا قليلا حتى يذهب بريقها و تظهر عيوبها ، فان مقاومتها آنئذ ســتكون ناجحة ، و لذلك جاء في الأحاديث ما مضمونه (لا تقاوم الدول في بداية أمرها) ، لأنها شابة و تمتلك الجماهير و هي مستعدة لحماية مكتسباتها ، اما إذا ظهرت سلبياتها فان الناس سيتحركون ضدها و يساعدون على اسقاطها ، اضافة الى تنامي عوامل الانهيار فيها بسبب انحراف مسيرتها.

[94]عندما عتب موسى على هارون) عليهما السلام) ، و أخذ بلحيته و برأسه يجــرهمــا اليه ، طلب هارون من أخيه الا يغضب معللا بأن قومه لم يستجيبوا له ، و لو أنه أخذهم بالقوة لتفرقوا اجتماعيا و لنفروا من الدين نفسيا ، و أن الحركة المضادة قد تكرس فيهمالواقع السلبي ، فانتظر حتى يعود موسى (ع) اليهم.

و يبدو أن الخلاف بين هارون و موسى (عليهما السلام) بادىء الأمر كان في فهم الموقف و ليس في الحكم الشرعي ، فبينما كان هارون يرى أن الموقف يستدعي التريث ، لكي لا تنهار وحدة الأمة ، و لذلك طبق موقف وصية موسى (عليه السلام) حيث قال له : " و أصلحولا تتبع سبيل المفسدين " ، تساءل موسى (عليه السلام: (

كيف ســكت هارون عن انحراف كبير ، كتغيير القيادة ، و الشرك بالله ، و عبادة العجل ، و أن على هارون أن يتبع نهج موسى (ع) في مقاومة الانحراف ، و أراد أن يتأكد بأن الضعف البشري لم يدفع بهارون الى التهاون في مسألة التوحيد ، فلما عرف موسى (ع) أن مصلحة الرسالة وليس الخوف من الطغاة هو الذي أسكت هارون عن حقه سكن غضبه.

]قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسيٍ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إٍسرائيل و لم ترقب قولي]حينما قال له : " اصلح. "

وهكذا كانت حكمة غضب موسى (ع) الظاهري توضيح الموقف للناس و لذلك سكت.

[95]بعد أن أنهى موسى (ع) الحديث مع أخيه التفت الى السامري.

]قال فما خطبك يا سامري[

لماذا فعلت الذي فعلت ؟

] [96]قال بصرت بما لم يبصروا به[

أي رأيت شيئا لم يروه.

]فقبضت قبضة من أُثر الرسول[

أي من التراب الذي داست عليه خيل جبرائيل.

]فنبذتها[

قذفتها في داخل العجل.

]و كذلك سولت لي نفسي[

زينت لي أهوائي الانحراف.

لقد كان السامري - الذي ينتمي الى سمرون ، و هو ابن يشاكر من أولاد يعقوب - و كما يبدو من الآية ممن بلغ به الإيمان درجة عالية إذ أبصر ما لم يبصره الآخرون حيث رأى أثر الرسول ، و لعل السامري كان ممن ساءت عاقبته ، و هو مثال للخط المنافق في الأمة ، و الذي يسعى منتهزا الفرص ، كغياب القيادة ليصل الى مطامعه و مصالحه المادية ، و لكن السؤال هو لماذا ينحرف كثير من المؤمنين بعد ايمانهم ، أمثال بلعم ابن باعوراء و السامري و الزبير ابن العوام ؟!

و الجواب كالتالي:

أولا : الانحراف في مسيرة البشر شيء ممكن لأن عوامله كثيرة ، فربما يواجه فتنة معينة فيتحداها ، و لكنه حينما تترى عليه الفتن المختلفة ينهار امام بعضها ، و أصعب فتن الحياة ، هي فتنة الرئاسة.

بلعم كان مؤمنا ، و لكن حينما رأى ان موسى (ع) أصبح نبيا دونه ، دفعه نحو الانحراف ، حتى قال عنه الله " : فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث " (١) ، و هكذا كان السامري من أصحاب موسى (ع) و لكنه لم يرضى أن يكون هارون رئيسا عليهفاصطنع حادثة العجل ، و خدعته شهوة الرئاسة ، و كذلك الزبير فلقد كان مع رسول الله (ص) يقاتل معه و يذود عنه ، ولكن حينما أراد السلطة إنحرف.

(1)سورة الأعراف آية / ١٧٦.

و جرت عليهم الامتحانات لكي يتحدوه و يصبح ايمانهم خالصا ، و لكنهم انهزموا بتكرس الانحراف في انفسهم.

و الصديقون هم الذين يقاومون عوامل الانحراف - من الحسد و حب الدنيا ، و اذا تحدوا و استقاموا دخلوا الجنة والا سقطوا في النار.

ثانيا : أن ينحرف في آخر لحظة من حياته ، و يدخل النار ، فالذين يحسنون الظن بانفسهم عادة ما ينحرفون ، وعلى عكسهم المتهمون لها.

ثالثا : من الأسباب الرئيسية للانحراف طول الأمل ، و الحرص على الدنيا ، لأنهما من بواعث التسويف بالتوبة.

[97]أما كيف عالج موسى الموقف مع السامري ؟ فلقد قام بخطوتين رئيسيتين هما:

- 1عزل السامري عن المجتمع لأنه جذر الانحراف:

]قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه]و هكذا يجب ان تكون الحلول التي تضعها الحركة الثورية ، حلولا جذرية تتعدى الآثار السلبـية و ازالتها ، الى اجتثاث جذر

الفساد ، فبدل أن تحارب الخمر ، و الفساد الخلقي ، و البرامج المضللة في وسائل الاعلام ، حارب الطاغوت الذي يقف خلفها ، لأن القضاء عليهيعني نهايتها جميعا.

ولم يقتل موسى (ع) السامري ليبقى عبرة حية الى كل الانتهازيين من بني اسرائيل ، و لكي تتضح عدالة الرسالات الالهية و كيف أن مواقفها عقلانية ، ففي إن انحــراف هؤلاء يدل على وجود إنحراف نفسي عميق في قلوبهم لما يقاوموه ، الخبر أن موسى (ع) هم بقتل السامري، فأوحى الله له أن لا تفعل فانه كان سخيا ، و ثالثا حتى يكون عذابه شديدا يوم القيامة بحيث يستوفي كل ماله في الدنيا ولا يلقى في الآخرة إلا العذاب . و لعل السامري ابتلي بمرض جسدي أو روحي يؤدي الى عذابه باقتراب الناس اليه ، فكان يهرب من الناس ويصيح اذا اقترب منه أحد لا مساس : أي لا تمسوني أو لا تقتربوا مني!

- 2تحطيم رمز الواقع السلبي..

]و انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا [أخذ موسى العجل الذي عبد من دون الله و حرقه ثم ذره في اليم لكي يقتلع جذر الفتنة ، خشية أن يقدس العجل او قطعاته أو حتى رماده في المستقبل ، كما يقدس المرتبطة مصالحهم بنظام الطاغوت آثارة بعد الثورة.

و نستوحي من هذه العملية أن على السلطات الرسالية أن لا تكتفي بتصفية شخص الطاغوت فقط ، بل تحاول اقتلاع جذوره و تصفية آثاره و رموزه ، كقصوره ، و تماثيله ، و لو كان في ذلك بعض الخسارة المادية للثوار ، لأن الخسارة الحقيقية أن تبقى هذه الأشياء تقدس من قبل المنحرفين الذين لا يزالون يتعلقون بالطاغوت بسبب عدم استجابتهم للتطور الثوري الذي حدث.

[98]كان الخطاب الأول موجها الى هارون القيادة الرسالية ، و الخطاب الثاني الى السامري القيادة المنحرفة ، أما الخطاب الثالث فلبني اسرائيل أنفسهم ، لأن هذه الجهات هي المسؤول الحقيقي عن أي تغير سلبي في الأمة.

فلابد أن تحاسب الحركة الثورية هل أنها تحملت مسؤوليتها أم لا ، و كذلك القيادة المنحرفة لماذا أقدمت على الانحراف ، و الجماهير لماذا استجابت الى ذلك ؟!

قال تعالى:

]إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو[

فلا تعبدوا العجل ، ولا المال ، و لا من يملك المال ، و العبادة تبدأ من حب الشيء ، حبا ذاتيا في القلب ، فلتذكر أن الله محيط علما بكل شيء ، حتى بخفايا القلوب التي قد تميل الى الباطل.

]و سع كل شيء علما[

أي وسعه من كل صوب و جانب.

خاتمة الآية متناسبة مع أجواء الحدث ، حيث كان الذنب و تبرير الذنب مما لا يخفى على الله الذي أحاط علمه بكل شيء.

و خشعت الأصوات للرحمن

هدى من الآيات

من العبر الأساسية التي يستفيدها الانسان من قصص التأريخ هي معرفته بأن الحياة الدنيا ليست دائمة ، كما أن معرفته تعطيه معرفة أعمق بالحياة ذاتها ، اذ يرى انها قصيرة ، انها جسر الى الحيوان الحقيقي في الدار الآخرة.

و نفس هذه الحقيقة نجد تذكيرا بها في كتاب الله ، الذي يخسر من أعرض عنه اذ يفقد البصيرة في

الدنيا و البصر في الآخرة ، كما تتحول ذنوبه و اخطاؤه الى أثقال يحملها يوم القيامة ذلك اليوم الرهيب ، الذي تخشع فيه أصوات الخلائق لربها ، و نرى الناس يبحثــون عمن ينقذهم من عذاب النار ، و ليس ثمة شفاعة بدون اذن الله.

فمن أجل أن لا نتورط بحمل هذه الأثقال علينا : أن نعود الى التأريخ فنعتبر ، والى القرآن فنتذكر.

بينات من الآيات

] [99]كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق و قد ءاتيناك من لدنا ذكرا[

البشر انما يضل عن سواء السبيل حين يغفل و يخرج عن تمام وعيه ، و انما ابتليت الأمم بمختلف النكسات بسبب الغفلة ، و النسيان ، و لكي يعي الانسان واقعه و مستقبله لديه و سيلتان:

الأولى : النظر في التأريخ برؤية و تفكر ، فالتأريخ هو ذلك المصباح الذي يضيء للعقلاء درب المستقبل ، و التأريخ هو ذلك المعهد التجريبي الذي يتخرج من أروقته افضل العلماء ، و التأريخ هو ذلك الناصح الأمين الذي يوقظ فطرة الخير في ضمير النابهين.

انه الذكر الذي يتجلى في آيات القرآن حين تبين لنا سنن الله فيما مضى ، و كيف سعــد من سعد من الأمم ، و كيف شقي من شقي منهم ، يقول الأمام أمير المؤمنين ، و هو يبين لولده الحسن المجتبى (ع) أهمية التجارب التأريخية:

"أي بني اني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، و فكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى عدت كأحدهم ، بل كاني بما إنتهي الي من أمورهم ، قد عمرت مع أولهم الى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، و نفعه من ضرره ، فاستخلصت لك منكل أمر نخيله " (١(

و حين ننظر الى التأريخ ، علينا أن نعتبر بالجوهر ، و من الخطأ أن نعلق بكل التفاصيل و الجزئيات.

(1)نهج البلاغة - رسالة / ٣١.

الثانية :القرآن ، و سمي بالذكر ، لأنه ينبه المؤمنين من نومه الغافلين ، فيوقض الضمير، و يستثير العقل ، مذكرا الانسان بعهده مع الله ، وما أودع فيه الله من الفطرة.

و كما تتجلى الحقائق و سنة الله عبر أحداث التأريخ ، و مسيرة الحياة ، فانها موجودة في كتابه أيضا ، و الذي هو بمثابة الخارطة التي تقود الانسان الى الهدف.

و لتوضيح مفهوم الذكر بصورة واضحة يمكننا ان نشبهه بالخريطة التي يحملها الشخص و هو يريد اجتياز حقل من الالغام ، فهو ينظر اليها باستمرار ليحدد المواقع التي زرعت فيها العبوات الناسفة فيتجنبها ، و بكل حذر و ارادة ، ان لا يغفل عنها لحظة واحدة ، لأن ذلكيعني : أن يطير اشلاء في الهواء.

و الحياة التي نعيشها أشبه ما تكون بذلك الحقل الملغوم ، و اذا أردنا أن نجتازها بسلام يجب أن يكون الذكر نصب أعيننا باستمرار ، و الانسان العاجز بذاته ، الذي يعيش على أرض محفوفة بالأخطار ، و مليئة بالصعوبات ، لهو بأمس الحاجة الى الله القوي ، مطلق العلم ، و الارادة و .. و .. ليمد له يد العون ، فيدفع عنه الخطر ، و الذكر هو الوسيلة التي يرتبط بها البشر الضعيف بربه العزيز القادر.

] [101 - 100]من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا * خالدين فيه و ساء لهم يوم القيامة حملا]يتنور قلب الانسان بالمعرفة التي يكتسبها عبر التجربة و التفكير ، و عبر النظر للتأريخ و الحياة ، و أهم من كل ذلك ، عبر رسالات الله (الذكر) ، بينما تصنع الغفلة حجبا كثيفة عليه تمنع عنه نور الحقيقة ، و سحبا متراكمة من الحسد و الحقد و العقد و حب الدنيا و التعلق بزينتها ، و هذه الحجب التي تتراكم فوق القلب ، و تدعو الى ارتكاب المعاصــي ، تصــبح هي أوزارا باهضة تثقل كاهل صاحبها في الدنيا

وفي الآخرة.

و الوزر هو الحمل الثقيل ، الذي يضغط على صاحبه بقوة ، فمن حمل كيسا كبيرا من التراب فوق كاهله ينهار من شدة الضغط ، كذلك الحاسد و الحاقد و عبد الشهوات ، و السائر في ظلمات الغفلة ، يتعرض قلبه لضغط معنوي هائل لا يكاد يتحمله.

و التعبير القرآني عن الغفلة (بالوزر) أبلغ تعبير ، أو ليست الغفلة تأتي نتيجة ضغط العوامل المادية ؟ كذلك الوزر (الحمل الثقيل) هو من الضغط المادي.

ولا يقتصر ضرر الاعراض عن ذكر الله على الدنيا فقط بأن يفقد الانسان البصيرة فيها ، بل و يمتد ذلك الى يوم القيامة حيث تتجسد الحقائق ، و حيث يحمل من غفل عن ذكر ربه اثقالا باهضة على كتفيه ، كما يفقد البصر و هو يحاول أن يجتاز الصراط فيقع في جهنم ، يتذوقألوان العذاب.

و التعبير القرآني من الدقة بمكان اذ يقول تعالى (خالدين فيها) و الضمير يعود الى الوزر ، اذ ذنوبه هنا هي اداة تعذيبه هناك ، حيث يخلد فيها مهانا ، أعوذ بالله.

] [102]يوم ينفخ في الصور[

ولا مناص يومها لأحد الا أن يخرج من قبره شاء أم أبى ، فكما يولد الانسان و يموت من دون ارادته ، كذلك يبعث من دون أرادته.

]ونحشر المجرمين يومئذ زرقا[

أي زرق عيونهم من شدة الخوف ، و لعل أهوال القيامة تسبب في زرقة أجسادهم أيضا.

] [103]يتخافتون بينهم[

يتحدثون لبعضهم همسا ، فيقول بعضهم لبعض:

]إن لبثتم إلا عشرا[

اذ يتضح لهم تفاهة و قصر العيش في الدنيا ، التي طالما اعتبروها آخر المطاف ، و توهموا أنفسهم باقين فيها ، و ذلك حين يقيسونها بالأخرة دار الخلد ، إن ملايين السنين لا قيمة لها ، أمام الخلد ، فكيف و الانسان لا يعيش في الدنيا الا بضع عشرات من السنين فقط؟!

] [104]نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما]ان علم الله سبحانه و تعالى يحيط بكل شيء و كل زمان ، فهو غير خاضع لقانون الزمن ، كما نحن البشر ، فالماضي و الحاضر و المستقبل في علمه سواء ، فهو يعلم الآن ما سيقوله المجرمون يوم القيامة الذي ربما يأتي بعد ملايين السنين.

و لفظة أمثلهم طريقة ، ترفع شبهة قد تتولد في الذهن ، بأن المتكلم الأول كان فاقدا للعقل عندما قدر عمره في الدنيا بعشرة أيام ، فهذا (أمثلهم (أعقلهم و أفهمهم يقدر الفترة بيوم واحد لا بعشرة أيام.

ان على الانسان أن يعلم بأن حياته قصيرة جدا ، وان أمامه حياة أخرى لا حصر لأمدها ، و ان سعادته أو شقاءه فيها مرهون بعمله في الدنيا ، فيسعى جاهدا من أجل أن يكون سعيدا فيها.

من مشاهد القيامة

] [105]و يسئلونك عن الجبال[

الضخمة الراسية.

]فقل ينسفها ربي نسفا[

] [106]فيذرها قاعا صفصفا[

أرض خالية من كل أثر من آثار زينة الدنيا و زخارفها.

] [107]لا ترى فيها عوجا ولا أمتا[

أي تصير الأرض مستوية ، فلا حفرة فيها ولا نتوء ، و تزول منها كل المعالم الجغرافية ، تصور لو كنت واقفا على مقربة من جبال الهملايا فاذا بها تنفجر مرة واحدة ، فكم سيكون المنظر مهيبا و مخيفا ؟؟

و السؤال : لماذا نجد القرآن يتحدث في مواضع كثيرة من الذكر ، عن نسف الجبال ، و تسجير البحار ، و انتشار الكواكب و .. و .. ؟

و الجواب يبدو : ان كل ما في الكون خلق لهدف هو عبادة الله ، و خدمة الانسان ، فما دام الانسان قد انتهى وجوده و دوره في الدنيا ، فانه ينتهي تبعا لذلك دور هذه المخلـوقات ، و فـي الحديث القدسي يخاطب الله سبحانه و تعالى الانسان قائلا:

"خلقتك لأجلي و خلقت الأشياء لأجلك"

و لعل من أساليب القرآن في التذكرة ، هو التعرض لمشاهد القيامة بما فيها من الإثارة و شـد الانـتباه ، ليوقض الضمير ، خصوصا وان اسلوب العرض القرآني قمة البلاغة.

[108]و يواصل القرآن الحديث عن يوم القيامة:

]يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له و خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا [من المفارقات الموجودة بين الدنيا و الآخرة ، مفارقتان تذكرهما هذه الآيات:

الأولى : المفارقة الزمنية ، فبينما الدنيا محدودة زمنيا ، نجد الآخرة أبدية.

الثانية :و تذكرها هذه الآية ، و هي ان الدنيا حياة الارادة البشرية ، بينما الآخرة (يوم القيامة) يجرد الانسان من ارادته ، و بالذات المجرم ، و يخضع لله جبريا.

فهذا البشر الذي كان يتمرد على رسل الله و رسالاته ، نجده - هنالك - خانعا خاضعا لداعي الله ، و صوته الذي طالما رفعه يحارب به الله ، و عباده ، و رسالاته ، هذا الصوت تجده خاشعا لله تعالى ، الذي ينتظر منه الجميع كلمة العفو و الغفران ، و يتبعون داعيه دون أي تلكأ وبلا عوج ، ذلك الداعي الذي يدعوهم الى صراط الله المستقيم لا عوج له.

] [109]يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن و رضى له قولا]كل العلاقات لا تنفعه يوم القيامة ، ولا تبقى الا علاقة واحدة ، وهي علاقة المؤمنين و شفاعتهم و شفاعة الرسل و الصديقين و الشهداء و الصالحين لمن اتبعهم في الدنيا و اطاعهم ، فالعلاقة الرسالية اذن هي الباقية يوم القيامة ، و ليس هناك انصاف آلهة يفرضون ارادتهم على ا لله ، كما يدعي البعض أو يتصورون ، و هذه الوساطات و الوجاهات التي يتوسل بها الانسان قد تنفعه عند السلطان ، أما عند الله فلا ، الا لمن يعطيه الله صلاحية الشفاعة ، و نتسائل : ما هي اذا فائدة الشفاعة و من ذا الذي تعطى له صلاحيتها ؟

أولا : ان الشفاعة هناك نتيجة العلاقات الايمانية هنا ، و بالذات العلاقة بين المؤمنين و قيادتهم الشرعية من رسول و وصي رسول ، و من أمر الله بطاعته و حبه ، و كلما ازداد حبك في الله للأنبياء و الأئمة و خلفائهم و طاعتك لهم ، كلما ازدادت فرص نجاتك من النار ، لأنهم وحدهم الشفعاء عند الله.

ثانيا : قد يلقي الشيطان في قلب المذنبين اليأس من روح الله ، فيفتح الله لهم بابا واســعا الى رحمته عبر الشفاعة و يهديهم الى صراط التوبة ، و هو العودة الى الله ، و من أمر الله بطاعته ، من الرسول و أولي الأمر الشرعيين من بعده.

و سؤال آخر : لماذا التأكيد على أن لا شفاعة الا لمن ارتضى الرب ؟

و الجواب : ان فكرة المسؤولية هي أثقل ما في الميزان من فكر ، وان البشر يسعى جهده للتخلص منها ، و الاستراحة الى ظل التبريرات ، و الشفاعة ابرزها ، إن الانسان يخدع نفسه كلما ذكره الله بالجزاء ، و يتمنى لو ان شخصا يشفع له ، فيؤكد الله سبحانه : كلا ، لاشفاعة عند الله الا ممن يرتضيه الله سبحانه ، هكذا لكي تبقى النفس عارية أمام حقيقة المسؤولية ، و يتقبلها طوعا او كرها.

]يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم[[110]

فسلــوك الانـسان و خلفياته هي التي تؤثر في مصيره غدا ، و كل ذلك يعلمه الله.

]ولا يحيطون به علما[

وهكذا يقفون امام سلطان الرب القاهر ، عاجزين لا يحيطون به علما ، فلا يمكنهم التغلب عليه ، او مقاومة مكره ، إذا ليس امامهم الا التسليم له و الهروب من عدله الى عفوه ، ومن غضبه الى رحمته و رضوانه.

المسؤولية ... بين التذكر و النسيان

هدى من الآيات

الانسان خاضع بكيانه الطبيعي لله سبحانه ، و يتجسد خضوعه الكامل يوم القيامة ، أما في الدينا فقد أعطاه الله فرصة لتجربة ارادته ، فهو يستطيع بها أن يسمو ليصير أفضل من المخلوقات ، التي تخضع لله خضوعا قهريا تكوينيا.

و هذه المسؤولية بحاجة الى التذكير بها ، و ان كان الانسان بطبعه و فطرته يشعر بالمســؤوليــة ، و لكنه ربما أنسته إياها ضغوط الحياة ، و وساوس الشيطان فيها ، و مشاكلها ، فهو بحاجة الى تذكير مستمر ليقاوم كل ذلك.

و هكذا جاء القرآن الحكيم تذكيرا للانسان بمسؤوليته ، و ثمة عامل آخر يجعل الانسان ذاكرا لا ينسى ، و هو العزم و الارادة ، و في هذه الآيات يذكرنا الله تعالى بأن آدم لم يكن من أولي العزم حيث نسي عهد الله اليه و اخرج ، و لم يخرج آدم من الجنة ، التي وفرالله له و لزوجه فيها الطعام و اللباس و الشراب و السكن ، الا بسببالقاهر ، عاجزين لا يحيطون به علما ، فلا يمكنهم التغلب عليه ، او مقاومة مكره ، إذا ليس امامهم الا التسليم له و الهروب من عدله الى عفوه ، ومن غضبه الى رحمته و رضوانه.

المسؤولية ... بين التذكر و النسيان

هدى من الآيات

الانسان خاضع بكيانه الطبيعي لله سبحانه ، و يتجسد خضوعه الكامل يوم القيامة ، أما في الدينا فقد أعطاه الله فرصة لتجربة ارادته ، فهو يستطيع بها أن يسمو ليصير أفضل من المخلوقات ، التي تخضع لله خضوعا قهريا تكوينيا.

و هذه المسؤولية بحاجة الى التذكير بها ، و ان كان الانسان بطبعه و فطرته يشعر بالمســؤوليــة ، و لكنه ربما أنسته إياها ضغوط الحياة ، و وساوس الشيطان فيها ، و مشاكلها ، فهو بحاجة الى تذكير مستمر ليقاوم كل ذلك.

و هكذا جاء القرآن الحكيم تذكيرا للانسان بمسؤوليته ، و ثمة عامل آخر يجعل الانسان ذاكرا لا ينسى ، و هو العزم و الارادة ، و في هذه الآيات يذكرنا الله تعالى بأن آدم لم يكن من أولي العزم حيث نسي عهد الله اليه و اخرج ، و لم يخرج آدم من الجنة ، التي وفرالله له و لزوجه فيها الطعام و اللباس و الشراب و

السكن ، الا بسبب إثارة الشيطان لغريزتي حب الخلود و حب السلطة ، فلما اتبع ابليس ، تجرد من لباس الجنة (حيث جرد نفسه من لباس التقوى) و اضحى عاصيا و قد غوى ، الا ان الله فتح أمامه باب التوبة فاجتباه و هداه.

وفي نهاية الدرس بشارة بأن وراء هبوط الانسان الى الأرض بالذنب ، التوبة التي هي معراجه الى الجنة .

بينات من الآيات

[و عنت الوجوه للحي القيوم] [111]

عنت أي خضعت خضوعا ذليلا ، أما الوجوه فهي المظهر البارز من الانسان ، و حينما تقول توجهت أي جعلت كل أبعاد حياتي في هذا الطريق ، فعنت الوجوه بمعنى خضعت أبعاد حياة الانسان للحي القيوم ، بلى هذا الوجه الضعيف الفاني ، حق له أن يخضع لذلك الوجه الحي القيوم..

هكذا نقرأ في الدعاء:

(سجد وجهي الذليل لوجهك العزيز الجليل ، سجد وجهي البالي الفاني لوجهك الدائم الباقي ، سجد وجهي الفقير لوجهك الغني الكبير ، سجد وجهي و سمعي و لحمي و دمي و جلدي و عظمي و ما أقلت الأرض مني لله رب العالمين) (١)و لعل اسمي الحي و القيوم يجمعان أسماء الله الحسنى.

[و قد خاب من حمل ظلما]

(1)مفاتيح الجنان - ص ٢٢٧ - من دعاء الجوشن الكبير.

إثارة الشيطان لغريزتي حب الخلود و حب السلطة ، فلما اتبع ابليس ، تجرد من لباس الجنة (حيث جرد نفسه من لباس التقوى) و اضحى عاصيا و قد غوى ، الا ان الله فتح أمامه باب التوبة فاجتباه و هداه.

وفي نهاية الدرس بشارة بأن وراء هبوط الانسان الى الأرض بالذنب ، التوبة التي هي معراجه الى الجنة .

بينات من الآيات

[و عنت الوجوه للحي القيوم] [111]

عنت أي خضعت خضوعا ذليلا ، أما الوجوه فهي المظهر البارز من الانسان ، و حينما تقول توجهت أي جعلت كل أبعاد حياتي في هذا الطريق ، فعنت الوجوه بمعنى خضعت أبعاد حياة الانسان للحي القيوم ، بلى هذا الوجه الضعيف الفاني ، حق له أن يخضع لذلك الوجه الحي القيوم..

هكذا نقرأ في الدعاء:

(سجد وجهي الذليل لوجهك العزيز الجليل ، سجد وجهي البالي الفاني لوجهك الدائم الباقي ، سجد وجهي الفقير لوجهك الغني الكبير ، سجد وجهي و سمعي و لحمي و دمي و جلدي و عظمي و ما أقلت الأرض مني لله رب العالمين) (١)و لعل اسمي الحي و القيوم يجمعان أسماء الله الحسنى.

[و قد خاب من حمل ظلما]

(1)مفاتيح الجنان - ص ٢٢٧ - من دعاء الجوشن الكبير.

الخيبة هي الفشل ، و الذي يخيب هو الذي لا يصل الى هدفه ، و الظلم حمل ثقيل على كاهل الانسان يتجلى في صور سلبية شتى في الدنيا ، كعدم التوفيق و الفشل و ..و .. أما في الآخرة فيتجلى في صورة العذاب المهين ، و هذا خلاف ما ينتظره الانسان من وراء ظلمه ، أو ليس كان يأمل الظالم أن يحقق لنفسه و أهله السعادة و الفلاح ، الآن تراه يفشل و يخيب أمله ، و يحمل أوزار الظلم .

[112]في مقابل الظلم يوجد العمل الصالح ، و هو حالة بناء ، سواءا للنفس أو المجتمع ، فبدل أن تسجر لنفسك تنورا في جهنم بالظلم ، شيد لك قصرا في الجنة بالعمل الصالح ، و بدل أن تهدم علاقاتك بالمجتمع عبر الظلم ، و سعها و متنها بالأحسان و العمل الصالح ،و الذي يعمل الصالحات لا يخاف الهضم ولا الظلم.

ثم أن عمل الصالحات في الخط الفاسد ليس من الصالحات في شيء ، لذلك يؤكد القرآن:

]و من يعمل من الصالحات وهو مؤمن[

فحتى تثمر الصالحات يجب أن تكون في خط الايمان.

]فلا يخاف ظلما ولا هضما[

لا يمكن في يوم القيامة أن ترى صحيفة عملك و قد ذهبت بيد غيرك ، كما لا يمكن أن يضيع الله عملا صالحا مهما يكن صغيرا ، فلو أنك قمت في أحد الليالي لحظات و سبحت الله ثم نمت فهي ستبقى مكتوبة في صحيفتك يوم القيامة ، و الفرق بين الظلم و الهضم ، أن الظلم ذهاب كل العمل ، و الهضم نقصان بعض الاجر.

] [113]و كذلك أنزلناه قرءانا عربيا[

عربيا : بليغا يفهمه كل الناس ، و يوضح كل الحقائق ، و اللغة العربية تمتاز ببلاغة نافذة - باعتراف علماء اللغة - لا نجدها أبدا في غيرها.

]و صرفنا فيه من الوعيد[

أي ثبتنا فيه الوعيد ، بأساليب مختلفة و مع أمثلة حقيقية.

]لعلهم يتقون[

لكي تترسخ فيهم روح التقوى ، و الذي تترسخ فيه هذه الروح لا يظلم ولا يغفل ولا يذنب ، لأنه مسلح بالتقوى و الحذر نتيجة الوعيد.

]أو يحدث لهم ذكرا[

هدف القرآن هو زرع التقوى في نفس الانسان ، واذا كان قلب الانسان لا يتقبل التقوى ، فلا أقل ليتذكر بالقرآن ، و التذكر حسبما جاء في الأحاديث هو تذكر الله عند ممارسة الخطيئة ، من هنا يمكن القول بأن التقوى نوع من العصمة أما التذكر فيشبه الكابح.

] [114]فتعالى الله الملك الحق[

تعالى عن التشبيه و التصوير و التصور ، فهو الملك المالك لكل شيء و المهيمن عليه ، و هو الحق و ما دونه الباطل ، فنحن ملكه يهدينا الى القرآن.

ولكي نصل الى علم القرآن لابد من التسليم و الاستزادة من الوحي دون العجلة .

]ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى إليك و حيه[

في تفسير علي ابن ابراهيم ، في سبب نزول هذه الآية ، قال : كان رسول الله (ص (اذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل تمام نزوله ، فأنزل الله:

]ولا تعجل بالقرآن[

و لعل زيـادة حب النبي و شوقه الى وحي ربه ، كان يدفعه الى ذلك ، فنهاه الرب عنه ، و مهما كان السبب فان ذات العجلة غير حميدة:

/ 1اذ المطلوب من المؤمن التسليم المطلق امام الرب ، ليزيد الله علمه ، و مع الاستعجال بالوحي حتى ولو كان من منطلق الشوق ، يفقد كمال التسليم له ، و بالتالي لا يزداد علما.

/ 2و المهم قراءة القرآن بتأن و تدبر لاستيعاب معانيه ، لأن هذا الطريق فقط هو الذي يجعلنا نفهم القرآن ، و خطأ أن نقرأ القرآن بهدف القراءة لأنها ليست مطلوبة بذاتها ، اذا عريت عن الفهم و التدبر ، الذي يحقق التقوى أو الذكرى.

]وقل رب زدني علما[

وان من آداب تلقي الذكر - بعد التسليم - الشوق الى زيادة العلم ، فمن اغتر بما يملك من العلم لم يؤت الزيادة.

و لذلك نجد كيف يأمر الرب رسوله بطلب الزيادة في العلم - وجاء في الحديث الشريف - عن أئمة أهل البيت : لولا اننا نزداد لانفدنا . (١)و في الحديث المأثور عن عائشة عن الرسول (ص) انه قال:

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٣٩٧.

"اذا اتى علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني الى الله ، فلا بارك الله لي في طلوع شمسه " (١)[١١٥] [و لقد عهدنا إلى ادم من قبل فنسي[

لقد حدد الله سبحانه الهدف من القرآن (التقوى و التذكر) ، و كمثال على هذين الهدفين يذكر الله قصة آدم (ع) عندما نهاه عن الشجرة و حذره من الشيطان أن يخرجه من الجنة ، فلا هو اتقى الشيطان ولا هو تذكر نهي الله له.

و من كلمة " نسي " نستنتج ان عصيان آدم لم يكن متعمدا ، و يدل على ذلك عجز الآية " ولم نجد له عزما " أي عزما على ترك المعصية ، كما ان النسيان ضد التذكر ، و عهدنا بمعنى أمرنا ، فهو لم يتحد ذلك الأمر انما نسيه.

]ولم نجد له عزما[

و هناك تفسيران لهذه الأية

الأول : ان آدم (ع) نسي العهد الالهي و لكن لم نجد له عزما على الخطيئة أي تعمدا.

الثاني :لم يكـن آدم مـن أولي العزم و أولو العزم خمسة هم : نوح ، و إبراهيم ، و موسى ، و عيسى ، و محمد (َص) ، و هذا التفسير تأكيد للقول بأن الارادة " العزم " تمنع الغفلة و النسيان.

] [116]وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى](١) المصدر / ص ٢٩٨.

ان سجود الملائكة الموكلة بالطبيعة للانسان يعني ان الله سخرها للبشر ، بلى يبقى إبليس موكل بالنفس الأمارة التي لن تسجد لله الا ان يجبرها الانسان على ذلك.

] [117]فقلــنا يا ادم إن هذا عدو لك و لزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى]بين الله لآدم وزوجه ، أن ابليس عدو لهما ، يسعى لاخراجهما من الجنة ، و نستفيد من هذه الآية عدة أفكار:

- 1ان الانسان بحاجة الى ان يعرف عدوه ابليس و يتذكر ذلك ابدا.

- 2ان عداوة ابليس للمرأة كعداوته للرجل ، و بالتالي على المرأة أن تكون على أشد الحذر كما على الرجل سواء بسواء.

- 3ان هــدف الشيطان هو اضلال البشر و جرهم الى الشقاء المادي و المعنوي ، و وسيلة في ذلك التغرير و المكر و الخداع!

] [119 - 118]إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى [هذه أربع من النعم المادية التي أودعها الله في الجنة و هي (نعمة الأكل و اللباس و الشراب ، و المسكن. (

[120]ولكن هل يترك الشيطان الانسان لسبيله ؟ .. كلا.

]فوسوس إليه الشيطان قال يا ادم هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى [نستوحي من هذه الآية الكريمة أفكارا عديدة تعالج قضايا هامة ، لازال بعضها موضع بحث و دراسة عند المفسرين:

- 1ان الشيطان يوسوس للانسان ، فيستثير طبائعه الدفينة ، و يدغدغ تمنياته المكبوتة ، و يحرك تلك الغرائز الخامدة ، و هو يفعل كل ذلك بهدف التشويش على بصره ، و التمويه عليه ، و زرع الشبهات في قلبه ، و القاء التبريرات و التسولات في نفسه.

و هكذا لا يكفي الحذر من اغواء الشيطان المباشر ، بل علينا أن نعرف أنه يشــوش علينــا ، و يشبه الأمور و يخلط الحق بالباطل ، و يمكر و يكيد ، و يغر و يخدع ، إن علينا أن نكون في قمة الحذر ، و الا وقعنا في شركه.

- 2وآدم أول من وقع في مصيدة إبليس ، فهو لم يعزم عصيان ربه ، بل أنساه الشيطان أمر الرب ، و خدعه حيث حلف له بالله كذبا أن الله لم ينهه عن تلك الشجرة.

و لم يكن آدم يعلم أن من الممكن أن يحلف أحد بربه كاذبا ، ثم شبه عليه بأن المنهي عنه انما هو شجرة معينة من الحنطة ، و ليس كل أشجار الحنطة ، و هنا استفاد أبليس من نقطة ضعيفة عند البشر حيث يتهرب من المسؤولية بأدنى تبرير ، و كانت أداة و سوسته اثارة مشاعر حب الخلود و الملك عند البشر ، جاء في حديث شريف عن جميل بن دراج عن أحد الصادقين عليهما السلام : " سألته : كيف أخذ الله آدم بالنسيان ؟ فقال :انه لم ينس ، و كيف ينسى وهو يذكره و يقول له ابليس : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين " (١. (

(1)المصدر / ص ٤٠٢.

- 3غريزتا الملك و حب الخلود غريزتان متأصلتان في أعماق الانسان ، فبالرغم من أن الله أسكن آدم و حواء الجنة - وهي دار الخلود - الا انهما لا زالا ينتابهما الشعور بالنهاية ، و قد أثار الشيطان فيهما هاتين الغريزتين ، و هكذا انخدع آدم بابلس الذي زين لهالأكل من الشجرة المحرمة ، و كانت النتيجة أنه طرد من الجنة و أهبط الى الأرض.

و انما خدع آدم حين أثار ابليس فيه غريزتي (حب الملك و حب الخلود) ، و من المعلوم انه لم يكن الهدف من خلق هاتين الغريزتين في النفس ان يستخدمهما الشيطان في اغوائه الانسان ، انما اعطاه الله حب الملك و السيطرة ، لكي يستعمر الأرض و يتحمل الصعاب و المشاق في سبيل ذلك ، و اعطاه حب الخلود لكي يحافظ على نفسه من جهة ، و لكي يعرف انه خلق للبقاء و لكن ليس في هذه الدنيا ، بل في الآخرة ، و انه لو لم يخلد في الدنيا ، فان هناك دارا أخرى سيخلد فيها.

و لكن ابليس كعادته يحرف غرائز الانسان ، التي لو استفاد منها استفادة سليمة ، اذا لكانت وقوده في الطريق الصاعد ، أما لو استخدمها بصورة غير سليمة ، فانها ستكون سببا لهبوطه و ترديه.

و الشيطان حينما يوسوس للبشر فهو قد لا يتراءى له ، و لكنه يأتيه في صورة خواطر و أوهام.

[121]فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة [كانت نتيجة اقترافهما السيئة أن بدت لهما سوآتهما بعد ان البسهما الله الرياش.

]و عصى ءادم ربه فغوى[

عصى باقترافه الخطيئة ، أو تركه الهدى ، و غوى عن رحمة ربه الى دار الشقاء اذ من معاني الغواية الضياع.

] [122]ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى[

وفي هذه الآية اشارة الى ان بيد الانسان نفسه سعادته او شقائه ، و انه لو وقع في فخاخ الشيطان و انحرف عن الجادة ، فان امامه فرصة التوبة التي هي معراجه الى الفضيلة.

و هناك حديـث مأثور عن الامام الرضا (ع) يوضح الكثير من الشبهات في الاية ، و الحديث كالتالي:

"يقول علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (ع) فقال له المأمون : يابن رسول الله أليس من قولك ان الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، قال فما معنى قول الله عز وجل : " و عصى آدم ربه فغوى " ؟ قال (ع : (ان الله تعالى قالللآدم : " اسكن انت و زوجك الجنة و كلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة ، و أشار لهما الى شجرة الحنطة " فتكونا من الظالمين " ولم يقل : ولا تأكلا من هذه الشجرة ، ولا مما كان من جنسها ، فلم يقربا من تلك الشجرة ، و انما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان اليهما ، و قال : " ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة " وانما نهاكما ان تقربا غيرها ولم ينهكما عن الأكل منها " الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " " و قاسمهما اني لكما لمن الناصحين " ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذبا " فدليهما بغرور فأكلا منها " ثقة بيمينه بالله و كان ذلك من آدم قبل النبوة ، و لم يكن بذنب كبير إستحق به دخول النار ، و انما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم ، فلما اجتباه الله تعالى ، و جعله نبيا معصوما لا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، قال الله تعالى : " و عصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى " و قال عز وجل : " ان الله اصطفى آدم و نوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " . (١)وكلمة أخيرة:

ان الشيطان يقدر على اغواء البشر ما دام الانسان مغرورا بنفسه ، غير مستعيذ بربه من شر إبليس و خدعه و احابيله..

و هكذا و قع آدم في شرك ابليس حيث اعتمد على نفسه ، فعلينا أن نعرف مدى خطورة الشيطان فنستعيذ أبدا منه بالله سبحانه.

و نكرر : أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي.

جاء في حديث شريف عن الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام: (

"فقال لهما لا تقرباها يعني لا تأكلا منها فقال آدم و زوجته : نعم يا ربنا لا نقربها ولا نأكل منها ، و لم يستثينا في قولهما ، نعم (لم يقولا الا ان يشاء الله) فوكلهما الله في ذلك الى انفسهما والى ذكرهما " (٢. (

(1)المصدر / ص ٤٠٣.

(2)المصدر / ص ٤٠٢.

هدى الله معراج الفضيلة

هدى من الآيات

الانسان مزيج من حفنة من تراب و ومضة من نور ، و الأولى هي التي تحتوي على جوانب ضعيفة ، أما الثانية فتستر سوءات التراب ، فارادة الانسان تستر شهواته ، و عقله يستر جهله ، و تقواه تستر غرائزه ، و لولا هذا الجانب الخير في حياته لكان أضعف و أعجز من كثيرمن الأحياء.

نعم إن لباس التقوى هو أفضل ما يستر به الانسان عجزه و جهله و غروره ، و لولا هذا اللباس لما تدافن الناس ، ولو تعرى كل إنسان للثاني ، لظهر أشد سبعية من الذئب ، و أخبث حيلة من الثعلب ، و ألدغ من الحية ، و الذي ينزع عن نفسه هذا اللباس فان أمامه طريقا عريضا ، ليعود الى الله ، مرة اخرى عبر التوبة.

و الانسان إنما يضعف و يذنب ، حينما ينشد الى التراب ، بينما يسمو حينا يميل الى جانب النور ، و إنما هبط آدم عندما تأثر بترابيته لا بروح الله التي نفخها فيه.

ولما خدع الشيطان آدم أنزله الله الى الأرض ليخوض صراعا عنيفا بين الحق و الهوى ، بين من يتبع هذا ومن يتبع ذاك ، و هذا ما يجعل الانسان محتاجا الى رسالات الله لتهديه الى سبيل الرشاد و السعادة ، فمن اتبع هدى الله فلا يضل عن الطريق ، ولا يصيبه الشقاء ،اما من اتبع هواه و أعرض عن ذكر الله ، فانه يخضع لضغوط الشهوات ، و يعيش في زنزانة الجهل و الجهالة ، و يصاب بمعيشة ضنك ، أما يوم القيامة فيبعث أعمى ، و حين يتساءل عن ذلك يأتيه الجواب : أو لم تنس آيات الله ؟ بلى فأنت اليوم تنسى.

إن المسرفين الذين يكفرون بآيات الله لهم عذاب شديد ، في الدنيا - كما أهلك الله القرون الغابرة و أِشد منه و أبقى في الآخرة.

إن الله سبــحانه و تعالــى يهمل الكفار لأجل مسمى ، و لولا ذلك لأخذهم بكفرهم.

بينات من الآيات

] [123]قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو[

لقد هبط آدم و زوجته فقط ، و قد أكد القرآن ذلك حين جاء الحديث بلفظ التثنية " اهبطا " ، و لكنه بعدئذ يقول : " جميعا " فلعله يضم إبلس معهما ، ثم يقول " :بعضكم لبعض عدو " بصيغة الجمع ، لماذا ؟

لأن آدم لم يختلف مع زوجته في الأرض ابدا ، بل ظل على وئام معها ، حتى صارت لهما ذرية فانقسم هؤلاء ، فمنهم من اعتنق مبادىء الخير ، و منهم من اعتنق مبادىء الشر ، فنشب الصراع بين الطرفين.

]فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى]الضلالة هي الانحراف و الشقاء نتيجتها ، و لكن الذي يتبع هدى ربه لا يضل ولا يشقى ، لأنه يسير في الطريق الصحيح الذي يوصله الى أهدافه ، و لعل الضلالة تعني الجانب المعنوي ، بينما الشقاء يعني الجانب المادي ليتقابل مع قوله سبحانه في الآية التالية : " فإن له معيشة ضنكا " يعني من لم يتبع هدى الله.

] [124]ومن أعرض عن ذكري[

من يعرض عن ذكر الله ، و عن الحق ، و أبرز قضاياه هو تولي القيادة الشرعية ، فانه لا يعرف كيف يستفيد من الحياة لذلك يشقى فيها.

]فإن له معيشة ضنكا[

أي معيشة ضعيفة تضغط عليه و تجلب له التعاسة ، برغم مظاهر الثروة التي قد يكون متلبسا بها و يغبطه الناس عليها ، و الواقع : إن ضنك العيش يتمثل في واحد من بعدين:

/ 1فقد يكون بسبب نقص الوسائل المادية التي توفرها المناهج الالهية ، و التي لن توجد من دونها إلا مؤقتة و مشوبة بالمشاكل الأعظم منها.

/ 2و قد تضيق النفس بالحياة و تصبح حرجة قلقة ، غير مطمئنة ولا راضية حتى ولو توفرت الوسائل المادية ، إذ النفسية المعقدة التي تتراكم عليها الصفات الرذيلة كالحسد و الحقد و الكبر والغرور يعيش صاحبها في زنزانة ضيقة و لو كان جســـمه في روضة فيحاء.

وفي السياق إشارة الى بعض جوانب السعة و الضيق في القلب.

]و نحشره يوم القيامة أعمى[

و لماذا يعمى الانسان في الآخرة ؟ لأنه قد ترك الانتفاع بالبصيرة في الدينا ، ذلك لأن العمى في القرآن منه ما هو عمى البصر و منه ما هو عمى البصيرة ، كما قال الراغب في قوله سبحانه : " ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضل سبيلا " فالأول عمى البصيرة و الثاني عمى البصر ، و لعلنا نستطيع ان نعبر عن عمى البصيرة بعدم الوعي ، و الذي يعمى عن النور لا بد أن يعمى عما يضيئه ذلك النور من الحقائــق ، فهــدى الله نور جاء ليضيء الحقائق ، و يبين السنن الحاكمة في الحياة ، و بديهي إن من يعرض ببصرهو بصيرته عن رؤية ذلك الهدى ، سيعمى عن حقائق الحياة و سننها ، و سيصعب عليه تمييز الخير عن الشر ، و سيتجسد في الآخرة في عمى ظاهر هو عمى العين ، لذلك يقول تعالى :

] [125]قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا[

يبدو من الآية إن الرجل لم يكن من الكفار ، إنما ممن نسي آيات الله بعد أن جاءته ، و لذلك احتــار فــي سبب عماه و تساءل : " رب لم حشرتني أعمى " و أضاف : " وقد كنت بصيرا " ولو كان كافرا إذا لم ينسب نفسه الى البصر ، و ربنا حين أجابه، ذكره بأنه نسي آيات الله ، و لم يقل أنه لم يؤمن بها ، هكذا جاءت النصوص تفسر الآية بمن ترك الولاية الالهية أو الحج المفروض ، فقد روى أبو بصير قال : سمعت أبا عبد الله يقول : " من مات وهو صحيح موسر لم يحج ، فهو ممن قال الله عز وجل : " و نحشرهيوم القيامة أعمى " قال قلت :سبحان الله ، أعمى ! قال نعم أعماه الله عن طريق الحق " (١)و حينما يسأل الضال ربه عن سبب عماه يأتيه الجواب:

(1)نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٠٦

] [126]قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى]أي أهملتها كما ينسى شيئا ، و كذلك تهمل في النار كمن نسي شيئا ، و يبدو من هذه الآية أن مشكلة الانسان هي إهماله لتعاليم الرسالات الالهية ، بسبب عدم الجدية) العزم (فيها ، و علاج هذه الآفة بذكر الله تعالى ، عبر الصلوات الخمس و العمل الصالح ، فالصلاة تذكر المؤمن بربه باستمرار ، و بالتالي تذكره بأوامره و نواهيه التي بلغها الرسل ، ومن خلال ذلك يعرف الحياة و سبل تسخيرها ، فيفوز في الدنيا والآخرة.

[127]ما الذي يجعل الانسان لا يؤمن بآيات الله ، إيمانا عمليا ينعكس في واقع حياته ، و يلتزم باحكام الدين بجد و عزم ؟ الجواب : إنها نزعة الإسراف الكامنة في نفسه ، و التي تدعوه الى الاستزادة من متع الدنيا الزائلة ، حيث إن التمسك بالدين يتطلب شيئا منالصبر و التحمل و التضحية ، و لعله لذلك يقول الرب سبحانه:

]و كذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه[

و الانسان الذي يحاول الهرب من صعوبات الحياة بالالتفاف على آيات الله ، فانه سيواجه في الآخرة نفس الصعوبات و المشاق ، و قد اكتسبت صفتين خطيرتين هما الشدة اولا ، و الامتداد الزماني الذي يصل الى درجة الخلود ثانيا.

]و لعذاب الآخرة أشد و أبقى[

] [128]أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لايات لأولي النهى]الذي لا يتعظ إما لا يشعر بالخطر فيأمن من مكر الله ، أو لأن قلبه قاس لا يستطيع أن يستوعب به العبر ، ولا يستفيد من العبر إلا أولي النهى (أصحاب العقول. (

] [129]ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما و أجل مسمى]كلمة الله سبقة بتأخير العذاب ، و إلا لكان لزاما أن يصب الله عليهم عذابه ، إن من رحمة الله بالانسان أن ترك له فرصة كي يهتدي و لم يعاجله بالعقوبة.

[130]بماذا نتقي النسيان ؟ نتقي النسيان بأمرين:

الأول : الصبر.

]فاصبر على ما يقولون[

عدم التأثر بكلام الكفار و أفكارهم السلبية ، و عدم مجاراتهم في كلامهم.

الثاني : ذكر الله بالتسبيح دائما.

]و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس[

صلاة الصبح.

]و قبل غروبها[

صلاة العصر.

]ومن اناىء الليل فسبح[

صلاتي المغرب و العشاء.

]و أطراف النهار[

أي و سط النهار و هي صلاة الظهر.

]لعلك ترضى[

و هذه الكلمة تقابل " فان له معيشة ضنكا " ، فالمعيشة الضنك هي معيشة الانسان التي تحبس

نفسه بسببها في زنزانة السخط على الحياة ، أما المعيشة الرحبة فهي معيشة الانسان الراضي بقضاء الله تعالى.

سلبيات النفس البشرية
هدى من الآيات

تحدثنا سورة طه عن الانسان و تقص علينا أنباء أربعة نماذج بشرية هم : موسى و هارون ، و هما أعلى قمة بشرية ، ثم السحرة الذين اهتدوا بعد الضلالة ، ثم فرعون في الحضيض ، و أخيرا : جنود فرعون الذين استخفهم فأطاعوه و أضلهم وما هدى.

وفي الدرس الأخير تلخص السورة عبرها ، و تبين : سلبيات النفس البشرية ، بعد أن أشار الى عوامل الانحراف فيها ، ذلك ان معرفة الانسان بنفسه ، و بالعوامل المؤثرة فيها ، تساعده على الاختيار السليم و حيث : ان القرآن يبصرنا في هذه السورة بحقيقة و ساوس الشيطان ، و كيف ان النسيان (و عدم العزم) ، و الغفلة عن مكر الشيطان ، و اهمال ذكر الله ، كل أولئك يهبط البشر من جنته الى أرض الصراع.

بلى ان هناك مجالا للانسان أن يسمو و يسبق الآخرين ، و لكن ينبغي أن يكون تسابقه معهم شريفا يتجه نحو البناء ، و الا يكون على حطام الدنيا والا يتحول الى صراع هدام.

و لكي نبتعد عن الضلالة ، و لا نتأثر بعامل الحسد ، فيصير التنافس صراعا ، علينا أن نذكر الله تعالى وان نقيم الصلاة ، و نأمر بها أهلنا ، لأنهم قد يؤثرون علينا سلبا لو لم يكونوا مؤمنين ، فالصلاة معراج المؤمن ، و من يعرج الى الله ، لا يتأثر بضغوط الهوى، ولا بزينة الحياة الدنيا.

ثم يشير القرآن الى سبب من أسباب الضلالة ، وهو عدم القناعة بقضاء الله ، ولا ريب ان الذين يحملون هذه الروح لن يقبلوا برسل الله ولا برسالاته ، و سيبررون موقفهم هذا بطلب المزيد من الآيات و الدلالات الحسية المادية ، ولكنهم يغفلون عن حقيقة هامة ، وهي انكثيرا من الانبياء السابقين كانت لهم آيات و معجزات ظاهرة ، كعصا موسى و معاجز عيسى من قبيل احياء الموتى و اشفاء المرضى و لكن مثل هؤلاء الناس لم يؤمنوا بهم.

بينات من الآيات

] [131]ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه و رزق ربك خير و ابقى]النعم التي يمن الله بها على الانسان تكون لحكم مختلفة و غايات متباينة ، فقد تكون للابتلاء و الاختبار لمن هو في مستواها ، لعل نفسية شخص لا تتحمل النعم العظيمة ، و بالتالي لا يكون من الحكمة تحميله مسؤولية تلك النعمة العظيمة ، فالأفضل - اذا - الا تطاول بنظرك الى نعم الله على الآخرين.

و قد تكون للزيادة في الاثم و استدراج الفرد نحو مصيره الأسود.

و كثيرون هم الذين يسقطون في الامتحان فيحق عليهم العذاب ، فلا داعي اذن ان يحسد الانسان الآخرين على ما في ايديهم من نعم الله ، بل يقنع بما في يده ما دامت النعم تعطى بحكمة للبشر ، و لو فكر ان يستزيد من الفضل فليكن ذلك بالطرق المشروعة .. بالعمل و السعي بدل المكر و السرقة.

[132]ان التنافس على حطام الدنيا لا يختص بالرجال فقط ، بل قد نجد البعض يرضى بقسمته من العيش ، الا ان اهله هم الذين يدفعونهم الى التكاثر من زينة الحياة ، و دائما يقولون له : أفلا ترى أهل فلان كيف يتنعمون بالرخاء ، أفلا تعمل كما يعمل لأهله ؟ فما هيإذا مسؤولية الانسان تجاه أهله ؟ الجواب :عليه أن يكون فاعلا في أسرته و ليس منفعلا ، فلا يتأثر لضغوطهم الشيطانية ، و ذلك عبر تربيتهم على الروحانيات ومن أبرزها الصلاة.

]و أمر أهلك بالصلاة و اصطبر عليها لا نسئلك رزقا نحن نرزقك]و تدل هذه الآية على ان الصلاة ليست عبادة فردية يؤديها الفرد تجاه ربه فقط ، بل هي أيضا عمل اجتماعي متكامل الاركان ، نستفيد ذلك من كلمتي (الأمر ، و الاصطبار) ، فالأولى تدل على ضرورة الالتزام الاجتماعي بهذه الشعيرة ، بينما تدل

الثانية على ان الصلاةتتطلب اعمالا اخرى فيها مشقة و تعب ، فهي بحاجة الى الصبر و الاستمرار.

فالصلاة على سبيل المثال تحتاج الى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و الالتزام الحاد بتعاليم الشريعة في كافة مجالات الحياة ، الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الثقافية و .. و..

و نهتدي من الآية الى أن الصلاة باب من أبواب الرزق ، كما أن فائدتها تعود على مقيمها ، مما يجعل الانسان يقبل عليها بشوق و تلهف ، لأن وراءها الرزق و الخير أيضا.

]و العاقبة للتقوى[

لكي نوضح بعدا من أبعاد هذه العبارة القرآنية نضرب المثل التالي : قد يأكل الانسان أكله شهية ، و لكنها تحتوي على ميكروب لا تراه عينه ، فهو وان شعر باللذة الآنية ، الا انه سيـجد نفسه طريح الفراش في المستقبل القريب ، بسبب تكاثر الميكروب ، و الآلام التي يسببها ، مما يجره الى انفاق الكثير من الوقت و المال بين الأطباء و المستشفيات طلبا للصحة ، بينما يأكل آخر أكله متواضعة ولكنها نظيفة فيحصل على فوائدها.

ان المفاسد الاجتماعية تشبه الميكروب في الطعام ، فالانسان الذي يكتسب المال عن طريق الحرام ، كالسرقة ، و الاحتيال على الناس ، هذا وان حصل على كثير من المال ، فان عاقبته غير حسنة على صعيد الدنيا حيث يبغضه الناس ، و قد يقع ضحية لظلم الآخرين و سرقتهم واحتيالهم ، اذ كما ان في المجتمع من هو أضعف منه يمارس تجاهه الظلم ، فكذلك فيه من هو أقوى منه يستطيع ان يظلمه ، لكل عمل انعكاسا اجتماعيا يشبه امواج الصوت ، ترتد الى صاحبه قريبا أو آجلا ، ذلك لأن المجتمع وجود حي يتفاعل اعضاؤه فيما بينهم ، فمن عمل بالظلمفانه يكرس قانون الظلم في مجتمعه ، و سيصبح في يوم ضحية هذا القانون ، و الحديث الشريف يقول:

"من طرق باب الناس طرق بابه"

اما الانسان الذي يتقي ، فانه وان لم يحصل الا على قليل من المال لكنه يحس بالبركة و الراحة الدائمة في الدنيا ، كما يكون سعيدا في الآخرة برضى الله و جنته.

ان موقف الانسان من نعم الله المادية هو موقفه من نعمه الرسالية المعنوية ، فترى الذين لا يرضون بنعم الله عليه و يمدون اعينهم ابدا الى مالا يملكون من النعم ، لانعدام الشـكر و الرضـا و الطمأنينة عندهم ، هم الذين يطالبون الرسل ابدا بآيات جديدة ، ولايرضون بما أنزل الله معهم من آيات مبينات.

] [133]وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه[

انهم يطالبون بآية جديدة تشهد على صدق الرسالة فيجيبهم الله:

]أولم تأتهم بينة مافي الصحف الاولى[

لقد أحاط الله رسوله و رسالته بالآيات الواضحات ، كلأخبار التي جاءت في الصحف الأولى (التوراة و الانجيل .. .) التي تنبىء كلها بقدوم النبي محمد (ًص (، و تذكر سائر الصفات و الأحوال المتصلة به ، و قد تحققت امام أٍعينهم صدقا و عدلا ، و لكن عمى قلوبهم وطلبهم المزيد من الآيات منعهم من الايمان بها.

[134]ان العيب موجود فيهم حيث لا تقنع بمعطيات الواقع ، ولا ترضى بحكم الله ، فاذا بعث الله اليهم رسولا منذرا مؤيدا بالحجج و الآيات الواضحة اعرضوا عنه و عنها ، وقالوا نريد معجزات حسبما تراها اعيننا و تلمسها ايدينا ، و حين ترسل اليهم الآيات المدمرةيقولون لقد كنا على استعداد للايمان لو ارسل الله الينا رسولا ينذرنا بهذا المصير.

]ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع ءاياتك من قبل أن نذل و نخزى

]ان موقفهم المتعصب لا يعطيهم فرصة للايمان بالله و الخضوع لحاكميته ، ولو كانت الآيات ملىء الأرض و السماء ، ذلك ان الآيات لا تنفع بدون العقل و التفكر العميق.

] [135]قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى]الجميــع ينتــظر المستقبل ، و لكن ترقب المؤمن مبني على اساس التعاليم الالهية ، بينما لا يستند تربص الكافرين الا على وهم ، فهم في ضلالة حاضرة و مصير مظلم ، و هذه الآية تنطوي على انذار بالغ لهذه الفئة.

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن النبي محمد (ص) قال:

"من قرأ سورة الأنبياء ، حاسبه الله حسابا يسيرا ، و صافحه و سلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن. "

)مجمع البيان / ص ٣٨ / ج ٧(

و عن الامام الحسين (ع) قال:

"من قرأ سورة الأنبياء حبا لها ، كان كمن رافق النبيين أجمعين في جنات النعيم ، و كان مهيبا في أعين الناس حياة الدنيا. "

)الثقلين / ص ٤١٣ / ج ٣(

الاطار العام

شروعها هزة ضمير و نهايتها ومضة أمل ، و بين البداية الصاعقة و النهاية الحانيــة ، يتلو علينا القرآن الكريم آيات الوعي ، ليعالج فينا الغفلة و الإعراض ، و اللعب و اللهــو ، مذكرا بعاقبة المكذبين ، وان الحياة جد ، و ان الملائكة عباد مكرمون ، و ان الالهة لا تنفع ، و هي ليست كهفا منيعا للاعبين و اللاهين ، و ان الله واحد أحد ، و ان الموت و اقع ، و ان الاستهزاء بالرسل عاقبته العذاب ، كما انها تذكر بدور الرسل ، و عاقبة المكذبين بهم ، و شهادة صدقهم في نصر الله لهم.

فما هو إذا الاطار العام لهذه السورة ؟ هل انه يحيط بمحور النبوة و دور الأنبياء كما يدل عليه اسم السورة ؟ أم ان محور السورة قضية الغفلة ، و كيف تعالج في النفس ، ليشعر الانسان بمسؤولياته ، و ان الحياة جد لا هي لهو ولا لعب ؟

لعل السورة تحدثنا عن الأنبياء ، و لكن من زاوية تذكيرهم البشر ، و كيف ينبغي ان نداوي حالة الغفلة من أنفسنا بالاستماع اليهم ، و الايمان بهم و بما ارسلوا به.

ذلك إن سورا اخرى تحدثنا أيضا عن الأنبياء ، و لكن من زوايا مختلفة مثل طبيعة الصراع الاجتماعي أو السياسي الذي خاضوه (مثل سورة القصص) أو الأذى الذي لحقهم و كيف استقاموا حتى نصرهم الله (مثل سورة هود. (

إن الشعور بالمسؤولية ، قمة الوعي وإن السبيل إليه مقاومة حالة الغفلة و السهو ، و التي لا تتحقق إلا بالانذار باقتراب موعد الحساب!

و قد جاء النبي يذكرهم إلا انهم استمعوا الذكر وهم يلعبون ، لان قلوبهم لاهية ، لا تستقر على فكرة.

و بعـد أن يذكر السياق بان إعراضهم عن الذكر بادعاء إنه سحر ، أو حلم مختلط ، أو افتراء ، أو خيالات شاعر . و بالتالي تبريرهم التكذيب بالحق ، باننا نبحث عن آيات جديدة ، بعدئذ ينذرهم : بأن الهلاك هو مصير المكذبين (١١. (

و يبين القرآن : إن الحياة جد لا لعب ، و أن الله خلق السماوات و الأرض بالحق ، و بالتالي لا ينبغي اتخاذها لعبا و لهوا (١٦) و يؤكد ذلك بان الملائكة (وهم الأعرف و الأقوى منهم) يعبدون الله بجد و يسبحونه و له يسجدون (١٩) ولانهم يهربون من المسؤولية عادة الى كنف الآلهة فيزعمون انها تنقذهم من جزاء أفعالهم يذكرهم الرب بانه الله الواحد (٢٠) و يستمر السياق بذكر التوحيد و الشواهد الفطرية عليه (٣٠) ثم يعود بعد تزييف فكرة الشرك التبريرية ، ليهز الانسان من أعماقه بذكر الموت ، و ان كل نفس ذائقة الموت ، حتى النبي الكريم عند ربه (٣٤. (

أما الاستهزاء (و هو صورة اللهو وعدم اللهو و عدم الجدية في استقبال القضية المصيرية) فان عاقبته الدمار (٣٦. (

و بعد تفنيد الشرك و الاستهزاء يعالج القرآن حالة الاستعجال (٣٧) (حيث إن الانسان يبعد المسؤولية عن نفسه بالادعاء انه لو كان لكل فعل جزاء فلماذا يتأخر الجزاء. (

و يعود السياق ليبين مصير المستهزئين (٤١) و يقول ان الله هو حافظكم في الليل و النهار فاحذروه (ولا تستهزؤوا به) و انه هو الذي يكلؤكم لا أحد غيره ، و ان الآلهة لا تمنع عنكم العذاب (٤٣. (

و استمرار النعم ، قد يوحي الى الانسان بانه لا نقم و لا جزاء في الحياة ، و لكن الرب يذكرنا بأن نظرة الى الأرض كفيلة باثبات هذه الحقيقة : ان الله غالب على أمره (٤٤. (

إن من يلهو لا ينتفع بالوحي لانه الصم ، و هل يسمع الصم الدعاء (حتى ولو تم إنذارهم بالخطر المحدق بهم . (45) (

إنهم يعترفون بذنبهم إذا أصابتهم نفحة بسيطة من عذاب الله ، فكيف يغفلون عن الموازين القسط الدقيقة التي وضعت ليوم القيامة ؟ (٤٧. (

لهذا الهدف و هو تذكرة الانسان ، و إيقاظ ضميره ، و استثارة عقله ، جاء الأنبياء ، يحملون معهم الذكر ، و الله أيدهم بنصره فأهلك المكذبين بهم ، و المستهزئين . و أنقذهم ، و من آمن معهم من العذاب و رفع كلمتهم ، و هكذا يقص علينا القرآن قصة موسى و هارون)
و النبي محمد (ص)) و إبراهيم و لوط و اسحاق و يعقوب و نوح و داود و سليمان و أيوب و اسماعيل و ادريس وذا الكفل و ذا النون و زكريا و يحيى و مريم و ابنها (عيسى) و يبين كرامتهم عند ربهم و شهادة الصدق على رسالتهم الواحدة حيث ان الاختلاف جاء من قبل الناس أنفسهم (٩٣. (

و يستلهم السياق من تلك القصص المضيئة إن من يعمل من الصالحات و هو مؤمن فلا كفران لسعيه (٩٤) وهو الجانب الآخر لفكرة المسؤولية.

و بعد أن يبين أشراط الساعة و إقتراب الوعد الحق و ندم الكفار و كيف ان الله يلقي الآلهة المزيفة و من عبدها في النار ، يؤكد بأن دخول هؤلاء النار التي لهم فيها زفير ، لدليل على أنهم ليسوا بآلهة (٩٩. (

أتريد أن تتخلص من النار ؟ ! فكن ممن هداه الله ، و استمع الذكر ، فهناك لا تسمع حسيسها ، و لا يحزنك الفزع الأكبر (١٠٣) هنالك يطوي الله السماء كما تطوي الأوراق ، و لكن قبل ذلك اليوم سوف يورث الله الأرض لعباده الصالحين ، و هذا البلاغ يفهمه القوم العابدون ! (١٠٦. (

و الرسول رحمة للعالمين (و تتجلى الرحمة في يوم وراثة الأرض) . و بعد أن يذكرنا السياق بالتوحيد ، و

ينذرنا من مغبة التولي ، و يخبرنا بأن الله يعلم الجهر و ما تكتمون ، و ان المتاع الدنيوي فتنة و نهايته قريبة يختم السورة بالدعاء الذي يأمر به رسوله النذير ، بأن يطلب من الله أن يحكم بالحق (بينه و بين الجاحدين) وهو الرحمن المستعان على الأعداء و ما يصفونه من تهم (١١٢. (

إقترب للناس حسابهم
هدى من الآيات

عجيب أمر الناس إنهم يلهون و يلعبون و الحساب يقترب اليهم.

لماذا تراهم يعرضون عن الحق ، حتى أنهم لا يأتيهم ما يذكرهم إلا تراهم يتخذونه لعبا ، و تحيط بافئدتهم الغفلة و يتناجون بينهم - ظالمين أنفسهم - هل هذا إلا بشر مثلنا ، لماذا نتبعه ، و يفسرون ذكر الله الجديد و أثره البليغ في قلوبهم ، بأنه سحر ، و يتناهون عنه.

و الرسول يبلغهم رسالات ربه ، و يتوكل عليه ويشهد على صدقه الله الذي يعلم القول في السماء و الأرض ، و يحتارون بماذا يفسرون هذا الذكر المحدث الذي يتهربون منه ، بسبب لهو قلوبهم . فتارة يقولون أضغاث أحلام ، و حينا ينسبونه الى الافتراء ، و مرة يقولون إنه خيال شاعر ، و أخرى يطالبونه بآيات مقترحة.

و يتساءل السياق اذا لم يؤمن السابقون حتى أهلكهم الله و قد انزلت اليهم تلك الآيات المقترحة أفهم يؤمنون ؟ و من هم الرسل السابقون ؟ أو لم يكونوا رجالا يوحى إليهم ؟ دعهم يسألون من انتفع بالذكر إن كانوا لا يعلمون ، بلى كان الأنبياء يتعرضون للجوع و لم يكونوا خالدين.

و كانت - مع ذلك - شهادة صدقهم قائمة في الامداد الالهي الذي تجلى في إنقاذهم ثم إهلاك المكذبين بهم ، الذين أسرفوا على أنفسهم.

و هذا كتاب فيه ذكر محدث ، و على المسلمين أن يتذكروا به إن كانوا يعقلون.

بينات من الآيات
معرفة المصير

] [1]اقترب للناس حسابهم[

معرفة الانسان لمصيره و حسابه ، أفضل و سيلة لهدايته و في الحديث : " كفى بالموت واعظا " لأن الموت زائر غير مرغوب فيه ، يزور الانسان في أي لحظة يشاء ، دون أن ياخذ موافقة مسبقة ، فعلى الانسان أن يستعد للموت في كل لحظة) فاذا مات ابن آدم قامتقيامته) ومن هنا يظهر الخطأ الفادح لاولئك الذين يزعمون بأن يوم القيامة بعيد ، إذا فلماذا الغفلة ، و لماذا الاعراض عن ذكر الله و عن الرسالة ؟!

و الناس على أقســام ثــلاث ، فمنهم من يتحول قبره الى روضة من رياض الجنة ، و هم الصالحون ، و منهم من يصبح قبره حفرة من حفر النيران ، و هم المجرمون.

و واضح إن حساب هؤلاء أقرب إليهم من كل شيء لأنه لا يفصلهم عنه سوى الموت الذي ينزل بهم في أية لحظة.

أما القســم الثالــث فهم الذين يلهى عنهم حتى قيام الساعة حسب بعض النصوص ، و بالرغم من بعد الحساب عنهم زمنيا إلا إن إنعدام شعورهم خلال الفترة يوصل الموت و قيام الساعة ببعضهما في الواقع ، و لعله لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف : " بعثت و الساعة كهاتين ، و هو يشير الى إصبعي السبابة و الوسطى بعد جمعهما. "

]و هم في غفلة معرضون[

تحيط بهم الغفلة ، و يهربون من مواجهته الحقيقية.

] [2]ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه و هم يلعبون]كلما أتتهم آيات جديدة من ربهم ، تذكرهم بواقعهم و مصيرهم ، إذا بهم يتشاغلون عنها بتوافه الأمور ، أو يتخذونها لعبا ، فلا يتعاملون معها بجدية . تصور إنك لو مثلت أمام محكمة ، و أنت تعتقد بانها إما أن تحكم عليك بالاعدام ، و إما أن تبرىء ساحتك ، كيف تقففي قفص الاتهام ، أو ليس متحفزا يقظا ، حتى لا تبدر منك كلمة في غير محلها ، لانها لحظة حاسمة . أما إذا أخذت تدير مسبحة في يدك أو تدخل يديك في جيبك تبحث عن محتوياته العادية فان ذلك يسمى لعبا.

و كذلك الانسان في هذه الحياة أشبه ما يكون في قاعة محكمة ، و عليه أن ينتظر الحكم عليه بدخول الجنة أو بورود النار ، و لهذا ينبغي عليه أن يأخذ الحياة بجدية تامة ، و يحسب لاعماله و تصرفاته ، و أقواله ألف حساب ، وإلا كان من الذين يشملهم قول الله سبحانه: و هم يلعبون.

تخرصات البشر

] [3]لاهية قلوبهم[

إن القلوب اللاهية لا تتقبل حقائق الحياة ، ولا تتفاعل معها ، تماما كالأحجار الصلدة التي كلما صببت عليها الماء فانها ترفض أن تحتفظ بقطرة واحدة منه.

]و أسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر و أنتم تبصرون]لماذا كان حديثهم بينهم نجوى ؟

لانهم يخافون أن يفتضحوا أمام الملأ بسبب ضعف موقفهم العلمي أمام شواهد الصدق التي تميزت بها الرسالة ، و لانهم انهزموا في واقع أنفسهم أمام قوة الرسالة ، فلم يجدوا بدا من المؤامرة في السر ضدها ! ولان ادعائهم بانها سحر كان واضح البطلان فاحتاجوا الى التواطىء عليه في السر ، فالسحر شيء و الرسالة شيء آخر ، السحر يداعب خيالهم بينما الرسالة تثير عقولهم.

] [4]قال ربي يعلم القول في السماء و الارض وهو السميع العليم]إن الانــسان يبرر عمله أمام الآخرين مادام يعلم إن تبريره يمكن أن ينطلي عليهم ، أما إذا علم أن هناك من يعرف حقيقة أمره ، فانه سيخجل من ذاته ، و يكف عن إنحرافه إن كان أهلا للموعظة.

لذلك ذكر النبي (ص) المشركين بأن الله يعلم إن كلامهم باطل و هم بدورهم يعلمون ذلك ، فلماذا يتحدثون به ؟ ثم إن رسولهم الذي جاء بالذكر هو أول من يحذر ربه ، لأنه يعرف أنه يعلم القول في السماء و الأرض ، فكيف يمكن أن يفتري عليه و هو الشاهد الناظر ؟

] [5]بل قالوا أضغاث أحلام[

أي أحلام مختلطة ببعضها .

]بل افتراه[

إن كلامه معقول ، و لكنه كاذب في ادعائه أنه وحي من الله.

]بل هو شاعر[

ولما رأوا إن كلامه عميق وذو أثر قالوا : إنه شاعر ! لأن الشعر أعلى درجات الثقافة لديهم . هكذا كان حديثهم عن الرسالة متناقضا ينبىء عن حيرة كبيرة ، منشؤها عدم إستعدادهم للإيمان بها ، و تحمل مسؤولياتها ، و ترك ما تعودوا عليه ، كذلك الانسان حينما يقرررفض مذهب أو موقف يتشبث بأعذار واهية و ربما متناقضة.

ثم قالوا:

]فلياتنا بآية كما أرسل الأولون[

ومن الممكن أن نؤمن ، لكن على شرط أن ياتينا بايات جديدة ، و إن آيات الله التي تنزل على البشر نوعان:

النوع الأول : هي التي تأتي لإثارة العقل و بيان الحجة من قبيل الآيات القرآنية التي تأتي في زمان الفرصة و في أيام الأجل ، أما النوع الثاني : فهي التي تأتي لتفرض على الانسان الحق شاء أم أبى و إنما تكون هذه بعد انتهاء الأجل ، ففرعون كان يقول : أنا ربكم الأعلى ، و حينما غرق في البحر و تقاذفته الأمواج ، قال : آمنت برب هارون و موسى ، و لكن هذا الإيمان مرفوض لأنه جاء بعد فوات الأوان.

وهؤلاء حينما يطالبون بهبوط الآيات الحسية عليهم ، فانهم يخطؤون في ذلك ! لأن هذه الآيات إذا جاءت فان فرصتهم تكون قد انتهت ، و لن يكون في مقدورهم الاستفادة منها شيئا.

] [6]ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها[

أي حينما أنزلت عليهم الآية أهلكت هذه القرية ، لتصبح عبرة للأجيال.

]أفهم يؤمنون[

إن هؤلاء ينتظرون أن تنزل عليهم آية من نوع آيات القرى الهالكة ، ليؤمنوا بالرسالة ، في حين إنهم يرفضون الإيمان بالآيات العقلية الكثيرة ، و هذا خطأ فادح لأن في ذلك يكون هلاكهم.

حقيقة الرسل:

] [7]و ما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم[

لما زعموا بأنه بشر أجابهم القرآن بلى إنه لبشر ، و كذلك كل الأنبياء السابقين كانوا بشرا.

]فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[

لقد أعطى الله سبحانه الجاهل قدرا كافيا من العلم ليهديه الى ضرورة البحث عن عالم يسأله ، و هكذا فان لم يكن للناس علم بطبيعة الرسالات فليسألوا أهل الذكر و المعرفة عن كل ذلك ، و الآية تشير الى إن سؤال الجاهل من العالم أصل شرعي يمكن الاعتماد عليه بشرطان يكون العالم من أهل الذكر ، اي أن يكون قد استفاد من علمه.

] [9 - 8]و ما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء و أهلكنا المسرفين]مع ذلك نحـن نؤكد لكم : بأن الأنبياء متصلون بالله ، و إن كلامهم وعد من الله ، و أن الله سبحانه و تعالى ينفذ ما قال ، و ينجي رسله و يهلك الآخرين.

و تتكرر في القرآن الكريم كلمة الاسراف بصيغ مختلفة لتدلل على حقيقة يجب أن نتذكرها دائما و نتأمل فيها كثيرا و هي : إن الاسراف هو أحد الأسباب الرئيسية لانحراف البشر ، فالانسان الذي يأكل و يشرب و ينام و يتزوج بقدر حاجته ، لا ينحرف لأن الله دائما يوفرللانسان رزقه ، و لكن الذي يضل عن الصراط هو المسرف الذي يريد أن يجمع أموال الناس الى أمواله ، و يبني سعادته على حساب الآخرين ، و القرآن يؤكد هنا : بأن الذين يهلكون إنما هم المسرفون.

دور القرآن:

] [10]لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم[

القرآن ياتي لينبه الانسان عن تلك الغفلة التي تفصل بينه و بين الحساب ، ولا تدعه يتذكر أنه مسؤول محاسب وأن حسابه قريب.

إذا كلما رأيت نفسك غافلا فاقرأ القرآن ، لأن قراءة القرآن تعطيك ذكرا ، و توجهك الى الحقيقة.

]أفلا تعقلون[

القرآن لا يقول أليس عندكم عقل ، لماذا ؟ لأن الناس جميعا رزقوا العقل ، و لكنهم يختلفون في مدى إستفادتهم من عقولهم ، و هو التعقل ، كما إن الناس جميعا يملكون الأبصار ، و لكن بعضهم يفتحون أعينهم فيرون ، و بعضهم يذهلون عنها فينزلقون ، لذلك يقول القرآن: " أفلا تعقلون " أي لماذا لا تنتفعون بعقولكم ؟

إن الانسان يبحث في حياته عن هدى و يبحث عن الوصول إلى الحقيقة فاذا قرأ القرآن بعمق و تدبر فيه وصل إلى الحقيقة ، فاذا وصل إلى الحقيقة عرف بأن القرآن من الله ، لأنه أوصله إلى الحقيقة.

هدفية الحياة

هدى من الآيات

يتحدث القرآن هنا عن الجزاء الذي ينتظر الانسان اللامسؤول الذي اتخذ الحياة لهوا و لعبا ، و حين يحل العذاب فلن يفلح كل من يحاول الهرب منه لأن حكومة الله لا يستطيع الفرار منها أحد ، و يأتي النداء الى هؤلاء بأن عودوا الى تلك الأسباب التي دعتكم الى الذنب ، فانظروا هل إنها تشفع لكم اليوم شيئا ؟ و هل تنفعكم الأموال التي كنزتموها و الأولاد الذين من أجلهم تركتم عبادة الله و .. و .. ؟؟

إن هذا اليوم كان نتيجة اللاأبالية و اللاجدية في الحياة ، و كما يقول القرآن الحكيم : إن نظام الكون قائم على الحق و ليس على اللعب و اللهو.

إن الكون الذي تعيش فيه - أيها الانسان - و تخضع لقوانينه و سننه ، أنشأه الله بعلمه و قدرته للحق فكيف تريد بالرغم من ضعفك و ضآلتك ، أن تخرج من دائرة الحق الى دائرة اللهو و اللعب ؟! إن ذلك شيء محال!!

يؤكد القرآن الحكيم هذه الفكرة مرة أخرى فيخبرنا : كما إن السماء و الأرض خلقتا بحق و ليس بلعب ، فكذلك المجتمعات ، و لذلك فان السنن الحاكمة فيها هي سنن الحق ، و هذه السنن يجب أن تحكم المجتمعات كما تحكم في الأرض و السماوات و لكن بفارق واحد و هو : إنهاتحكم في السماوات و الأرض بصورة مباشرة و فورية و لكنها تحكم في المجتمعات بصورة غير مباشرة بعد إعطاء الفرصة ، و تقديم الانذار ، و بعد محاولة هداية و إصلاح ، و هذه نعمة كبيرة من الله ، فلو كان الانسان يحاسب على كل خطأ فورا و بدون إعطاء أي فرصة للتوبة ،لتحولت حياته إلى جحيم.

و لكن إعطاء الفرصة شيء ، و تطبيق الحق شيء آخر ، فليس معنى إعطاء الفرصة إن الله سبحانه قد نسي الحق الذي فطر عليه السماوات و الأرض ، و جعله محورا للخليقة جميعا ، بل إن الله لا يزال ينصر الحق ، و سوف يطبقه و يدمغ به الباطل.

إن أي شيء ينحرف عن سنة الحياة ، سرعان ما ينتهي و يتلاشى .إذن يجب علينا أن نتمحور حول الحق كما يقرره القرآن الحكيم بأن الحق هو عبادة الله و عدم إشراك أحد معه في إلوهيته ، فكما إن الملائكة و الأرواح و السماوات و الأرضين كلها تعبد الله و تخضع له كذلك الانسان.

و هناك فكرة أخرى توحي بها هذه الآيات وهي : إن ألإيمان الصادق هو الإيمان بان محور الكون هو الحق ، فالكون جد لا لعب ولا لهو فيه ، و هذا الإيمان هو ضمان لاثارة إحساس الانسان بالمسؤولية في حياته الدنيا ، كما إن اللهو و اللعب هما عدوا إحساس الانسان بمسؤوليته.

بينات من الآيات
جزاء الظلم

] [11]و كم قصمنا من قرية كانت ظالمة و أنشأنا بعدها قوما آخرين[

إن نعم الله التي تحوطنا قد توحي إلينا بفكرة خاطئة وهي : بما إن الله أرحم الراحمين فهو لن يعذب أحدا . ولكي ننسف هذه الفكرة ، و نقتلع جذورها من أنفسنا لابد لنا من قراءة التأريخ ، و السير في الأرض لنرى آثار الماضين كيف انتهوا و كيف جاءهم عذاب الله ،فان الله سبحانه و تعالى قد قصم كثيرا من القرى و دمرها بظلمها لانها رفضت أن تؤمن بالحق و تنصاع له ، فالقضية - إذا - جدية ، و ما ينذرنا الله به قد وقع فعلا بالنسبة لمن سبقونا ، لذلك ينبغي أن نخاف فلا نألوا جهدا عن مواجهة هذا المصير السيء.

و نلاحظ في هذه الآية لفتة لطيفة في التعبير القرآني ، حيث يقول : " وكم قصمنا من قرية " ، ثم يقول : " وأنشأنا بعدها قوما آخرين " ، فلماذا لا يقول القرآن و كم قصمنا من قوم و أنشأنا بعدهم قوما آخرين ؟ أو وكم قصمنا من قرية و أنشأنابعدها قرى أخرى ؟؟

و الجواب هو حينما يقصم الله سبحانه و تعالى قرية فانه لا يهلك أهلها فقط ، و يترك العمارات و الشوارع و المصانع سالمة ، و انما يدمر كل شيء فيها ، مرة واحدة ، و حينما ينشىء قوما آخرين فانه لا ينشىء معهم قراهم ، و معابدهم و مصانعهم ، بل يخلقهم ، وبعد ذلك يقول لهم : اسعوا في الأرض أي اصنعوا حضارتكم بأنفسكم ، فهم المسؤولون عن بناء البيوت و الشوارع و تأسيس المصانع.

] [12]فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون[

إن إرهاصات غضب الله عليهم كانت قائمة ، و لكنهم تغافلوا عنها ، و لو أنهم تحسسوا بها و تابوا الى الله قبل نزول البأس و العذاب لقبلت توبتهم ، مثلما قبلت توبة قوم يونس (ع) ، و لكنهم بقوا على حالتهم حتى أحسوا بأس الله و لمسوه لمسا ، آنئذ قاموا يركضون ،و ظنوا أن الهرب ينفعهم.

] [13]لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه[

إلى أين تركض أيها الظالم ؟! لماذا تخرج من قريتك التي عمرتها و الزينة التي جمعتها ؟ إرجع و ابق هناك حتى نهدم بيتك على رأسك ، و عندما نفجر مصنعك نفجره و انت فيه ، و عندما ننسف بيتك ننسفه معك.

و لعل الآية تشير الى إن الركض لا ينفع ، كما إن كلمة " لعلكم تسألون " في ذيل الآية ربما توحي بالسؤال الشائع من الأطلال و بقية آثار الشعوب ، و كأنهم بعد الدمار يتحولون الى عبرة للأجيال القادمة حيث يقفون على ديارهم و يسألونهم : أين حضارتكمالتي اترفتم فيها ، أين مساكنكم التي اطمأننتم إليها ؟! كما جاء في رائعة منسوبة الى الامام علي عليه السلام:

ناداهم سائل من بعد دفنهم أين الأسرة و التيجان و الحللأين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار و الكللفأفصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود ينتقلو السؤال هو : من يناديهم بهذا النداء ؟ و الجواب : إنه واقع حالهم - كما يبدو لي - ، و كأن كل من اطلع على وضعهم ناداهم بهذا النداء.

و يظهر أن الآية توحي أيضا بفكرة هامة هي:

إن أي بشر يظلم نفسه أو يظلم الآخرين إغترارا بعامل مادي ، فان العذاب سوف يأتيه إنطلاقا من ذلك العامل نفسه . فمثلا قوم فرعون كانوا معجبين بالمياه المتدفقة عبر النيل ، حتى إنهم كانوا يعبدون الماء ، و كانوا يختارون في أول الربيع أجمل فتاة عندهم فيلقونها في نهر النيل قربانا لهذا الإله ، و كان فرعون يقول : " و هذه الأنهار تجري من تحي " ، فانتقم الله منهم إنطلاقا من ذلك الماء نفسه حيث أغرقهم فيه.

و قوم عاد كانوا يفتخرون بالبيوت الصخرية و كانوا ينحتون من الجبال بيوتا و يتصورون إن تلك البيوت سوف

تخلدهم و تمنع عنهم البأس ، فبعث الله سبحانه و تعالى إليهم برياح كانت تحطم هذه الصخور و تهدمها عليهم ، و هكذا غيرهم . فيكون معنى " وارجعوا الى ما اترفتم فيه " ارجعوا الى تلك النعم التي بسببها انحرفتم و ضللتم لكي تروها و هي تتحول عليكم نقمة.

]و مساكنكم لعلكم تسألون[

قبل أن ينحرف الانسان ، و يظلم الآخرين من أجل الحصول على متاع الدنيا و حطامها ، عليه أن يسأل نفسه أولا : هل أن هذه الأشياء ستنفعه يوم الجزاء ، و هل سترفع عنه العذاب عندما يقع ؟! و بعد أن يفكر في الأمر جيدا ، عليه أن يفعل ما يشاء و يتحمل المسؤولية في كل أعماله و تصرفاته.

] [14]قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين[

] [15]لقد اعترفوا بخطئهم و ظلمهم و لكن الاعتراف جاء متأخرا ! حيث استمروا ينادون على أنفسهم بالويل حتى لحظة النهاية.

]فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين[

لقد حصدهم العذاب حصدا كما تحصد المكائن الزراعية الضخمة السنابل ، فلم تقم هناك لأحد منهم قائمة ، ثم خمدوا كما تخمد الجمرة فلا حرارة ولا حركة.

هدفية الخلق

[16]لماذا ياإلهي فعلت هذا ؟! أليس هؤلاء عبادك ؟! أو لست أرحم الراحمين ؟! بلى ربنا أرحم الراحمين ولكنه خلق السماوات و الأرض بالحق ، و هؤلاء تجاوزوا قيم الحق.

]وما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما لاعبين[

إن هؤلاء اتخذوا الحياة لعبا فكان هذا مصيرهم.

] [17]لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين]إن كانت الخليقة بلا هدف ، فان الله كان ينتزع منها الهدفية ، و يتخذها لهوا ، أي يجعلها بلا غايات مرسومة ، ولا سنن دائمة ، ولا قوانين دقيقة تفرض على أصغر جزيئة في الذرة بنفس الصرامة التي تفرض على أعظم مجرة في القضاء.

و حيث نرى كل شيء يسعى نحو هدفه ، أو بتعبير أفضل يسير الى غايته ، فهل من المعقول أن يكون خلق الانسان عبثا ، وبلا هدف " أفحسبتم انما خلقناكم عبثا و انكم إلينا لا ترجعون " ؟

كلا .. أنت بدورك تخضع لقانون الهدف ، و بالتالي لمعادلة المسؤولية و الجزاء.

وفي معنى الآية أقوال شتى إلا إن هذا المعنى العام يمكن أن يستوحي من كل تلك الأقوال.

] [18]بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون [وهذه هي سنة الله الثابتة في الكون على مر العصور و الدهور ، و على الانسان أن يبني حياته على أساس ، إذا أراد أن يفوز و يحقق أهدافه و يتجنب مصارع الردى و ينجو من العذاب المحتوم.

و كلمات الآية صاعقة شديدة الوقع نافذة الى عمق الضمير ، فالحق يقذف (يرمي بقوة و ربما من مكان بعيد و قد يتأخر قليلا ليقطع المسافة و لكنه يصل حتما) ، ثم إنه يهدف أم الرأس حيث الدماغ ، و يتلاشى الباطل و يضمحل فلا يبقى منه شيء أبدا.

و الآية تبصرنا بواقع الخليقة و الأنظمة السائدة عليها ، و توحي إلينا بضرورة تزكية أنفسنا من خلال معرفة تلك الأنظمة ، فقانون الجاذبية الذي يسقط به الحجر من عل ، ليس بأقوى من قانون سقوط الظالم من كرسي الحكم!

] [19]وله من في السماوات و الأرض و من عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون]هذا الحق يجب أن يتجسد في واقع السلوك البشري ، كما تجسد في واقع سلوك الملائكة و سلوك عباد الله الصالحين ، الذين لا يستكبرون عن عبادته و يفعلون ما يؤمرون.

] [20]يسبحون الليل و النهار لا يفترون[

الحياة يجب أن تكون جدية ، و يجب أن يسبح الانسان ربه دونما تعب أو استكبار .

لا للتبرير .. نعم لتحمل المسؤولية

هدى من الآيات

ما أبهض ثقل المسؤولية على قلب البشر ، يكاد فؤاده يتصدع حين يعلم إنه لمسؤول ، أمام خالق السماوات و الأرض لا يخفى عليه شيء في السماء و الأرض.

و كذلك تراه يبحث عما يخفف عنه هذا الثقل الباهض ، و ينجيه - بزعمه - من سؤال بارئه.

و يفند السياق القرآني - في إطار تحسيسه بواقع المسؤولية - هذا الزعم ، و يقول : هل الآلهة تنشر الموتى ؟ أولا يعلمون أن لو كان في السماوات و الأرض آلهة إلا الله لفسدتا و تفطرتا ؟ تقدس رب العرش عما يصف المشركون ، إنه فوق التأثر بخلقه ، فهم يسألون عن افعالهم ، و هو لا يسأل عما يفعل . ثم يطالبهم بالبرهان ، و يؤكد إن كل الرسالات الالهية تتفق على كلمة التوحيد ، وان شرك هؤلاء نابع من إعراضهم عن الحق.

وربما زعموا إن الملائكة الأشداد هم أولاد الله ، أو لا يعلمون إنهم عباد مكرمون (مقربون الى الله و هذا سر قدرتهم) ، وانهم لا يظهرون رأيهم بل يطيعون أمر ربهم ، و ان الله تعالى محيط بهم علما ، وانهم لا يشفعون إلا باذنه ، و انهم يخشون ربهم ؟ فكيف يعارضونه ؟ و انهم مجزيون على أعمالهم ، فلو قال أحدهم إفكا إنه إله من دون الله يجزيه ربه جهنم كما يجزي سائر الظالمين.

بينات من الآيات

[21]من العوامل التي تبعد الانسان عن إحساسه بالمسؤولية و تعطيه مبررا لتنصله عنها في الحياة هو الاعتقاد بإله غير الله ، أنى كانت صورة ذلك الاله ، و أنى كان إسمه.

بل إن تعلق الانسان بأي شيء تعلقا ذاتيا بعيدا عن الله ، يدعوه الى أن يتقرب الى ذلك الشيء و يجعله واسطة بينه و بين الله في زعمه ، لا لشيء إلا لكي يتخلص من ثقل المسؤولية ، ذلك لأنه من الصعب جدا على الانسان الاحساس بانه مسؤول أمام قوة قاهرة عليمة حكيمة محيطة به ، تجازيه على كل صغيرة و كبيرة تبدر منه ، لذلك فهو يحاول - جهده -أن يتهرب من هذه المسؤولية ، و لولا إحساس المؤمنين برحمة الله لما استطاع أي منهم ان يتحمل ضغط المسؤولية على قلبه.

و القرآن الحكيم يؤكد - المرة تلو الأخرى - على عدم وجود اي شيء أو شخص يمكنه أن يقف أمام قدرة الله ، و ذلك لكي يواجه الانسان ربه عاريا عن كل التبريرات و الحجج الواهية ، و بالتالي يصبح جديا في حياته ، و يترك اللهو و اللعب ، و من ثم يتحمل هذا الحمل العظيم و هو امانة المسؤولية التي أبت السماوات و الأرض و الجبال أن يحملنها ، و حملها الانسان ، إنه كان ظلوما جهولا.

و تؤكد هذه الآية إن الاله الحقيقي هو الذي يستطيع أن يحيي الأموات ، فهل هذه الآلهة المزعومة تستطيع ذلك ؟ أم هل يقدر أحد ان يدعي ذلك ؟ كلا بل تراهم يعترفون في لحظات الحاجة ، عن مدى ضعفهم و استكانتهم ، حتى إن نمرود الذي ادعى - مرة - إنه يحيي و يميت ،إنهار عندما رأى النيران الملتهبة - التي عمل جلاوزته المستحيل من أجل تأجيجها و تهيئتها لحرق شخص و احد - قد خمدت و تحولت الى برد و سلام على إبراهيم ، فقال : من أراد أن يتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبراهيم ، و كذلك بهت حينما حاج إبراهيم في ربه ، و ذلك عندماقال له : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فات به من المغرب.

كل شيء في السماء و الأرض من أصغر شيء الى أكبر شيء ، دليل على وحدة الربوبية في الوجود ، حيث إن الانسجام و التناغم الدقيق الذي نراه فيما بين الأنظمة المختلفة التي تحكم الكون دليل وجود مدبر له ، فالنظام الذي يدير أضخم المجرات هو نفس النظام الذي يديرالذرة الصغيرة المتواضعة.

يقــول الامام علي (ع) : " ما دلتك الدلالة إلا على إن فاطر النملة هو فاطر النخلة " ، بلى لأن النظام الذي يحكم الدورة الحياتية في جسد النملة هو نفس النظام الذي يحكم إنتقال الماء و الهواء و الأملاح في هيكل النخلة.

]أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون[

و هكذا تبين هذه الأية فكرة و حدانية الله سبحانه و تعالى ، في حياتنا العملية و قد سبق أن قلنا : إن توحيد الله سبحانه و تعالى ، توحيدا حقيقيا هو أحد أبرز العوامل التي تساعد الانسان على تحمل المسؤولية في الحياة ، و هو ما تسعى الى ترسيخه سورة الأنبياء، كما إن الاعتقاد بآلهة من دون الله هو أحد أبرز التبريرات التي تحول دون تحمل المسؤولية.

] [22]لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[

لو كان في السماوات و الأرض آلهة غير الله سبحانه و تعالى ، إذا لاضطرب النظام فيهما ، لأن تعدد السلطة يسبب فساد المملكة و اختلال أمورها ، جاء في حديث نجده في كتاب التوحيد باسناده إلى هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله (ع) و كان من قول أبيعبد الله له : " لا يخلو قولك :إنهما إثنان من أن يكونا قديمين قويين أو يكونا ضعيفين أو يكون أحدهما قويا و الآخر ضعيفا ، فإن كانا قويين فلم لا يدفع واحد منهما صاحبه و ينفرد بالتدبير ، و إن زعمت إن أحدهما قوي و الآخر ضعيف ثبت إنه واحد كما نقول ، للعجز الظاهر في الثاني ، و إن قلت : إنهما إثنان لا يخلو من أن يكونا متفقين من كل جهة أو متفرقين من كل جهة ، فلما رأينا الخلق منتظما ، و الفلك جاريا ، و اختلاف الليل و النهار و الشمس و القمر دل صحة الأمر و التدبير و ائتلاف الأمر إن المدبر واحد ، ثميلزمك إن ادعيت إثنين فلابد من فرجة بينهما حتى يكونا إثنين ، فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما ، فيلزمك ثلاثة ، فان ادعيت ثلاثة لزمك ما قلنا في الاثنين حتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسا ، ثم يتناهى في العدد الى مالا نهاية في الكثرة " . (١(

هذا من الناحية العقلية ، أما من الناحية النفسية فان فكرة تعدد الآلهة جاءت لتعكس حالة التبرير و الصراع عند البشر ، ذلك إن الأساطير التي تتحدث عن تعدد الآلهة وإن كانت خرافة و بعيدة عن الحق و الحقيقة إلا إنها تمثل إنعكاسا لنفسية واضعيها و المعتقدين بها ، لذلك فباستطاعتنا أن نكتشف من خلالها طبيعة البشر عبر(١) نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤١٧ - ٤١٨.

الآزمنة المختلفة ، و نصل الى قناعة بأنه و إن تغيرت صورة الانسان و أشكال حياته فان طبيعته لم و لن تتغير.

و الأساطير دائما تقص علينا قصص الآلهة المزعومة و هي تقاتل بعضها أو لا أقل تتنافس مع بعضها في السلطة و تقر بأن كل إله له تفكير و إرادة يختلف تماما عن شركائه الآخرين.

مثلا يزعم المجوس و جود إلهين كبيرين هما) : أهور مردا) إله الخير و (أهريمــن) إله الشر ، (أهريمن) هذا خلق الشر ، فخلق (أهور مردا) الخير مضادا له ، و الصراع قائما بينهما . وفي بعض المذاهب المسيحية المنحرفة نرى هذه الأسطورة أيضا ، و هي إن الأب يريد أن يعذب الناس ، فيأتي الإبن و يشفع لهم رغما عن أبيه!

و في الأساطير اليونانية القديمة كثيرا ما نقرأ عن معارك طاحنة تجري بين الآلهة في السماء . ومن هنا نعرف إن فكرة تعدد الآلهة نابعة من حالة الفرار عن المسؤولية و البحث عن ملجأ موهوم يخلص الفرد من ثقل الجزاء ، و إن الزعم بتعدد الآلهة يعكس حالة الصراع الداخلي بين الشهوات و العقل و يأتي لتبرير الشهوات التي تأمر بها النفس الأمارة أمام العقل الناهي عنها أو النفس اللوامة.

إن كل ذلك دليل على إنه إذا كان الآلهة متسالمين مع بعضهم البعض إذا لم تكن هذه الحاجة المزعومة الى الآلهة المتعددة ، لان إحتياج الانسان المزعوم للاعتقاد بتعدد الآلهة ينعدم آنئذ.

لذلك نـرى القـرآن الحكيم يبين بأن فكرة تعدد الآلهة المنعكسة عن تناقض الذات ، و التي تعتقد بأن في السماوات و الأرضين آلهة متصارعة إنما هي فكرة خاطئة لأن وجود سلطات متصارعة في الكون يؤدي لفساد و اختلال نظام الموجودات.

]فسبحان الله رب العرش عما يصفون[

رب العرش رمز لاله السماوات و الأرض و كل شيء ، و العرش يعني القدرة و الهيمنة ، و ليس هو مكان يجلس عليه ربنا سبحانه و تعالى ، و لعل هذه الخاتمة البليغة توحي بأن عدم معرفة الله هو السبب لتصور شريك له ، إذ أن الزعم بوجود شريك للرب دليل على جهل صاحبه بأن الله سبحانه هو الملك الجبار الذي لا يغلب سلطانه ، ولا يمكن الفرار من حكومته.

[23]و دليل قدرة الله المطلقة و سلطانه الشامل العظيم إنه فوق السؤال ، و إنه لا احد يخرج عن إطار المسؤولية أمامه:

]لا يسأل عما يفعل و هم يسألون[

] [24]أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم[

كما إننا نأتي بالبرهان و الدليل على إلوهية الله ، فعليكم أيها المشركون أن تأتوا ببرهان و دليل على إلوهية آلهتكم . و إن هذه الآية توحي بفكرة هامة وهي : إن الذين يدعون وجود إله غير الله سبحانه و تعالى ، إنما يزعمون ذلك إنطلاقا من أهواء نفسية يبررونها عدم إلتزامهم بمسؤولياتهم أمام الله ، فاذا طالبتم ببرهان عقلي أو حجة منطقية فسيعجزون عن ذلك و تتبخر دعاويهم ، حيث لا تصمد ظلمات أنفسهم أمام وهج الحقيقة.

]هذا ذكر من معى و ذكر من قبلى[

هذه ليست فكرة جديدة موضوعة في رسالة السماء ، فكل الرسالات الالهية تؤكد على وحدانية الله.

و من عوامل الضلالة النفسية ، إحساس الانسان بضرورة التوافق الاجتماعي ، و القـرآن الحكيم يذكرنا هنا - وفي آيات عديدة - بأن كثرة الضالين ليست دليل صدقهم ، بل الحق المدعم بالبرهان العلمي هو المقياس..

]بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون[

[25]واذا كان الناس في بلد (مثل مكة يوم نزلت فيها هذه الآيات) يشركون بالله ، فان هؤلاء هم خط الضلالة ، وفي مقابلهم صراط الهدى اقدر و أعمق جذورا.

]وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه إله إلا أنا فاعبدون]إن رسالات الله لا تختلف في فكرة التوحيد ، و ما نراه في بعض الديانات من تعدد الآلهة إنما هو نتيجة التشويه ، و التحريف الذي طرأ عليها، و إلا فان اليهودية الحقيقية و المسيحية الأصيلة و كل ما سبقها من الديانات إنما هي كالإسلام تدعو الى توحيد الله ، وعدم عبادة غيره بأي حال من الأحوال ، و بأية صورة من الصور ، و سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

شفاعة الرسل

] [26]و قالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون[

هنــاك أناس طيبون صالحون ، و لكن هؤلاء ليسوا أولادا لله ، إنما هو عباد الله ، وإن صفتهم الوحيدة هي صفة الكرامة من الله ، فلا تتصور - أيها الانسان - ! أن يأتي أحد من هؤلاء يوم القيامة لينقذك من عذاب الله إذا كنت اسخطته في حياتك.

] [27]لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون[

عباد الله لا يقولون الكلام الذي لا يقوله الله ، فهم امتداد لرسالة الله و سلطته لذلك فانهم لا يشكلون تناقضا مع إلوهية الله و سلطته المطلقة.

] [28]يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى]في بعض الحكومات الفاسدة ، تفرض السلطة قانونا ما ، ولكن اي متلاعب يستطيع خرق هذا القانون بأن يضع مبلغا من المال في يد احد المسؤولين ، فيساعده على مخالفة هذا القانون و الالتفاف حوله.

ولكن الانسان لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك أمام الله و سننه ، فملائكة الله و عباده المكرمون لا يأخذون الرشوة ، ولا يحاولون ان يفعلوا أي شيء خارج نطاق مشيئة الله سبحانه.

]و هم من خشيته مشفقون[

الرسل و الملائكة هم بدورهم يخافون الله ، و يعرفون إنه محيط بهم فكيف يشفعون لأحد و يدخلونه الجنة من دون أمر الله و علمه ؟!

جاء حديــث مأثــور عــن النبــي (ص) فــي ذكــر ما رأى فــي المعراج و فيه قال (ص: (

"ثم امررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل خلقهم الله كيف شاء ، و وضع وجوههم كيف شاء ، ليس شيء من اطباق اجسادهم إلا وهو يسبح الله و يحمده من كل ناحية بأصوات مختلفة ، أصواتهم مرتفعة بالتحميد و البكاء من خشية الله ، فسألت جبرئيل عنهم فقال : كماترى خلقوا ، إن الملك منهم الى جنب صاحبه ، ما كلمه قط ، ولا رفعوا رؤوسهم الى ما فوقها ، ولا خفضوها الى ما تحتها ، خوفا و خشوعا ، فسلمت عليهم فردوا علي إيماء برؤوسهم ولا ينظرون إلي من الخشوع ، فقال لهم جبرئيل : هذا محمد نبي الرحمة ارسله الله الى العبادرسولا و نبيا ، وهو خاتم النبيين و سيدهم أفلا تكلموه ؟ قال : فلما سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا علي بالسلام و أكرموني و بشروني بالخير لي ولأمتي " (١)إذا لتسقط كل التبريرات السخيفة التي يحاول بها الانسان تبرير تنصله من مسؤوليات أفعاله في الدينا ، و ليبقى عاريا أمام أعماله ، وآنئذ فقط يصلح عمله و تزكو نفسه.

[29]إن اولئك الذين لهم ميزة في الحياة من عباد الله الصالحين ، إنما هم مكرمون بعبادتهم لله و خضوعهم لحاكميته المطلقة ، ولو قال أحد منهم بأني إله من دون الله للقي مصير الظالمين.

]ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين]فلا يمكن إذن أن نتوسل بآلهة أخرى لتنقذنا من عذاب الله ، و هكذا يهدم القرآن فكرة الأصنام التي يتشبث بها الانسان لكي يبعد نفسه عن المسؤولية ومن ثم الجزاء.

(1)نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤١٧.

كل شيء يقول : الحياة جد لا لعب

هدى من الآيات

توحي آيات هذا الدرس ، بأن الحياة كلها مبنية على أساس الحق ، و بحكمة بالغة ، و لغاية محدودة ، و نظرة واحدة من الانسان لما حوله من المخلوقات كافية لاقناعــه بأن لكل شيء هدفا لا يشذ عن ذلك مخلوق ابدا ، و ان كل شيء بقدر و حساب ، فالجبال الراسيات لها هدف ، و كذلك سقف السماء ، و لو تمعنا قليلا لوجدنا الشمس و القمر يسبحان في فلك معلوم و يسيران نحو هدف محدد و بصورة منتظمة .

و على الانــسـان أن يبحث عن فلكه (وهو الحق) وان يسير ضمنه لا يحيد عنه ، ولا يتأتى ذلك إلا حين يعود البشر الى فطرته ، و يتفكر فيما حوله ، ليرى : إن وراء هذا الخلق تقديرا و تدبيرا دقيقين ، وهذا التفكير يقودنا الى الحق الذي يجب ان نتمحور حوله ، و بالمسؤولية التي تنعكس من خلاله على أنفسنا ، إذ مادام هناك حق فأنتمسؤول أمامه ، ولابد أن تسير في حياتك باتجاهه.

و يبين لنا القرآن في هذه الآيات بأن بداية الانسان تمت بحق ، و نهايته كذلك حق ، فهل يستطيع أن يهرب من الموت أحد ؟؟ و مادامت البداية و النهاية ليستا بيد الانسان ، فاستمرارها كذلك ليس بيده . إذن فلابد أن يتكيف مع الحق ، و ذلك عبر الجدية في تحمل المسؤولية.

بينات من الآيات

] [30]أو لم ير الذين كفروا أن السموات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما[

أي كانتا متصلتين ففصلهما الله عن بعضهما ، كيف كانت السماوات و الأرض متصلة ففصلت ، (رتقا ثم فتقا) ؟

و الجواب:

أولا :لقد كانت المادة الأولى التي خلقها الله سبحانه ، و كان عليها عرش قدرته و سلطانه ، ذات كتلة شديدة التركيز ، فأحدث الرب فيها انفجارا هائلا ، لا يزال صداه منتشرا في أطراف الفضاء برغم مرور (١٥) مليار سنة عليه . كما تقول نظريات العلم الحديث ، وتضيف : إن الكون لا يزال في اتساع ، ولا تزال أجهزة التلسكوب التي تغور بنا في عمق الفضاء الرحيب ، تكشف لنا عن مجرات ناشئة أو هي في طور الخلق.

وإن نظرة علمية الى هذه الحقائق كفيلة بأن تبلور في نفوسنا فطرة الإيمان.

ثانيا :وآية واضحة من تجليات هذه الحقيقة ، نراها في ظاهرة الأمطار ، كيف كانت السماء رتقا لا تمطر و كيف كانت الأرض رتقا لا تنبت ففتقهما الرب(1) . وهكذا يخرج الله الخبء في السماوات و الأرض ، و يفتق ما رتق من الأشياء باستخراج كنوزها ، و استظهار مكنونها ، سبحانه.

إذن فالحياة ليست لعبا ولا لهوا كما يزعمون ، بل لكل شيء هدف ، و على الانسان أن يشخص هدفه و يسعى نحوه.

]و جعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون[

لقد تم خلق الكون بالفتق بعد الرتق ، و الفصل بعد الوصل ، أما وجود الحياة فوق الأرض فتم عن طريق الماء ، و هذه هي الأخرى من أحدث النظريات العلمية ، و الماء يشكل (٧٠%) من وجود الانسان ، و بالذات من وجود المخ الذي تتجلى فيه الحياة بأبرز صورها.

] [31]و جعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم[

تقوم الجبال بدور الرواسي و هي الثقل الذي يثبت الأرض كما تثبت المرساة السفينة.

إن الجبال أشبه ما تكون بدرع واقية ، تلف حول الأرض ومن أعماقها لتحافظ على توازنها:

أولا : في مواجهة الرياح و العواصف التي تتعرض لها الأرض.

ثانيا : بمقاومة الزلازل العاتية التي يتعرض لها كوكبنا بسبب ضغط الغازات التي في جوفها.

(1)انظر نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٢٤ - ٤٢٦.

ثالثا : لتخفيف أثر جاذبية القمر على اليابسة كما تؤثر على مياه البحر.

أرأيت كيف وضع الله هذه الجبال في مواقعها ، و كيف ربطها ببعضها في دقة و متانة ، و كيف ألزمها مواضعها ؟ فهل لك أن تختار لنفسك اللعب و اللهو .. و تزعم أن لا هدف وراء حياتك ؟

]وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون[

و بين هذه الجبال طرق يتحرك الناس عبرها من مكان لمكان ، و يتفاعل أهل كل طرف مع الآخرين ، و لهذه الطرق فائدتان:

الاولى : الاهتداء من خلالها الى الأهداف و الأماكن التي ينشدها الانسان.

الثانية :السير عبرها و الاهتداء بها الى معرفة الله عن طريق التفكر في الجبال التي تحفها . و كلمة " لعلهم يهتدون " تحتمل المعنيين معا.

] [32]و جعلنا السماء سقفا محفوظا[

حينما ننظر الى السماء سواء نظرة بدائية كما كان ينظر إليها آباؤنا قبل ألف عام ، أو نظرة علمية كما يراها العالم الفلكي اليوم ، فاننا نرى الأجرام الكثيرة تسبح فيها صغيرة و كبيرة ، وبعضها ذو خطر علينا فمن الذي حفظنا من هذه الأخطار ؟!

إن البدوي في الصحراء عندما يرى النيران في السماء ليلا يسميها شهبا ، أما عالم الفلك فيعرف بانها قذائف ضخمة ، لولا الغلاف الواقي حول الأرض لدمرت الأرض تدميرا ، فمن الذي جعل السماء سقفا محفوظا غير الله ؟!

ففي كل يوم يتوجه عشرون مليون جرم الى الأرض بسرعة خاطفة ، تبلغ حوالي (٥٠) كيلو مترا في الثانية ، و لولا السقف المحفوظ الذي يحيط بالأرض لكانت الصخرة الصغيرة منها و التي تبلغ حجمها واحد من ألف جزء من الغرام ، ذات أثر هدام بسبب سرعتها الفائقة التي تبلغ سرعة نواة القنبلة الذرية ، كيف وان بعضها يبلغ قطرها عشرات الكيلو مترات ؟!

و لقد حفظ الله - برحمته - الكرة الارضية منها بالغلاف الواقي المكون من الغازات التي تذوب أو تبخر ما يصل إليها من هذه الأجرام الخطيرة.

كما تتعرض الأرض لأمواج هائلة من الأشعة المضرة ، سواء منها تلك التي تبعثها الشمس أو تقذفها النجوم الأخرى ، فيقوم الغلاف الواقي بدور المصفاة حيث تأذن لما ينفع منها الأرض بالمرور من خلالها و تمنع القسم الخطير منها .. و لو انخرق هذا الغلاف ، بقدر كيلو متر واحد ، لكانت آثار الأشعة الكونية على الأرض مدمرة.

أو ليس الحكمة الالهية مشهودة من وراء هذا السقف المحفوظ ؟ أو كان خلق السماوات و الأرض لعبا ؟! سبحان الله عما يصفون.

إن الغلاف الواقي يقوم أيضا بحفظ حرارة الأرض على مقياس معين ينفع الناس و الأحياء ، و لولاه ، لكانت أمواج الحرارة تحرق الرطب و اليابس . كما إنه يقوم أيضا بادخار كميات من المياه المتبخرة لنقلها من المحيطات الكبيرة الى الصحارى .. أو ليس كل ذلك شاهد صدق ، على إن الله لم يخلق الحياة عبثا ؟ سبحانه . (١)[و هم عن آياتها معرضون[

(1)راجع تفسير " نمونه " / ج ١٣ / ص ٤٠٠ - ٤٠٢.

فبالرغم من كل هذه الآيات التي بثها الله في السماء ، فان الناس يعرضون عنهـا ، لا لأنهم لم يزودوا بالبصيرة الكافية لوعيها ، و لكن لانهم يعرضون عنها تعمدا.

] [33]و هو الذي خلق الليل و النهار[

و هذه الآية تشير الى الزمن ، و لقد وصل العلماء الى صنع ساعة تقيس الزمن بدقة فائقة تصل الى واحد من ألفي جزء من الثانية ، و مقياس الليل و النهار الزمني لا يتغير ولا بمقدار جزء من هذه الألفين أو أقل ، و ليس ذلك إلا دليلا على إن خلق الكون لم يكن عبثا، و هكذا يجب أن تكون حياتنا قائمة على أساس الدقة و الجدية ، و تكييف النفس مع حقائق الحياة.

إن جوهر الحق و المسؤولية في الحياة هو البحث عن الهدف ، و السعي الحثيث نحوه.

]و الشمس و القمر كل في فلك يسبحون[

هما يسبحان و يتحركان و البشر أيضا يتحرك ، ولكن لابد أن تكون حركته ضمــن إطار و خطة من أجل الوصول الى شيء ، لأن الحركة من دون هدف لعب و لهو.

سنة الموت:

و تتجلى جدية الحياة ، و انها ليست لعبا و لهوا ، في أمرين : الموت و الابتلاء . و لقد جعل الله الموت حتما على البشر:

] [34]وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون]فكل الناس ميتون ، و لعل الأدب القرآني السامي يذكر هنا ضمير المخاطب ليجعلنا جميعا في جو رهيب بحيث نشعر بمرارة النهاية لكي لا نلعب ولا نلهوف في الحياة.

و ما دام الرسول و هو أكرم الخلق على الله قد مات فهل يخلد أحد بعده ؟!

] [35]كل نفس ذائقة الموت[

و تعبير ذائقة يقرب المعنى للذهن أكثر ، إذ يصور الموت و كأنه شربة يذوقها الجميع ، لكي نتحسس بمرارة الموت عن طريق التذكر المستمر له ، و لعل الاية توحي بأنه ليس هناك إنسان إلا و يتحسس الموت بوعي تام ، حتى لو كان الموت قد وافاه أثناء نومه.

بلى لابد أن نتذوق جميعا كأس الموت غصة بعد غصة ، أفلا نعتبر بمن مضى منا ؟ ومن لم يتعظ بهذه النهاية الرهيبة فبم - يا ترى - يعتبر ؟ لقد قال أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - يوما وقد تبع جنازة فسمع رجلا يضحك : " كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا و جب ، و كأن الذي نسمع عن الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون ، نواريهم أجداثهم ، و نأكل تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، وقد نسينا كل واعظة ورمينا بكل جائحة " . (١)[و نبلوكم بالشر و الخير فتنة وإلينا ترجعون[

الخير أفضل من الشر ، و لكن القرآن يأتي بذكر الشر قبل الخير ليبين لنا بأننا محكومون بارادة الله ، فلنتكيف مع هذه الارادة . و لكي نعي حقيقة هامة تبين(١) نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٢٨ . و في الأصل " نريهم ولعله خطأ مطبعي ، و االجائحة : النازلة و الشدة.

الآيات الوجه المشتركة لظواهر الحياة المختلفة ، فمع أن الشر يختلف عن الخير في ظاهره ، إلا انهما

يلتقيان في نقطة واحدة هي إنهما لبلاء الانسان حيث يتقلب البشر بين الخير و الشر ، بين العافية و المرض ، بين الغنى و الفقر ، و الأمن و الخـوف و .. و .. ولا حيلة له فيها . فهل رأيت مريضا يحب الاستمرار في زوبعة الألم ، أم هل صادفت فقيرا يستمرىء البقاء في سواد الفقر ، أو خائفا لا يريد التخلص من ضائقـة الخوف ؟ ، ولكن تدبير الله المحيط بنا يقلبنا بين الشر و الخير ليفتننا بهما ، ثم يبعثنا إليه ليحاسبنا ، أفلا نوقظ أنفسنا من نومة الغافلين ؟! لكي لا نتخذ الحياة لهوا و لعبا.

و مادامت نهاية الانسان الى الله ، فهو مسؤول أن يجير كل الظروف ، خيرها و شرها ، في صالح الهدف الأسمى ، و يفكر في المستقبل بدل أن يتأثر سلبا بالظرف الذي يعيشه خيرا أو شرا تأثرا آنيا ، فيطغى بسبب الخير ، أو ينهزم و ينحرف بسبب الشر ، و هذه من طبيعة الانسان فهو ينسى أهدافه بسبب ظروفه المحيط به.

ولا ريب إن الذي يعي حقيقة البعث يكون بعيدا عن اللعب و اللهو.

[36]وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون]مع هذه الآيات الجلية في الآفاق ، و في أنفسهم ، تجد الكفار يستهزئون بالحق و يتخذونه لعبا ، أما القرآن فيبين بأن الحق لا ينبغي أن نستهزىء به ، لأنه ينتقم ممن يستهزىء به قريبا أو بعد أمد محدود.

و كم هو صلف هذا الانسان ، ففي الوقت الذي يتميز غضبا حين يسمع إن الرسول يذكر آلهتهم التي لا تغني عنهم شيئا ، و يتساءل : هذا هو الشخص الذي يذكر الآلهة (ولا ينقل كلام الرسول فيها إحتراما لها) ، في ذات الوقت تراه يكفر بالرحمن الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة و باطنة ؟!!

خلق الانسان من عجل

هدى من الآيات

هناك حواجز نفسية تمنع تحسس الانسان بمسؤوليته الكبرى في الحياة ، و تدفعه الـى اللهـو و اللعب ، و تحجبه عما تمليه الرسالة الالهية من توجيهات و مواعظ ، و من تلك الحواجز النفسية التي يعالجها القرآن الحكيم هنا:

اولا :حالة الاستعجال عند الانسان . حيث يعتقد بأن تأخر الجزاء دليل على أن العمل لا يستلزم الجزاء ، و هذا يمنعه من التفكير الجدي في الحياة ، لأن أكثر الأعمال لا يأتي جزاؤها إلا بعد حين ، حسب حكمة الله و تقديره.

ثانيا :الشرك . و هو من الحجب النفسية التي تمنع الانسان من الإيمان بمسؤوليته الملقاة على عاتقه ، و الذين يشركون بالله بأي شكل و تحت أي عنوان كان ، إنما يهدفون أساسا الى التخلص من مسؤولية التوحيد ، و التي تتطلب قدرا من التضحية و الصبر ، و تحدي عاملالزمن ، و لكنهم بعدولهم من الحق الى الباطل ، يعرضون أنفسهم للجزاء المرهق و العذاب الدائم ، في مقابل راحة و قتية و همية ركنوا إليها بجهلهم و حمقهم.

ثم يشير القرآن الى فكرة هامة و هي إن الجزاء يأتي في اللحظات التي يزداد فيها غرور الانسان بنفسه ، فالمجتمع في بداية حياته يكون حذرا ، و لكن عندما يطول عمره ، و تكثر النعم و الخيرات عنده ، فانه ينسى حذره و يركبه الغرور و يعتقد : إن ما عنده من الراحةوالمتعة سيكون ابديا ، و مع استمراره في الحياة ، و ازدياد غروره ، فان سلبياته تتكاثر و يزداد ظلمه ، فيتراكم جزاء أعماله و في لحظة واحدة ، يفاجؤه الجزاء و يدمر عليه كل شيء ، و هذا قانون اجتماعي ثابت لا يستثنى منه مجتمعاتنا في هذا الزمان.

بينات من الآيات

[37]يستعجل الانسان الجزاء لأنه خلق من عجل و لكن ما هو العجل ، و كيف خلق الانسان منه ؟

بعضهم قال إن العجل الذي خلق منه الانسان صفة له ، و كأن الله سبحانه و تعالى أراد أن يركز الضوء على خاصية بشرية في خلقة الانسان و تكوينه ، وليست صفة عارضة تكتسب من البيئة المحيطة به.

و بعضهم قال إن المقصود بالعجل الطين ، اي إن الانسان قد خلق من مادة دنيئة ذات صفات سلبية ، و لذلك فهو يتعجل الأمور ولا يملك الصبر عليها بطبيعته المادية المحضة.

و يبدو إن العجل يعني شيئا آخر أبعد أفقا ، و أكثر عمقا ، و هو إن الزمن قد جعل من عوامل خلقة الانسان وأحد عناصره ، شأنه شأن كل مظاهر الطبيعة المسخرة له ، فكل المخلوقات و الموجودات التي نراها في أرضنا و سمائنا ، يشكل الزمن جزء من طبيعتها و تركيبها.

و لقــد كشفت لنا الفيزياء الذرية عن هذه الحقيقة ، بسلسلة من التجارب العملية ، حتى لم يعد يحيط بها غموض ، و قبل ذلك أشارت إليها جملة من الآيات القرآنية ، منها " خلق السماوات و الأرض في ستة أيام " و يبدو من الآية إن الله جل شأنه جعــل الزمــن جزء من الخليقة حيث مرت بعدة مراحل الى أن أخذت شكلها النهائي.

و هكذا فالانسان يحس بالزمن لآنه عنصر أساسي في خلقته الطينية المادية ، ولولا روح الانسان و قيم الرسالات الالهية التي تبلور هذه الروح و تعطيها خصائص عالية ، لكان الانسان يعــيش لحظته و حدها ، و لما كان يتطلع الى المستقبل أو يرى الآفاق البعيدة للحياة.

وهكذا يريد القرآن أن يخبرنا بأن هذه الطبيعة البشرية التي يشكل الزمن جزء منها ، هي التي تدعو الانسان الى اللامسؤولية ، لأنه يعيش بطبيعته لحظته و حدها ، و بالتالي يعجز عن إدراك حتمية الجزاء ، الذي يتطلب مقدارا معينا من الزمن ، لكي يتحقق و ياخذ مجراه.

إنه ينتظر جزاء عاجلا و قريبا لأعماله ، فاذا تأخر عنه فترة ، قد تطول أو تقصر ، قال : لا جزاء ، و طبيعي إن من ينكر الجزاء ينكر المسؤولية كذلك . مثلا إذا ظلمت السلطة شعبها فثار بعد عشرين عاما ، لا يقول رجالها : إن هذه الثورة إنفجرت بسبب ذلك الظلم ، ولا يرون أيضا ذلك الظلم ، ولا يرون أيضا ذلك الارتباط الوثيق بين الأمرين ، بل إنهم يأخذون بالبحث و التفتيش عن أية علة ليقولوا : إن الثورة جاءت من الخارج ، في حين إن العلة الحقيقية تكمن في الداخل ، و بالذات في جهاز الحكم الفاسد ، فهم لا يفكرون إن ظلمهم سوف يولد حركة ثورية تتنامى ، و تنتشر ، و تتحول الى بركان مدمر ولو بعد حين.

و القرآن الحكيم ينبهنا بانكم ، سواء عشتم مستبقلكم أم لا ، و آمنتم به أو كفرتم ، فان الجزاء سياتي حتما ، و سوف يحيط بكم عذابه ، و ما دام المستقبل حقا فلابد أن نؤمن به ، متحدين بذلك كل الضغوط التي تواجهنا في الحياة ، و على رأسها طبيعتنا البشرية الاستعجالية.

إن الذي ينكر الجزاء ، بأن يسلم قيادته لنفسه النزقة المتعجلة ، يسلب الله منه عقله و بصيرته ، و يستدرجه شيئا فشيئا ، فلا يشعر إلا و العذاب مطبق عليه بغتة ، سواء كان ذلك عذاب الساعة أو ما هو دونها ، فالطاغوت الحاكم يفقد تمييزه للأمور ، و تبصره بالعواقب فيستمر في سياسته الخاطئة ، وإذا به يصحو يوما ليجد نفسه ملقى عن عرشه ، كشاه إيران ، أو ممزقا برصاصات المجاهدين ، كفرعون مصر.

و كذلك بالنسبة لبعض المجتمعات البشرية التي تراكمت أعمال افرادها السيئة حتى أحاطت بهم ، استهزأوا برسلهم أو بمن يمثلهم من الأوصياء و العلماء ، و اتخذوا ما جاؤوهم به لهوا و لعبا ، فقد حاق بهم ما استهزأوا به و أزال حضارتهم.

و كثيرا ما نجد القرآن الحكيم يتحدث عن المجتمعات و ليس الأفراد ، مما يثير السؤال التالي : مادامت المسؤولية هي مسؤولية الفرد فلماذا يحدثنا القرآن عنها بصيغة المجموع ؟

و الجواب : إن ذلك لسببين:

الأول :إن مسؤولية الفرد لا تقتصر على حدود ذاته الضيقة ، و إنما تمتد لتشمل المجتمع الذي يعيش فيه ، لأن أكثر اعمال الناس هي أعمال إجتماعية ، و جزاؤها لابد أن يكون جماعيا أيضا ، و ذلك لطبيعة التواجد في مكان واحد و التفاعل نفسيا و ماديا بين الناس.

الثاني : هو إن جزاء الأفراد - عادة - لا يرى ، إننا لا نستطيع مثلا أن نحيي شابا مات في مقتبل عمره لنسأله ما هي أعمالك السيئة التي أدت بك الى هذه النهاية ، و بالتالي نعرف إن ميتته المنكرة كانت جزاء لانحرافه ، و سوء مسلكه ، أما المجتمعات فأعمالها تكون ظاهرة ، و آثارها واضحة ، لذلك يضرب القرآن بها أمثالا لنعتبر بها.

إن هذه المجتمعات لم تؤمن بالجزاء ، فاتخذت المسؤولية لهوا و لعبا ، فأحاط بها كفرها حتى أزالها ، و عند ذلك لم تنفعها الآلهة التي اعتمدت عليها من دون الله.

]خلق الإنسان من عجل[

أن تعجل الأمور ، و عدم الاصطبار على الزمن ، هو من طبيعة الانسان ، ومن العناصر الأساسية في تكوين خلقته.

]سأوريكم آياتي فلا تستعجلون[

ستأتي آيات العذاب و سترونها حتما ، فلماذا العجلة ؟!

] [38]و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[

إنهم كلما سمعوا وعظا وتذكيرا من أحد قالوا أين ذلك الجزاء الذي تعدنا به ؟! لو كانوا يعلمون إن الجزاء الذي يستعجلونه شديد ، وإنه حين يحيط بهم لا يمكنهم الفرار منه بأية صورة كانت ، لما لجأوا الى السخرية و الاستهزاء و لما لووا رؤوسهم معرضين.

جزاء الاستهزاء

] [39]لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم[

وهما المنطقتان الحساستان من الانسان ، وفي ذلك إشارة الى شدة العذاب و إحاطته.

]ولا هم ينصرون[

فلا تنصرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها و يخضعون لها من دون الله.

] [40]بل تأتيهم بغتة فتبهتهم[

أولا :تأتيهم النار فجأة كما لو كان ذلك من دون سابق إنذار ، لانهم تعودوا على الكفر بالنذر ، و عدم اتخاذها مأخذ الجد ، فأصبحوا مع مرور الزمن كالجاهل الذي يفتح عينه على الحقية لأول مرة.

ثانيا : إن النار الرهيبة تسبب لهم البهت ، فتسلب عقولهم و تحيرهم ، ثم تكتنفهم بعذابها الأليم.

]فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون[

إنهم لا يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم ولن يعطوا مهلة أكثر مما أعطوه في الحياة الدنيا ، ولوبمقدار لحظة.

] [41]و لقد استهزىء برسل من قبلك[

إن الأمم السابقة قد استهزأت بالرسل ، فاذا بتلك الرسالات التي استهزأوا بها تتحول الى حقائق أليمة تحيط بهم و تنتقم منهم . و لا يخفى إن ذلك إضافة الى التعذيب البدني عذابا نفسيا للكافرين.

ولكن هل الرسالة الالهية بذاتها عذاب ؟ و هل هي التي تؤدي الى الضرر الوخيم الذي يصب المعاندين في جهنم ؟

بالطبع -كلا - فالرسالة بما فيها من أفكار إنما هي تعبير عن الحقيقة ، و حينما يستهزىء أحد بها فإنه يستهزىء بالحق ذاته ، فحينما أقول لا تأكل هذا الطعام لأن فيه جرثوما ، فان هذه الكلمة تعكس حقيقة واقعية ، و عندما تخالف و تأكل منه ، فان الجرثوم وهو تلك الحقيقة الواقعية ، سيحيط بك و يوقعك في الألم و المعاناة ، لذلك يعبر القرآن عن هذه الحالة تعبيرا دقيقا ، و يقول:

]فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون[

القرآن في هذه الآية كما في أكثر آيات سورة الأنبياء ، يكثر من الحديث عن اللعب و اللهو ، و الاستهزاء و السخرية ، فلماذا ؟

الســبب هــو إن الحديث فيها ، يدور حول المسؤولية ، و هذه الأشياء نقيض لها ، فاللعب ، و لهو القلب ، و الاستهزاء بالرسالة ، و السخرية من الرسل ، و بالتالي من الحقائق ، هذه كلها تقتل احساس الانسان بمسؤوليته في الحياة.

ولا يسمع الصم الدعاء:

[42]]قل من يكلؤكم بالليل و النهار من الرحمن[

إن تدبير الحياة بيد الله كما إن تقديرها بيده سبحانه ، فمن الذي يحفظنا ليلا و نهارا من أخطار الحياة سوى الرحمن ؟

فهو الذي يحفظنا بنعمه بلائه ، و برحمته عن غضبه . لأنه جل شأنه قد كتب على نفسه الرحمة ، و الرحمن هو الذي يكلؤنا و لكن نحن لا نقدر هذه النعمة فنكفر به وبآياته و نعرض عن ذكره.

]بل هم عن ذكر ربهم معرضون[

الله هو الذي يربيهم ، و هو الذي لا يزال يكمل لهم النعم ، و ينزل عليهم البركات ، و مع ذلك تراهم يكفرون به و يستهزئون برسالاته.

و ما دام العذاب الالهي في الدنيا لا رادع عنه ، (إلا من قبل الله نفسه (، ولا أحد مــن الآلهة المزعومة تقدر على دفعه إن حل بقوم ، فلنعرف إن الآلهة ليست بشيء ، و إنها لا تضر ولا تنفع ، و انها لا تقدر على دفع عذاب الآخرة أيضا.

[43]]أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا[

الله لم يقطع عنا أياديه ساعة فلماذا نكفر به ؟! إذ لم يعطك أبوك نقودا ، و لم يدعك تنام في البيت ، و لم يهتم بك ، فسوف تبحث عن صديق أو عن جهة من الجهات تؤمن لك ضرورات حياتك ، و لكن الله - و الأمثال تضرب ولا تقاس - لم يغلق عليك الأبواب ، و لم يبعث عليك العذاب حتى تتركه و توجه الى آلهة غيره تؤويك الى كنفها!

و نقرأ في الأدعية تعابير دقيقة ، و في نفس الوقت مثيرة لأحاسيس الانسان الفطرية في هذا الاتجاه : فما دام الله سبحانه و تعالى لم يغير عادة الاحسان إلينا ، فلماذا نفتش عن غيره ؟! و مادام ربنا قويا قاهرا فلماذا نخدع أنفسنا بالالتجاء الى الضعفاء من عباده ؟! نقرأ في دعاء عرفة للامام الحسين عليه السلام : [ماذا وجد من فقدك ، وما الذي فقد من وجدك . لقد خاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا . كيف يرجى سواك ، وأنت ما قطعت الاحسان . و كيف يطلب من غيرك ، وأنت ما بدلت عادة الامتنان] . (١)[لا يستطيعون نصر أنفسهم[

تلك الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها فكيف تنصر غيرها.

]ولا هم منا يصحبون[

لا نعتبرهم أصحابنا ، لا نعطيهم القوة ، ولا هم يمتلكون القوة الذاتية.

] [44]بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر]إن السبب الذي يزيد في نسيان هؤلاء هو استمرار النعم عليهم ، لذلك تراهم مع مرور الزمن و تطاول السنين يتزايد غرورهم ، و مع تزايد الغرور تتزايد النقم التي تأتي مع النعم ، في سلسلة متوازية.

]أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون]في كل يوم يهلك الكثير من المجتمعات بسبب أعمالهم الفاسدة ، ولأن جزاءهم قد آن أوانه ، فلماذا لا نعتبر ؟! و هنا يوجهنا القرآن الحكيم الى نوعين من الاعتبار:

- 1الاعتبار بمن مضى من الأمم.

(1)مفاتيح الجنان / ص ٢٧٣.

- 2الاعتبار بمن نعاصرهم من الأمم التي تتحطم و تهلك بسبب أعمالها.

إن على الانسان أن يعتبر بالماضي من آبائه الذين ماتوا و انقرضوا ، و كذلك لمن حوله من أترابه ، الذين يموتون كل يوم ، كذلك حال المجتمعات (١) ، و لكن المشكلة الأساسية هي التي يشير إليها القرآن في الآية الأخيرة:

] [45]قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون]المشكلة هي إن الانسان قد أصيب بالصمم ، و لهى قلبه ، فجعل يستهزىء بالحقيقة ، لذلك حينما يرى العبر فانه لا يستفيد منها شيئا.

(1)هناك تفسيرات أخرى لهذه الآية . منها إن نقصان الأرض بموت العلماء . و به جاءت الروايات . و هو تفسير عميق لا يتنافى مع ما ذكرنا آنفا إذ إن موت المجتمعات إنما هو بنقصان علماءها " راجع تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص . "429

نفحات العذاب علائم المسؤولية

هدى من الآيات

في سياق حديث القرآن الحكيم عن مسؤولية الانسان في الحياة ، المرتكزة على الجدية و الهدفية ، تذكرنا آيات هذا الدرس ، بأن من علائم المسؤولية هي نفحات العذاب ، التي يتعرض لها البشر بسبب سوء أفعالهم ، فلكي تعرف الآخرة ، و ما فيها من عذاب أو ثواب ، لابدان تتفكر في الدنيا و مافيها من آثار العذاب و الثواب و نفحاتها ! إلا إن الموازين القسط التي تحسب كل صغيرة و كبيرة فيجازى الشخص بها ، مؤجلة الى يوم القيامة ، حيث لا تظلم نفس شيئا ، حتى ولو كان بوزن خردلة.

و لقد جاءت رسالات الله تترى لتعطي الناس ميزانا يفرق به بين الحق و الباطل ، و ضياء يهتدى به في ظلمات الحياة ، و يذكر المتقين ليزدادوا إيمانا و عزما.

فمن أبرز غايات الرسل تذكير الناس بيوم القيامة - حيث الموازين القسط - ، و لكن المتقين هم الذين يخشون ربهم بالغيب و يخافون أهوال الساعة.

و هذا الكتاب هو الآخر ذكر مبارك أنزله الله لذات الغاية.

و السؤال ما الذي يحجب الانسان عن الأخذ بالفرقان ، و الإيمان بالرسالات الالهية التي تذكر بالآخرة ، و تنبه الغافلين عن نومهم في الدنيا ؟

إنه و كما يتضح من القرآن التقليد ، و تبعية الآباء من دون تبصر ولا تدبر . هكذا يضرب لنا القرآن مثلا من حياة إبراهيم (ع) الذي وقف أمام قومه الذين اتبعوا منهج آبائهم ففقدوا إحساسهم بالمسؤولية ، و صرخ في وجوههم قائلا : ما هذه الأصنام التي تتمسكون بعبادتها ، و تلازمونها على الدوام ؟! فلم يكن عندهم جواب منطقي يردون به على هذه الصرخة ، إلا أن قالوا : إنما وجدنا آباءنا يعبدونها فحذونا حذوهم.

و لكي يثبت لهم إمكان تحدي الانسان لتأريخه الباطل بقوة إرادته ، أخذ معولا و ذهب الى معبدهم في يوم عيدهم ، و حطم الأصنام ، و احدا تلو الآخر ، ثم وضع المعول في عنق أكبرها حجما ، و ذهب الى بيته ، بانتظار أن يعودوا ، فيروا إن التماثيل قد حطمت ، فيكون ذلك نقطة بدء لهم لكي ينفصلوا عن تاريخهم السيء المنحرف ، و يعيشوا واقعهم بعقلية متفتحة و بصيرة مستنيرة.

بينات من الآيات

[46]إن الدنيا مزيج من الجنة و النار ، و لقد خلق الله سبحانه و تعالى دارا لأوليائه ، جعل فيها من كل مالذ و طاب من النعم ، دون أن يشوبها خوف أو حزن ، و خلق دارا أخرى للمعاندين ، و جعل فيها من كل عذاب أشده و آلمه ، دون أن يكون فيها مكان للرحمة أو مجال للنعمة ، و خلق دارا ثالثة تجمع صفات تلك الدارين ، فيها ضغث من الجنة و ضغث من الجحيم ، و هي الدنيا ، ثم جعل ما فيها من ثواب و نعم شاهدا على ما في تلك الدار من ثواب و نعمة ، و ما فيها من عقاب و نقمة ، شاهدا على مافي الجحيم من أليم العذاب . و هذا هومضمون حديث مفصل مروي عن أمير المؤمنين علي (ع. (

و في هذه الآيات يؤكد السياق ذلك ، فلكي تعرف إنك مسؤول في الآخرة تدبر في نتائج أعمالك في الدنيا ، و لكي تعرف حقيقة العذاب و الثواب في الآخرة جربهما في الدنيا.

لذلك تجـد الصحـابي أبا ذر - عليه السلام - يذهب الى الصحراء ، يعري جسده ، و يلقي بنفسه على الرمضاء حيث تصهره الشمس و يكويه الحصى ، و يقول لنفسه يا أبا ذر ذق حرارة الدنيا لكي تبعد نفسك عن نار الآخرة ، فان نار جهنم أِشد حرا . وفي الحديث الشريف : " تذكروا بجوعكم و عطشكم - في شهر رمضان - جوعكم و عطشكم في يوم القيامة. "

إن كل ما نواجهه في حياتنا الدنيا من صعوبات و مشاكل و مخاطر ، هو نفحة من عذاب الله تذكرنا بحقيقة العذاب الموجود في الآخرة ، و يصيبنا إن لم نتبع الفرقان الذي أنزله إلينا ربنا ، و الذي يفرق لنا بين الحق و الباطل ، و بين الحلال و الحرام ، و بين الخيرو الشر.

]و لئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين]أول ما يبدأ عذاب الله عز وجل بالنزول على المعرضين و المعاندين ، ينزع عنهم السكرة التي كانت مسيطرة على عقولهم ، والتي جعلتهم يغترون بالدنيا الفانية ، و عن ذلك يعودون الى رشدهم ، و يقولون لقد عرضنا أنفسنا الى الهلاك بارادتنا و اختيارنا ، حينما فرطنافي المسؤولية ، و تهاونا في أداء الأمانة.

] [47]و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا]تلك كانت النفحة ، أما الجزاء فسيجدونه في يوم القيامة حيث الحساب ، الدقيق و العسير ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، و تعالى الله أن يظلم أحدا شيئا.

و الموازين القسط هم الرجال الربانيون الأنبياء و الاوصياء (١) الذين يتخذ منهم الرب شهداء على الناس ، و الذين لابد أن يقيس الانسان أعماله بهم و بنهجهم و سيرتهم.

]وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها[

الخردل :نبات له حبات بالغة في الصغر و الخفة ، لو إن الانسان أحسن و عمل عملا بوزن هذه الحبة ،

وفي أي مكان على وجه الأرض ، و على أية درجة من السرية و الكتمان ، فان الله سياتي به - بقدرته و علمه اللامحدودين - مثبتا و مسجلا ، يعرضه على صاحبه في يوم القيامة ، ثم يعطيه جزاءه العادل عليه .

]وكفى بنا حاسبين[

ولا نحتاج الى من يعيننا في عملية الحساب هذه.

(1)تفسير نور الثقلين / ج٣ / ص ٤٣٠.

حجج المسؤولية

[48]لأن الله لا يظلم أحدا شيئا ، سبحانه ! ، و لأنه رحيم بعباده ، ولأن الحساب هناك دقيق و عسير ، و بالتالي لأن المسؤولية باهضة . فقد من على عباده برسالاته التي هي:

أولا : الفرقان بين الحق و الباطل ، بين ما ينبغي وما لا ينبغي من الأفعال .

ثانيا : و يضيء قلوبهم بنور الايمان حتى يتحملوا مسؤولياتهم و يؤدوا ما عليهم.

ثالثا : يذكر المتقين منهم حتى لا يعتريهم النسيان.

هكذا اكمل الرب حجته على عباده ، فلم يحملهم عبء المسؤولية دون توفير و سائل تحقيقها لهم.

]و لقد آتينا موسى و هارون الفرقان و ضياء و ذكرا للمتقين]الفرقان : هو ما يفرق بين المتناقضات الموجودة في الحياة ، و به نعرف الحق من الباطل ، و نعين الحدود الفاصلة بينهما ، و قد يكون الفرقان هو التوراة كما تشير إليه هذه الآية ، و قد يكون واحدا من الكتب الالهية الأخرى و منها القرآن ، كما انه يستطيل ليشملالأشِخاص كالأنبياء و الأئمة (ع) ومن يقوم مقامهم ويمثل امتدادا حقيقيا لهم.

و الضياء : هو النور الذي يشع في القلب ، و يمكن المؤمنين من السير في دروب الحياة المدلهمة بثقة و اطمئنان.

أما الذكر : فهو ما يثير دفينة العقل ، و يمنع الانسان من الركون الى الغفلة و النسيان ، و يتمثل في المواعظ البليغة التي يستفيد منها المتقون الذين يخافون الله ويراقبونه باعمالهم.

الساعة و الغيب:

] [49]الذين يخشون ربهم بالغيب[

الإيمان بالغيب هو الذي يدفع الانسان الى تجاوز الشهود ، فتراه - حينما يرى شيئا - لا يقف عنده ، بل يعبر من خلاله الى الشاطىء الآخر للحقيقية أي الى حكمته و سببه و دلالته ، و بكلمة : الإيمان بالغيب هو : أن نصدق بما لا نراه إنطلاقا مما نراه ، و هذا الأمر الذي يتفق تماما مع العقل و المنطق ، هو الذي يقودنا الى معرفة ربنا اللطيف الذي لا تدركه الأبصار ، من خلال ما نراه من آثار خلقه و بديع صنعه ، و بالتالي نخشاه كاننا نراه ، و نقف بين يدي جبروته المطلق بخشوع و وجل ، و هذا الشعور سوف ينعكس على أعمالنا ،و أقوالنا ، و سائر تصرفاتنا ، فيصقلها و يهذبها و يوجهها الى الوجهة السليمة في الحياة . كما يقودنا الإيمان بالغيب الى الشفقة من الساعة.

]و هم من الساعة مشفقون[

أي يخشون قيام الساعة.

و الاشفاق حالة من الخشية المقرونة بالترقب و الانتظار ، ذلك لأن المتقين يعيشون بين الخوف من البعث (لأنهم لا يعلمون نتائج أعمالهم) و بين انتظاره (إذ يرجون جزاء حسناتهم. (

] [50]وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفانتم له منكرون[

إن أكثر الكفار ، ينكرون الرسالات و الكتب الالهية ، لأنهم يشككون أنفسهم في الذي أنزلها ، و لذلك يقول الله في هذه الآية : " أنزلناه " ليقطع عليهم سبيل الانكار و التكذيب.

و كما إن التوراة كانت فرقانا و ضياء و ذكرا .. فان القرآن كذلك ذكر (وهو أعلى صفات التوراة الثلاث) . و مثلما أصبح كتاب موسى بركة على بني إسرائيل ، كذلك هذا الكتاب سيكون (و فعلا كان) مباركا على من اهتدى به ، يخرجهم من الظلمات الى النور ، و يعطيه متكاملا معنويا و ماديا.

إبراهيم يحطم الأصنام جميعا

] [53 - 51]ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنا به عالمين * إذ قال لأبيه و قومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين]الضمير في " رشده " يعود الى إبراهيم (ع) ، و لم يقل ربنا " رشدنا " مثلا ، وفي ذلك إيحاء الى أن الله خلق الانسان راشدا - عاقلا - نقي الضمير ، ولكنه يتبع آباءه على غير هدى فتنحرف فطرته ويضيع رشده.

ولقد أدى إعراض قوم إبراهيم عن رشدهم المركوز في فطرتهم ، الى أن يردوا على حجته القوية المنطقية بذلك الجواب السخيف الأحمق فقالوا : إنما نعبد هذه الأحجار لأننا رأينا أسلافنا يفعلون ذلك..

] [54]قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين[

لقــد نسف إبراهيم بكلمة واحدة عقيدتهم المهزوزة ، و تركهم في حيرة من الأمر ، و الآية التالية تدل على إنهم لم يكونوا على شيء في دينهم.

] [55]قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين[

لقد أصابتهم كلمة إبراهيم في الصميم ، فطرحوا عليه هذا السؤال كمن يعطي نفسه فرصة لإعادة ترتيب أوراقه و لملمة خواطره المتناثرة.

[56]و لكن إبراهيم واصل حجته القوية المنطقية ، و أطبق عليهم بهذه الحقيقة الصارخة التي لا سبيل لانكارها:

]قال بل ربكم رب السموات و الأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين]لا أحد من آلهتهم كان يدعي أنه خلق السماوات و الأرض ، أو أنه خلقهم . و لذلك فلابد أن يكون الاله الحقيقي لهذا الكون غير الأصنام الصماء البكماء . و هكذا أصر إبراهيم عليه السلام إنه ليس لاعبا ، وليس حديثه من نوع حديث المراهقين الذين يشكون الضعف في عقولهم - حاشاه - ، بل إنه يدعو وبجد الى رب السماوات و الأرض ، و هو شاهد على صدق دعواه ، بثبات قوله ، و شجاعة طرحه ، و استعداده للتضحية ، و سلامة نهجه و صدق مواقفه ، و سعادته و فلاحه.

و هنا دحض حجتهم بالكامل ، و انقطعوا عن أي جواب ، ولكن النفس البشرية ليست من البساطة بحيث تؤمن بالحق أول ما تراه ، فهناك عوامل معقدة و متشابكة إجتماعية و ثقافية و إقتصادية ، تنشأ عنها مصالح و اعتبارات يخيل نظريا للانسان بأنه لا يستطيع التخلي عنها.
إنهم عرفوا الحقيقة و انجلت أمام أعينهم ، ولكن إتباعها يتطلب منهم أن يضحوا بالكثير من مكاسبهم المادية ، كالجاه و السلطة و الثروة و غيرها . و لذلك لم يبادروا باعلان قبولهم بالحق و خضوعهم له ، بل انهم لاذوا بالصمت كمن ينحني لتمر العاصفة بسلام ، ثم يواصلدربه.

[57]ولكن إبراهيم لم يسكت ، و لم يفسح لهم المجال للاسترسال في الصمت و التقليد و الخوض

في الباطل مع الخائضين ، بل قال:

]وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين[

أي سأحطمها بعد أن تذهبوا لحضور إجتماعات عيدكم . وكان هذا القيد الزمني بسبب إن إبراهيم (ع) كان فردا واحدا فلم يكن من الممكن أن يكسر تلك الأصنام مع وجود أعداد كبيرة من المشركين عندها.

[58]ثم شفع تهديده الكلامي بالتنفيذ العملي..

]فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون[

حطم تلك الآلهة المزيفة شر تحطيم ، و ترك واحدا منها ، كانوا يعدونه أعظم أصنامهم ، و علق معوله في صدره ، ليترك لهم مجالا أكثر للتفكير في حقيقة هذه التماثيل الحجرية التي لا تضر ولا تنفع ، و ذلك لأنه كان لديه تصور مسبق لما سيحدث بعد ذلك من إلقاء القبضعليه و مسائلته بعد اكتشاف قومه للأمر ، و كان يريد أن يكسر جدار الصمت و يوقف مسيرة الاسترسال مع الوضع الفاسد ، ولكي يجد فرصة جماهيرية ليبين لهم بأن هذه الأصنام لن تسبب لهم الضرر إن كانت مكسرة ، كما إنها لن تنفعهم إن ظلت قائمة على منصاتها ، فماذا عسى ينفعهم هذا الصنم الكبير عندما يرجعون إليه و يلوذون به ؟!

وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين

هدى من الآيات

كما إن نفحة العذاب في الدنيا ، شاهدة على العذاب المركز في الآخرة ، كذلك الثواب الدنيوي دليل على ما وراءه من ثواب عظيم في الآخرة.

و كما إن الانسان حينما تستعبده أصنام التأريخ ، أو أصنام المجتمع ، فانه يلاقي جزاءه في الدنيا و الآخرة ، حيث تتحول تلك الاصنام التي تعبد من دون الله الى نقمات تحيط به ، كذلك فان الانسان الذي يتحرر من عبادة الأصنام التأريخية أو البشرية ، يبني حياتهبشكل سليم و يجازيه الله سبحانه و تعالى جزاء حسنا.

فهذا إبراهيم قد حطم - اولا و قبل كل شيء - الأصنام التي كانت تستعبد الناس آنئذ ، حيث انفصل عن عبادة الآباء ، و تحدى ضغوط المجتمع ، و لم يكتف بعدم الخضوع لأبيه (آزر) الذي كان يتخذ موقفا متشددا ، بل حاول أن يجعل أباه يتبعه و يطيعه ، لأنه على يقين.

كما تحرر من الخضوع لطاغوت المجتمع ، و للسلطة السياسية الفاسدة ، بما تملك هذه السلطة من وسائل البطش و الارهاب ، فكان ذلك الانسان الذي خلقه الله على الفطرة الإيمانية ، و أصبح عبدا مؤمنا صالحا كما أراده خالقه.

إن الانسان المتحرر عن عبودية الطاغوت ، و عبودية الآباء ، و عبودية الشهوات ، و سائر العبوديات ، يصبح مستقل الشخصية ، لا يخضع إلا لخالق الكون العزيز الحكيم ، وهكذا بدأ إبراهيم حياته بداية سليمة ، فأعطاه الله سبحانه بدل ذلك المجتمع الفاسد مجتمعا صالحا ، وبدل ذلك الارهاب و الطغيان أمنا و حرية ، وبدل ذلك التأريخ الفاسد جعله منطلقا جديدا لبناء تأريخ صالح.

لقد عوضه الله عن كل بلاء صبر عليه بنعمة ، فبتحرره من قيد الطاغوت أعطاه الله سبحانه نعمة القيادة و جعله إماما ، و عندما تحرر من قيد المجتمع المشرك أعطاه مجموعة من المؤمنين يتبعونه ، و أعطاه الأولاد و جعل ابن خالته لوطا يتبعه ، فأنشأ ذلك المجتمع النظيف . و تحرر من قيد التاريخ المنحرف ، فجعله الله سبحانه و تعالى نقطة البدء لتأريخ جديد مجيد ، و جعل أولاده أئمة للناس ، كما زودهم برسالة متكاملة بازاء ذلك المنهج الفاسد الذي يتبعه الطاغوت و المجتمع الخاضع له .. برسالة تدعو الى الخير ، وإقامــة الصــلاة ، و إيتاء الزكاة ، و عبادة الله و حده ، دون الخضوع لهذا أو ذاك.

هذا هو بعض ما يمكن أن نستوحيه من هذه الآيات الكريمة.

بينات من الآيات
] [60 - 59]قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم[

من الذي حطم الأصنام ؟

لابد إن الذي حطمها ظالم لنفسه لأنه عرض نفسه لانتقامنا.

بلى هناك شخص يدعى " إبراهيم " يذكر الأصنام بالسوء ، و يرفض أن يعبدها و يخضع لها ، فمن المؤكد أنه هو الذي حطمها.

[61]و تحطيم الأصنام لم يكن يدل فقط على تحطيم الأحجار ، و إنما كان يدل أيضا علــى تحطيم الأنظمة الاجتماعية و التقاليد الفاسدة ، و تحطيمها يعني التحرر منها ، لذلك تجد إن مجتمع الطاغوت (نمرود) لم يكتف بمحاولة تعذيب إبراهيم ، و باعدامه ، إنما أرادأن يكرس تلك التقاليد و القيم الفاسدة عن طريق فعل كل ذلك عبر تظاهرة إجتماعية صاخبة ، ليكون عبرة للآخرين الذين قد تحدثهم أنفسهم باتباع منهجه التوحيدي.

]قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون[

يمكننا أن نفهم من هذه الآية : بأن ذلك المجتمع قد دبت اليه أفكار الرفض ، حيث كان هناك آخرون غير إبراهيم يدعون الناس الى التحرر من عبادة تلك الأصنام ، و قد سبق أن استوحينا من آية أخرى مثل ذلك تلك الآية هي " قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. "

] [62]قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم[

إبراهيم لم ينكر انه فعله أو لم يفعله و إنما:

] [63]قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون]لا شك إن هذا إسلوب ساخر أراد به إبراهيم (ع) أن يلفت به أنظارهم الى حقيقة معتقداتهم الفاسدة ، وإلا فهم يعلمون مسبقا إن هذه أحجار لا تنطق لأنهم هم الذين صنعوها بأيديهم.

] [64]فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون]أول صدمة نفسية أصيب بها هؤلاء هي إنهيار مكانة الأصنام في أنفسهم والتي كانت رمزا لإيمانهم بالتأريخ الفاسد ، و بالخضوع للحاكم الظالم المتجبر ، و اعتقادهم بالأساطير ... الخ.

فرجعوا الى أنفسهم و قال كل منهم لنفسه : أنا الظالم ، أنا المخطىء الذي رضيت أن أعبد هذا الصنم ، الذي لا ينطق ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

] [65]ثم نكسوا على رؤوسهم[

ولكنهم باعتبارهم بشر ، وباعتبار إن البشر لا يستطيع تحدي واقعه الفاسد بسهولة ، أخذتهم العزة بالإثم ، وركبوا مطية الغرور برغم أنهم عرفوا الحقيقة و أدركوا بطلان أفكارهم و زيف معتقداتهم فقالوا مكابرين:

]لقد علمت ما هؤلاء ينطقون[

أي كيف تطلب منا أن نسألهم ، و أنت تعلم إنهم لا يتكلمون ، أتسخر منا أم ماذا ؟! . و إذا كانت الأصنام لا تنطق ولا تتكلم فهي لا تستطيع أن تهدي من يعبدها سواء السبيل ، و إذن ما الفائدة منها ؟؟

إن أهم صفة للاله الذي يعبد هي : أن يكون قادرا على هداية الانسان ، لأن أهم حاجة للبشر هي حاجته الى الهداية ، ثم إن إبرز ميزة في الانسان هي العقل و الادراك ، فكيف يرضى بعبادة مالا يعقل.

[66]لذلك فقد حطم إبراهيم (ع) في أنفسهم هيبة الأصنام ، و أفهمهم إن المحور هو محور الهدى و منطق الحق ، لا محور الضلال و منطق القوة.

]قال افتعبدون من دون ا لله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم][٦٧] و أمـام موقفهـم الجاهلي المتغطرس ، يواجههم إبراهيم (ع) بمنطق العقل ، بكل هدوء و ثبات ليستثير عقولهم التي حجبها الكبر و الغرور ، و عندما يرى إصرارهم يلجأ الى الهجوم قائلا:

]أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون[

ومرة أخرى أكد إبراهيم (ع) على فضيلة العقل في الانسان ، و ضرورة اهتمامه بها و استخدامها من أجل مصلحته و تكامل ذاته.

[68]فلما ادينوا ، و دحضت حجتهم الباطلة:

]قالوا حرقوه و انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين[

وهذا كان آخر كلامهم ، وهو : إن إبراهيم (ع) يجب أن يحرق ، و أن ينتصروا للآلهة مادام عندهم القوة و القدرة ، و الرجولة و الشجاعة.

فأعدوا منطقة واسعة من الأرض جمعوا فيها الحطب لمدة أربعة أشهر ، ليس فقط من أجل حرق إبراهيم (ع) و إنما أيضا من أجل إعادة هيبة الأصنام ، فالطاغوت يعيش على الهيبة و الارهاب ، وإذا فقدهما لا يبقى عنده شيء يسيطر به على الناس.

وكان لهم فلسفة أخرى وهي إشراك الناس في جريمة حرق النبي عن طريق دعوتهم للاشتراك في جمع الحطب و إعداد مكان لاحراقه ، حتى لا تتحرك فيهم المشاعر الانسانية و الفطرية ، و يثوروا على الطاغية نمرود ، تماما كما فعل ابن زياد الوالي الأموي بأهل الكوفة حيث بعث كل أهل الكوفة لحرب الامام الحسين)ع) حتى يشركهم في جريمة قتل الامام المفترض الطاعة ، و بالتالي يأمن سخطهم و ثورتهم مستقبلا.

و صنعوا لنمرود مكانا عاليا يجلس عليه و يتفرج على عملية حرق إبراهيم ثم توقفوا .. ماذا نفعل ؟ النار كانت من الشدة بحيث تحرق كل من يقترب منها ! فأوحى الشيطان إليهم بمكيدة فجاؤوا بالمنجنيق ، و وضعوا فيه إبراهيم مغلولا ، ثم قذفوا به الى تلك النار المستعرة قذفا.

يد الرحمة:

] [69]قلنا يا نار كوني بردا و سلاما على إبراهيم]حينما قال الله سبحانه و تعالى " يا نار كوني بردا " أخذ إبراهيم يرتجف من شدة البرد ، و لكن سرعان ما قال ربنا " و سلاما " فاعتدلت درجة الحرارة و قد جاءت قصة مفصلة في تفسير علي بن إبراهيم نذكرها فيما يلي لمزيد العبر التي فيها:

تقول الرواية -فيما تقول - فجلس إبراهيم و جمع له الحطب ، حتى إذا كان اليوم الذي ألقى فيه نمرود إبراهيم في النار برز نمرود و جنوده و قد كان بني لنمرود بناء ينظر منه إلى إبراهيم (ع) كيف تأخذه النار ، فجاء إبليس و اتخذ لهم المنجنيق لأنه لم يقدر أحد أن يتقارب من النار ، و كان الطائر إذا مر في الهواء يحترق ، فوضع إبراهيم في المنجنيق و جاء أبوه فلطمه لطمة و قال له :إرجع عما أنت عليه ، و أنزل الرب تبارك و تعالى ملائكة الى السماء الدنيا ولم يبق شيء إلا طلب الى ربه ، و قالت الأرض يا رب ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيحرق ؟! و قالت الملائكة : يا رب خليلك إبراهيم يحرق ؟ !فقال الله عز وجل : إنه إن دعاني كفيته ، و قال جبرئيل : يا رب خليلك إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره سلطت عليه عدوه يحرقه بالنار ؟ فقالوا : اسكت إنما يقول هذا عبد مثلك يخاف الفوت ،هو عبدي آخذه

إذا شئت ، فان دعاني أجبته ، فدعا إبراهيم (ع) ربه بسورة الاخلاص ، يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يامن لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد نجني من النار برحمتك ، قال : فالتقى معه جبرئيل في الهواء و قد وضع في المنجنيق ، فقال :يا إبراهيم هل لك إلي من حاجة ؟ فقال إبراهيم (ع) أما إليك فلا ، و أما الى رب العالمين فنعم ، فدفع إليه خاتما مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله (ص) ألجأت ظهري الى الله و أسندت أمري الى الله و فوضت أمري الى الله ، فأوحى الله عز وجل الى النار : كوني بردا فاضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتى قال ، و سلاما على إبراهيم ، و انحط جبرئيل (ع) و جلس معه يحدثه في النار و نظر نمرود فقال : من اتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبراهيم ، فقال عظيم من عظماء أصحاب نمرود : إني عزمت على النار أن لا تحرقه ، فخرج عمد من النار نحو الرجل فأحرقه ، فآمن له لوط فخرج مهاجرا الى الشام ، و نظر نمرود الى إبراهيم في روضة خضراء في النار مع شيخ يحدثه فقال لآزر : يا آزر ما أكرم ابنك على ربه . (١)[٧٠] [و أرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين[

هذه عبرة لي و لك ، تحد الطاغوت و تحد المجتمع الفاسد المنحرف ، و تحد الأصنام التي تعبد من دون الله ، وفي لحظة المواجهة تدركك رحمة الله سبحانه ، فلا(١) نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٣٢.

تخف ، لأن أهم شيء يربطك بعجلة الانحراف هو حبائل الخوف و أغلال الرهبة ، فاقطع هذه الحبال و تلك الأغلال حتى تتحرر ، و تكون أنت الفائز و أعداؤك الأخسرون.

الهجرة في سبيل الله:

] [71]و نجيناه و لوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين]بدل هذه الأرض المحكومة بالطاغوت ، أعطاه الله أرضا حرة و مباركة هي فلسطين.

] [72]و وهبنا له إسحاق و يعقوب نافلة و كلا جعلنا صالحين]و أعطاه الله سبحانه أيضا اسحاق ، و من بعده يعقوب ، و من بعد يعقوب جيلا من المؤمنين الملتزمين الذين يدعون بالأسباط ، حيث عوضه الله بهم عن ذلك المجتمع الفاسد الذي اصطدم به في دعوته التوحيدية.

و أنت أيها المؤمن أيضا ..هاجر ولا تقل هذا أبي و هذا أخي و هذا صديقي .. الخ ، إترك كل ذلك و هاجر من المجتمع الفاسد إذا لم تستطع أن تصلحه ، و آنئذ يعوضك الله تعالى بأفضل منهم.

] [73]و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا[

جعل الله الذين هاجروا أئمة وهذه من نتائج الهجرة في سبيل الله.

]و أوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة]هذا هو برنامجه : أعمال الخير - الزكاة - الصلاة ..

]و كانوا لنا عابدين[

و التحرر الكامل عن سلطة الشرق و الغرب ، و الادانة بالعبودية المطلقة لله سبحانه و تعالى فقط.

إن هذه القيادة و الامامة تجسدت في إبراهيم عبر أكثر من خمسة آلاف سنة و الى يومنا هذا ، في ذلك اليوم جاءه حامية ظاهرا و أقرب الناس إليه و هو عمه آزر - لما غلوا يديه ليلقوا به في النار - فبصق في وجهه و قال : ألم أنهك يا إبراهيم فلماذا فعلت ، هذا هو جزاء فعلتك .. بلى في تلك الأرض لم يكن أحد يدافع عن إبراهيم ، و لكن الى الآن و الأجيال التي بعدنا، تلهج ألسنتهم بذكر إبراهيم و مدحه ، و كل واحد يبحث عن طريقة إبراهيم ليقتدي به فيها ، و هذا جزاء من أحسن عملا ، في الدنيا ، أما الجزاء الأكبر فهو ينتظر المحسنين في الآخرة.

هكذا ينصر الله رسله بالغيب
هدى من الآيات
هنالك سؤالان يتبادران الى الذهن عندما يقرأ الانسان القرآن ، و هما:

أولا : لماذا يكثر القرآن من قصص الأنبياء في آياته ؟

ثانيا : لماذا يذكر القرآن قصص الأنبياء بصورة متفرقة و في سور مختلفة ؟

الجواب على السؤال الأول هو:

أ - لكي يبين لنا بأن رسالات جميع الأنبياء تسير في خط واحد ، و تدعو في جوهرها الى شيء واحد و هو منهج التوحيد.

ب -لكي يكرس كونهم قدوة و أئمة لنا ، و بالتالي نستفيد من أقوالهم و أفعالهم و مواقفهم و نطبقها في واقع حياتنا العملي الذي نعيشه.

و الجواب على السؤال الثاني باختصار:

أ - إن القصص التي يوردها القرآن ليست هدفا في حد ذاتها حتى يسردها مرة و احدة.

ب -إن تكرار القصة في مواضع متعددة يشعر بأهميتها ، و يلفت النظر الى ضـرورة التفكر فيها و دراستها جيدا ، و من ثم الاقتداء بأخلاق الأنبياء و مواقفهم فيها.

ج - عندما يكرر القرآن ذكر القصة الواحدة ، فانه لا يكرر جزئياتها ، و إنما في كل مرة ينقل جانبا معينا منها يتناسب مع المواضيع التي يعالجها السياق ، و هذا الاسلوب يلقي أضواء كاشفة على أحداث القصة ، و يظهر العبر المطلوبة منها ، و كذلك يجعلها شيئا فشيئا تتكامل في الأذهان لتكون - بالتالي - برنامج عمل في الحياة بالنسبة الى المؤمنين.

و في سورة الأنبياء يضرب القرآن الحكيم مثلا من واقع مسؤولية الانسان في الحياة ، و هي على جانبين:

الأول : مسؤولية أعماله السيئة ، و يقابلها العقاب الصارم ، كما حدث لقوم لوط و نوح.

الثاني : مسؤوليته تجاه أعماله الحسنة ، و يقابلها الثواب الجزيل ، كما حدث للوط و نوح و من آمن بهما .

كما يبين لنا أن الأنبياء كانوا في ساعات الشدة يتوجهون الى ربهم بالدعاء فينجيهم من بطش أعدائهم ، و هذا يكشف لنا إن حياة الأنبياء - أساسا - لم تكن مفروشة بالورد ، بل كان ملؤها الآلام و المشاكل ، و لكنهم انتصروا عليها باذن الله ، مما يعطينا شحنة من الأمل و الاندفاع في مواجهة صعوبات حياتنا و تحدياتها ، إذ سنكون على يقين من إنه ، إن عجزت قدراتنا عن الصمود أمامها فان هناك من يمدنا بالعون اللازم و هو الله العزيز القدير.

بينات من الآيات
نجاة لوط:

] [74]و لوطا آتيناه حكما و علما[

أهم نعمة يسبغها الرب لعبده هي نعمة الهدى ، التي تؤدي الى معرفة الحقيقة ، و غاية الهدى النبوة ، و قد أعطى الله لوطا " حكما " أي نبوة ، و النبوة : ليست مجرد علم غيبي بالحقائق ، بل هي أيضا إذن من الله بالاستخلاف في الأرض و بالتالي إمامة الناس.

و لعله لذلك اختلفت معاني كلمة " الحكم " و موارد استعمالها في الكتاب ، فحينا تستعمل في الرسالة ، و حينا في القضاء ، و حينا في العقل ، و الجميع ينتهي الى ذات المنصب الالهي الذي يجمع كل تلك الفضائل.

و علما : أي معرفة الحقائق التفصيلية.

و الى جانب الحكم و العلم أعطى الله لوطا : نعمة أخرى و هي نجاته من الأخطار المادية و المعنوية المحيطة به ، حيث نجاه من القرية التي كان أهلها يقومون باللواط ، و قطع الطرق ، و كثير من المنكرات و أنقذه من أذى قومه السيئين و الخارجين عن أمر الله و المبعدين عن دينه و شريعته.

]و نجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث[

و نسب السياق المنكرات الى ذات القرية ، إشارة الى أن جميع أهلها كانوا كذلك ، حتى و كأن القرية ذاتها كانت تعمل الخبيث.

]إنهم كانوا قوم سوء فاسقين[

كانت أخلاقهم سيئة ، و كان عملهم فسقا ، و مثل هؤلاء لا يتوقع منهم إلا الشر و الأذى و الاعتداء على رسل الله ، وعلى كل من يرفع صوته مناديا بالصلاح و التغيير.

] [75]و أدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين[

شبه الرحمة بالبيت الذي يدخله الانسان ، فيحيط به من جميع جوانبه و يحفظه من الأخطار الخارجية ، و يمده بأسباب الراحة و الاطمئنان في الداخل ، و قد أدخل الله عز وجل نبيه لوطا في رحمته الخاصة ، لأنه كان من الصالحين ، أي كان سليم النية مخلص القلب عالي الأخلاق.

هكذا استجاب الله لنوح (ع: (

] [76]و نوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه و أهله من الكرب العظيم]هذه الآية تبين أهمية الدعاء و عظمة شأنه ، إذا كان مستكملا لاركانه و شرائطه ، فنوح (ع) صبر و استقام في أداء رسالته ، و أخلص الطاعة لربه و خالقه ، فلما تعرضت الأمة المنحرفة لخطر الطوفان الرهيب الذي لم يكن ليصمد أمامه شيء ، و لم تكن حتى سفينة نوح كافية للافلات من غضبه الأمواج الهادرة ، طلب نوح (ع) من ربه النجاة ، فجاءته الاستجابة الالهية الكريمة لتشمله هو و من كان معه باللطف و العناية ، و تشير الآية الى أن هناك شرطين أساسيين للدعاء:

أ - العمل في مسير الدعاء ، أي أن يكون الدعاء مصحوبا بما يتمكن عليه الانسان من العمل و السعي في اتجاه الهدف المطلوب ، لا أن يكون و سيلة للقعود و التهرب من المسؤولية ، و نوحا إنما دعا ربه بعد (٩٥٠) عاما مـــن الدعوة و الجهاد.

ب - الخشوع و التضرع الى الله سبحانه ، بحيث يتمثل الانسان نفسه واقفا بين يدي ملك الملوك جبار السماوات و الأرض ، أما أن يدعو ربه ، و يكون فكره مشغولا بمواضيع دنيوية أو متــعلقا بأشخاص آخرين ، فهذا ليس من أدب الدعاء و ليس طريقا للاستجابة أبدا.

و الدعاء الصحيح يحول الانسان من حضيض البئر الى ملك يجلس على عرش مصر ، كيوسف (ع) ، و من رجل مطارد يلقى به في أتون النار الملتهبة الى إمام للناس يصبح بداية تأريخ ، كابراهيم (ع) ، و من شاب مغمور الى ملك مهاب ، كداود (ع) ، أو من رجل قد أحاط المرض و الفقر به الى إنسان سوي ثري ذي أهل و أولاد و جاه في المجتمع ، كأيوب (ع) (على نبينا و آله و عليهم أفضل الصلاة و السلام) ، و كل ذلك جرى بالقدرة الالهية الغيبية ، و بواسطة الألطاف الرحمانية التي شملتهم ، بسبب إخلاص طاعتهم و توجيههم لخالقهم.

و هذا هو معنى المسؤولية ، حيث إنها لا تقتصر على العمل و تحمل الأذى و الصعاب فقط ، و إنما تمتد الى انتظار الفرج ، و توقع الثواب من قبل الرب الغني الحميد ، الذي يعجل بجزء من رحمته لعبادة الصالحين في الدنيا ، و يؤجل الأعظم منها الى الحياة الأبدية فيالدار الآخرة.

] [77]و نصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا[

إن إنقاذ الانسان من مجتمعه الفاسد قضية هامة تركز عليها هذه الآيات بل كل سورة الآنبياء ، و إن من الأصنام المجتمع الذي إن لم يقدر على إصلاحه فعليه أن ينقذ نفسه منه باللجوء الى الله ، فان البلاء إذا نزل عم ، و هكذا أنقذ الله نوحا من القوم الذين كذبوابآيات الله.

]إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين[

كانت أعمالهم منحرفة و نفوسهم خبيثة ، لذلك أغرقهم الله ، و لم يبق أحد منهم على الأرض ، حيث استجاب الرب دعاء نوح فيهم حين دعاه قائلا : " رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. "

سليمان و القضاء الفصل

] [78]و داود و سليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم و كنا لحكمهم شاهدين[

من مظاهر رحمة الله بعبده الذي يبحث عن الهدى و يجاهد من أجله ، إن الله سيهديه . و سورة الأنبياء تؤكد في مواضع مختلفة على هذه الفكرة و هي : إن العقل و الهدى أفضل نعمة يتمتع بها الانسان ، و قد وهب الله هذه النعمة لداود و سليمان حيث كانا يحكمان في قضية معقدة وقعت على عهدهم حيث إن قطيعا من غنم قوم دخل حقل كرم لقوم آخرين ، و أفسد الزراعة . و لعلنا نستوحي من هذه القصة إن مجتمع داود كان ينقسم الى قسمين : مجتمع زراعي ، و مجتمع رعاة ، و كانوا يختلفون ، حيث إن الرعاة كانوا يأتون بأغنامهم الى المدينة و يطلقونها فاذا جن الليل تهيج الأغنام فتدخل في الحقول المزروعة و تعبث بها ، و كان أصحاب الحقول يطالبون بدفع تعويضات عن خسارتهم.

قال تعالى:

]إذ نفشت في غنم القوم[

إن الغنم ترعى في الليل بشكل غير منتظم ، و هكذا حين دخلت على مزرعة الناس أهلكتها ، فلما جاء المزارعون راوا أنه لم يبق من كرومهم شيء ، لا العناقيد ولا الأوراق ، فحكم داود - كما جاء في بعض النصوص - أن يكون الغنم من نصيب صاحب الحقل ، و لعل حكمة هذا القضاء تكمن في أن على اصحاب الماشية حفظها ليلا بينما على صاحب الزرع حفظها نهارا ، حيث جاء في حديث مأثور عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله (ص) : " إنه قضى بحفظ المواشي على أربابها ليلا ، و قضى بحفظ الحرث على أربابه نهارا " . (١)و حسب ما جاء في الحديث : " كان سليمان جالسا عند والده ، فقام ، و قال : لا يا أبتاه ليس الحكم كما ذكرت ، قال : فما هو الحكم ؟ قال : الحكم هو أن نعطي البساتين التي أتلفت بسبب نفش الغنم ، لأصحاب الأغنام ليقوموا باصلاحها ، و نعطي الأغنـام لاصحابالبساتين يستفيدون من لبنها و صوفها و نتاجها حتى تصلح بساتينهم ، ثم يرجع كل شيء لصاحبه ، فيكون أصحاب الغنم قد دفعوا ثمن إهمالهم و تفريطهم ، و يكون أصحاب البساتين قد عوضوا عن الأضرار التي لحقت بمزروعاتهم . "

(1)مجمع البيان / ج ٧ / ص ٥٨.

] [79]ففهمناها سليمان[

لقد أعطى الله الحكم لسليمان حيث كان وصي داود ، و كان شديد الاهتمام بتحمل مسؤوليته ، و كان

يسعى نحو تطبيق العدالة ، فوهب الله له حكما.

]و كلا آتينا حكما و علما[

داود أيضا كان على حق ، و هنا نتعرض للسؤال التالي : إذا كان داود نبيا كسليمان ، فكيف اختلف قضاؤهما ، و هل كان كلا الحكمين صحيحا ، كما نستوحي من هذه الآية ، إذا كيف يكون لواقعة واحدة حكمان مختلفان ؟

الجواب:

أولا :جاء في النصوص ما يوحي الى أن الحكم الثاني كان بمثابة النسخ ، حيث يسأل أبو بصير عن أبي عبد الله (ع) قال قلت له : قول الله عز وجل : " وداود و سليمان إذ يحكمان في الحرث " قلت : حين حكما في الحرث كان قضية واحدة ؟ فقال (ع) : " إنهكان أوحى الله عز وجل الى النبيين قبل داود الى أن بعث الله داود : أي غنم نفشت في الحرث فلصاحب الحرث رقاب الغنم ، و لا يكون النفش إلا بالليل ، فان على صاحب الزرع أن يحفظه بالنهار ، و على صاحب الغنم حفظ الغنم بالليل ، فحكم داود بما حكمت به الأنبياء (ع)من قبله ، و أوحى الله عز وجل الى سليمان (ع) : وأي غنم نفشت في زرع فليس لصاحب الزرع إلا ما خرج من بطونها ، و كذلك جرت السنة بعد سليمان (ع) و هو قول الله عز وجل : " وكلا آتينا حكما و علما " فحكم كل واحد منهما بحكم الله عز وجل(1) . "

(1)نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٤٢.

ثانيا : جاء في حديث مأثور : " إن الله أراد أن يكشف للناس فضل سليمان ، و إنه وصي أبيه و خليفته من بعده " . (١)ثالثا : إن داود لم يحكم إنما كان يناظر ابنه في الحكم ، و بذلك أيضا وردت نصوص شرعية .

رابعا : إن قيمة ما أتلفه الغنم في حقل القوم كانت بقيمة الغنم ، و كانت هناك طريقتان لاستيفاء هذه القيمة : الأولى أخذ الغنم ، و الثانية أخذ نتاجها لعام واحد ، و قد حكم كل نبي بطريقة معينة ، و قد قال داود لسليمان بعد الحكم ، فكيف لم تقض برقاب الغنم ،و قد قوم ذلك العلماء من بني إسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم ، فقال سليمان إن الكرم لم تجتث من أصله و إنما أكل حمله و هو عائد في قابل . (٢)النعمة و المسؤولية:

]و سخرنا مع داود الجبال يسبحن و الطير و كنا فاعلين]هناك تفاسير مختلفة وردت في هذه الكلمات لعل أقربها - و الله العالم - إن الله سبحانه و تعالى سخر لداود (ع) الجبال بما فيها من معادن و إمكانات ، و سخر له الطيور بما تملك من قدرات على الطيران ، فما بال الانسان يتمرد على ربه ، و هو يستخدم المعادن من الجبال ، و يسخر الطيور ، فيا أيها الانسان : إن الحديد المسخر لك ليس ملكك إنما هو بيدك لفترة محدودة ، و هذه الآلة الحديدية التي تستخدمها قد تأتي يوم القيامة و تقول : إلهي أنت سخرتني لفلان فما فضله علي ، فاذا استطعت أن تثبت - يوم القيامة - بأنك كنت إنسانا، و تحملت مسؤوليتك في الحياة فأنت أفضل من الحديد.

(1)المصدر / ص ٤٤٣.

(2)المصدر.

إن الطيور و الجبال و الأشياء كلها لله و ليست لنا ، و لكن كلما سخرنا الأشياء ، كلما ازدادت مسؤوليتنا و كبرت ، و يوم القيامة نحاسب حسابا عسيرا . إذا كانت هناك أرض (موات) و كان من الممكن إصلاحها و استصلاحها بناء أو زراعة أو رعيا أو أي شيء آخر ، ولم تصلحها ، فان هذه الأرض قد تأتي يوم القيامة

لتشتكي عند الله قائلة : إلهي أنت سخرتني من أجل الناس و لكنهم لم يستفيدوا مني.

إن المسؤوليــة بالنسبة للانسان دقيقة و شاملة فهو مسؤول عن كل ما يحيط به ، كما هو مسؤول عن نفسه و أهله و مجتمعه.

إن داود لم يكن بالذي يسخر الجبال بقوته الذاتية ، و البشر ليسوا بالذين يسخرون الحديد و النار بطاقاتهم الذاتية ، بل الله يفعل كل ذلك بقدرته و يسخرها لهم بفضله ، فلو نامت البشرية ليلة ثم استيقظت و قد سلب الله منهم العقل لأصبحوا وحوشا بكماء ، فهل يقدرون على شيء من حضارتهم ؟ كلا .. ولا تشغيل سيارة أو إنارة مصباح فلماذا لا يشكرون الله بعمل الصالحات ، و تحمل المسؤولية ؟

] [80]و علمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون]اللبوس : كل أداة حربية يلبسها الانسان من درع و جوشن و غيره ، و البأس الحرب.

لقد كانت حركة داود إصلاحية في الأرض ، تتطلب صد هجمات الأعداء و المعارضين ، و لذلك فقد ألهمه الله طريقة صنع الدروع ، و ألان له الحديد ، و هناك نكتة ظريفة في الآية و هي : إن الله لم يعلمه صناعة آلات حربية هجومية مدمرة ، بل اقتصر على الآلات الدفاعيةو لعل ذلك يوحي بأن الرسالات الالهية لا تدعو الى القتل و الدمار ابتداء ، و انما هي تدعو الى الاصلاح و السلام ، و لذلك فهي بحاجة الى الدفاع عن نفسها في مواجهة أعداء الإسلام و الانسانية.

] [81]و لسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين]كانت الريح تحمل سليمان (ع) بأمر الله سبحانه لتنقله الى أي مكان شاء في مدة قصيرة ، و قد يأتي يوم يكتشف فيه علماء التأريخ و الآثار إن الطائرة كانت مصنوعة من أيام سليمان (ع) ، حيث كانت تنقله يوميا بين القدس و قلاع بعلبك ليشرف على أمور مملكته.

] [82]و من الشياطين من يغوصون له و يعملون عملا دون ذلك]الى الآن لم يصل العلم هذا المستوى ، و لكن ليس من المستحيل أن يستخدم البشر الشياطين في يوم ما ليقوموا ببعض الأدوار ، إن البشر الآن يستخدم أنواعا من الحيــوانات كالدلافين في أعمال الانقاذ أو عملية التجسس ، و الكلاب لاكتشاف المجرمين ، و الحمام الزاجللنقل الرسائل ، و هكذا .. و لكنه في المستقبل ينبغي أن يصل الى درجة استخدام الأرواح و الشياطين.

الغوص كان أصعب الأعمال حيث لم يكن أحد من البشر في تلك الأيام يستطيع القيام به و لكن الشياطين كانوا يقومون به بكل سهولة بالاضافة الى أعمال أخرى أيضا ، مثل البناء..

إن الذاهب الى بعلبك يرى تلك القلاع الضخمة المبنية من صخور هائلة و التي لا يعرف البشر الى الآن كيف جيء بها إلى هناك من أماكن بعيدة ، حيث إن تلك الصخور لم تكن موجودة في تلك الأرض ، من أتى بهذه الصخور ، و من بنى تلك القلاع ؟ يبدو ان الشياطين فعلوا ذلك.

]و كنا لهم حافظين[

إن هذه الطاقة الهائلة المتمثلة بالشياطين لم تكن فالتة الزمام ، بل كانت محفوظة في إطارها المرسوم من قبل الله سبحانه و تعالى ، و هذه إشارة للانسان بأن توجهه الى الله و توكله عليه يعطيه إمكانية لتسخير الأشياء ، و حل المشاكل في الحياة.

وحدة الرسالات و الأنبياء

هدى من الآيات

في الدرس السابق بينا إن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام هم قدوات للبشر و إنما تتكرر قصصهم في القرآن الحكيم - المرة بعد الأخرى - و بأساليب مختلفة لكي تتكرس قيادتهم للبشرية ، ولا تزال آيات القرآن الحكيم تؤكد هذه الفكرة ، فبعد أن تذكر قصص بعض الأنبياءعليهم الصلاة و السلام ، تبين إن هؤلاء جميعا كانوا يتبعون خطا فكريا واحدا هو التوحيد ، و لذلك يجب على الانسان أن يتبعهم و يتخذهم قدوات في حياته ، وإن أفعال الأنبياء (ع) و صفاتهم و سيرتهم ، و إن اختلفت صورها ، فانها واحدة في

المحتوى ، و إن وحدة الأفعالو الصفات و السير عندهم هي بقدر يكفي الانسان للاقتداء بهم.

و بالرغم من إن القرآن الكريم في هذه السورة بالذات لم يبين جوانب عديدة من حياة الأنبياء ، إنما أشار الى أسمائهم و الى أبرز صفاتهم إشارة خاطفة ، لكنه مع ذلك يقول في نهاية قصصهم " وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " ، لماذا ؟

لكي يقول لنا بأن هذه المجموعة هي المجموعة " القدوة " و هي المجموعة " الامام " بالنسبة اليكم أيها البشر.

و لتأكيد هذه الفكرة تشير هذه الآيات و التي قبلها الى هؤلاء و تأتي بأسمائهم متتالية بالرغم من إنهم كانوا في عصور مختلفة و أمصار متفرقة ، حتى إن القرآن أتى باسمائهم بصورة غير مرتبة تأريخيا.

فيذكرنا بموسى ثم بإبراهيم ثم بنوح ، ثم بسليمان و أيوب ، ثم بإدريس ، و بين هؤلاء آلاف السنين ، و إن أحدهم قبل أو بعد الآخر ، و ذلك لكي لا يقول فرد أو مجتمع ما إنني أتبع النبي الأخير ولا أتبع النبي الأول ، أو إنني أومن بالنبي الأوسط أو الأول دون الأخير ، فكلهم نور واحد ، و يجب علينا أن نقتدي بهم جميعا.

و القرآن الحكيم يتبع ببيانه للقصص و الأحكام و العبر و الأمثال ، خطا واحدا هو خط التوحيد ، و التوحيد هو : صبغة القرآن التي يضعها على كل قصة ، و على كل عبرة ، و كل حكم تشريعي ، و كل رؤية و بصيرة.

و إن لله سبحانه أسماء حسنى و يهدينا الذكر الى أسماء ربنا العزيز ، ومن هنا تجد و كأن كل سورة من سور القرآن قد خصصت لبيان اسم من أسماء الله الحسنى ، و هذه السورة بالذات تبين اسم المجيب حيث إن الله قريب من الانسان ، يستجيب له و يسمع نداءه و الأنبياءالكرام عليهم الصلاة و السلام بعد أن توكلوا عليه في أشد لحظات حياتهم ، فاذا به يستجيب لهم و ينصرهم ، ويعطيهم أكثر مما طلبوا.

وهذه من خصائص فضل الله سبحانه و تعالى ، اذا فتحت أبواب رحمته فانها تفيض من كل جانب لكثرتها و تنوعها حتى تكون حياتك اضيق من استيعاب كل رحمة الله ، كما إذا فتحت أبواب السماء بالمطر كيف نرى الأرض عاجزة عن استقبال أمطار السماء حتى أنها تعيد الزائد منها الى البحار مرة أخرى.

بينات من الآيات

قصة النبي الصابر

[83]أصيب بالمرض و مات أهله ، و نفذت مواشيه ، و كان عزيزا في قومه فافتقر ، فابتعد عن الناس بسبب فقره و مرضه ، و كانت زوجته الوفية هي التي تخدمه ، و تنفق عليه و ذلك بقيامها بالخدمة في بيوت الناس بعد أن كانت ملكة في قريتهــا ، و حينما يطفح به الكيليبدأ بالدعاء ، ذلك هو النبي الصابر أيوب عليه السلام ، و لكن انظر كيف يدعو ؟

] [83]و أيوب إذ نادى ربه أني مسنى الضر[

لأن الله عالم بما أصاب أيوب ، فلابد أن يكون نداءه استعطافا و دعاء وكأنه يقول يا رب إن الضر قد بلغ مني غايته ، و لعل التعبير بـ (النداء) هنا للدلالة على إن الضر قد دفع بأيوب الى أن يعلو صوته و يصرخ ، مع إن الله قريب يناجى و ليس ببعيد حتى ينادى.

]وانت أرحم الراحمين[

أرحم الراحمين ، فاليك أتوجه بالدعاء لترفع عني هذا الضر.

] [84]فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر و آتيناه أهله و مثلهم معهم رحمة من عندنا و ذكرى للعابدين]هذه عبرة لنا نحن الذين نعبد الله لكي نعلم ، أي رب رحيم نعبده ، و كيف إنه يستجيب دعاءنا ، فلا

يكشف السوء عنا فقط ، إنما و يزيدنا من فضله أيضا.

و يبقى سؤال : لماذا ابتلى الرب أيوب و هو النبي العظيم المكرم عند ربه ؟

و ماذا كانت بليته ، و ما الذي نعتبره من قصته ؟

للاجابة عن هذه الأسئلة و غيرها أنقل هنا نص حديثين مأثورين عن أئمة الهدى عليهم السلام:

- 1الحديث الأول مأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر (ع (يفند فيه الامام المزاعم التي كانت رائجة و تدعي أن أيوب ابتلي بسبب ذنب ارتكبه ، و أنه قد بلغ به البلاء حدا نبذه الناس ، يقول الامام (ع) : " إن أيوب (ع) ابتلي بغير ذنب ، وأن الأنبياء معصومون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا " و قال (ع) : " إن أيوب مع جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة ، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ، ولا إستقذره أحد رآه ، ولا استوحش منه أحد شاهده ، ولاتدود شيء من جسده ، و هكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبليه من أنبيائه و اوليائه المكرمين عليه ، و إنما اجتنبه الناس لفقره ، و ضعفه في ظاهر أمره ، لجهلهم بما له عند ربه تعالى ذكره من التأييد و الفرج (١) ، و قد قال النبي (ص) أعظم الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، و إنما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لئلا يدعوا له معه(١) في المصدر) القرح) و أظنه خطأ.

الربوبية (١) إذا شاهدواما أراد الله تعالى ذكره أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ، ليستدلوا بذلك على إن الثواب من الله تعالى على ضربين : استحقاق و اختصاص و لئلا يحقروا ضعيفا لضعفه ، ولا فقيرا لفقره ، ولا مريضا لمرضه ، و ليعلموا أنه يسقم من يشاء ويشفي من يشاء ، متى شاء كيف شاء بأي شيء شاء ، و يجعل ذلك عبرة لمن يشاء ، و شقاوة لمن يشاء ، و هو عز وجل في جميع ذلك عدل في قضائه ، و حكيم في أفعاله ، لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة إلا بالله " . (٢)هكذا يؤكد هذا الحديث : إن حكمة إبتلاء أيوب (أولا أقل العبرة التي نستوحيها منه) عدم جعل البلاء في الدنيا دليلا على غضب الله ، بل قد يكون دليلا على قرب صاحبه من الله.

- 2أم الحديث الثاني المروي عن أبي بصير عن الامام الصادق (ع) فانه يفصل القول في بلاء أيوب كيف كان ، و متى طفح كيل الصبر عنده:

"إنما كانت بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا ، لنعمة أنعم الله بها عليه فأدى شكرها ، و كان إبليس في ذلك الزمان لا يحجب دون العرش ، فلما صعد عمل أيوب بأداء شكر النعمة ، حسده إبليس ، فقال : يا رب إن أيوب لم يؤد شكر هذه النعمة إلا بما أعطيته من الدنيا فلو حلت بينه و بين دنياه ، ما أدى إليك شكر نعمة ، فقال : قد سلطتك على دنياه ، فلم يدع له دنيا ولا ولدا إلا أهلك كل شيء له ، و هو يحمد الله عز وجل ، ثم رجع إليه فقال : يا رب إن أيوب يعلم إنك(١) كذا في النص و أظنه خطأ و المعنى لكي لا ينسبوا أيوب الى الربوبية ، هذه الفكرة مذكورة في نصوص أخرى أيضا.

(2)المصدر / ص ٤٤٧.

سترد إليه دنياه التي أخذتها منه ، فسلطني على بدنه تعلم إنه لا يؤدي شكر نعمة ، قال الله عز وجل : قد سلطتك على بدنه ما عدا عينه و قلبه و لسانه و سمعه ، فقال أبو بصير : قال أبو عبد الله (ع) : فانقض مبادرا ، خشية أن تدركه رحمة الله عز وجل فتحول بينه و بينه ، فنفخ في منخريه من نار السموم ، فصار جسده نقطا نقطا (١) ، فلما اشتد به البلاء و كان في آخر بليته جاءه أصحابه فقالوا : يا أيوب ما نعلم أحدا ابتلي بمثل هذه البلية إلا لسريرة سوء ، فلعلك اسررت سوء في الذي تبدي لنا ، قال : فعند ذلك ناجى أيوب ربه عز وجل: رب ابتليتني بهذه البلية و أنت تعلم إنه لم يعرض لي أمران قط إلا لزمت أخشنهما على بدني ، و لم آكل أكلة قط إلا وعلى خواني يتيم ، فلو أن لي منك مقعد الخصم لأدليت بحجتي (٢) قال : فعرضت سحابة فنطق فيها ناطق فقال : يا أيوب أدل بحجتك ، قال : فشد عليه مأزرهوجثا على ركبتيه و قال : أبتليتني و أنت تعلم إنه لم يعرض لي أمران قط إلا لزمت أخشنهما على بدني ، ولم آكل أكلة من طعام إلا وعلى خواني يتيم ، قال : فقيل له : يا أيوب من حبب إليك الطاعة ؟

قال : فأخذ كفا من تراب فوضعه في فيه ثم قال : أنت يارب (3) .و نستوحي من هذه الرواية عدة حقائق :

أ - إن شكر أيوب كان عظيما فامتحنه الله سبحانه بأعظم البلاء ليعرف الناس أن الشكر ليس عند الرضاء في منطق الأنبياء ، بل و أيضا عند البلاء ، و إن ايوب و سليمان في الشكر سواء.

(1)الى هنا ينقطع الحديث الماثور عن كتاب علل الشرائع عن أبي بصير ، و يستمر بعدئذ حديث آخر مشابه له مأثور في الإمام موسى بن جعفر (ع) . انظر المصدر.

(2)ادلى لحجة : طرحها و أصبح بها.

(3)المصدر / ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

ب - إن حكمة النبوة تتنافى مع التعيير ، و لذلك فان الله لا يدع أنبياءه عليهم السلام يتعرضون للشماتة بل يستجيب دعاءهم.

ج -إن أيوب ذلك العبد الصابر و ذلك النبي الكريم عند الله ، تاب الى ربه فور ما صدر منه ما يبدو أنه نوع من الفخر بعمله ، بالرغم من إن صبره و شكره و اجتهاده كان كل ذلك عظيما غاية العظمة.

صبر الأنبياء

] [85]و إسماعيل و إدريس و ذا الكفل كل من الصابرين[

يذكر الله سبحانه إدريس وذا الكفل و اسماعيل (ع) معا بالرغم من إن ترتيبهم الزمني كان هكذا : إدريس ثم إسماعيل فذا الكفل ، و ذلك لكي يبين صفة يجب أن نقتدي بهم منها و هي صفة (الصبر. (

لقد صبر ادريس على دعوة قومه فلم يستجيب له إلا قليل حتى رفعه الله إليه.

أما إسماعيل فقد ابتلاه الله حين أمر والده بأن يتركه و أمه بواد غير ذي زرع عند بيــت الله الحرام ، فذاق العطش و الغربة ، و كان فيهما صابرا ، حتى إذا بلغ اشده ، أمر والده بذبحه فأسلم لله صابرا محتسبا.

وأما ذا الكفل فقد كان مرسلا الى قومه يتبع شريعة داود (ع) و قد كفل مجموعة من الأنبياء يقال : إنهم سبعون ، فأطلقهم و بقى مسجونا في بئر عميقة وضع على رأسها صخرة كبيرة ، و ظل صابرا ، الى أن أهلك الله الطاغوت فاطلق سراحه بعد ذلك.

] [86]و أدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين[

فلأنهم كانوا من الصالحين أدخلهم الله في رحمته ، و نحن أيضا يجب أن نصبح من الصابرين الصالحين حتى يدخلنا الله معهم.

دعاء يونس

] [87]و ذا النون إذ ذهب مغاضبا[

إن كلمة " ذا النون " تعني لغويا صاحب الحوت و هي تشير الى نبينا يونس بن متى)ع) ، و قصته تلخص في أنه دعا على قومه حيث لم يستجيبوا للرسالة و ذلك قبل أن يكون وقت الدعاء عليهم ، ثم خرج من قريته التي تضم حوالي (١٢٠) ألف شخص و هاجر عنها و هو يحسب أنه خرج من ضيق قومه حيث ابتعد عن الذين أصروا على عدم قبول دعوته ، رغم إنه بذل في إقناعهم جهودا كبيرة ، و لكنه انتقل من مكان ضيق الى ما هو أضيق منه ، في بطن الحوت ، الذي ابتلعه فمكث هناك و هو في حالة كرب شديدة.

]فظن ان لن نقدر عليه[

أي إعتقد أنه سيتجه الى الحرية ، بينما كان يتجه الى السجن الرهيب.

ذهب الى شاطىء البحر حيث جاءت سفينة فركب فيها ، و اذا بحوت ضخم يهاجم السفينة ليبتلعها ، فقال أهل السفينة دعونا نقترع فنأخذ واحدا من ركاب السفينة و نلقي به الى الحوت فيترك السفينة تواصل رحلتها ، و هكذا فعلوا فوقعت القرعة عليه كما قال ربنا سبحانه:
"فساهم فكان من المدحضين " (الصافات / ١٤١. (

لما اقترعوا ثلاث مرات خرج اسم يونس فيها جميعا ، و هذا كان من تقدير الله سبحانه ، لسجن نبيه عبرة لنا ، فألقي في البحر حيث يسارع ذلك الحوت الى إبتلاعه و غاص به في الأعماق فأصبح يونس في ظلمات متراكمة ، و هنا أدرك خطأه فأخذ يستغفر ربه و يناجيه ، تائبامعتذرا معترفا بكمال الله تعالى و بنقصانه هو:

]فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت[

إن الأنبياء معصومون ، ولكنهم يشعرون أمام الله سبحانه بالذنب و التقصير ، و حتى عبادتهم لا يعتبرونها عبادة لفرط إيمانهم بالله ، و تجلي نور الله في أفئدتهم ، و يعتبرون عبادتهم نوعا مــن التقصير بحق الله ، لانها بالتالي عبادات بشر ضعفاء عاجزين لذلك يقول:

]سبحانك[

أنت النزيه المقدس ، أما نحن فبشر نتصف بالنقص والجهل و العجز.

]إنى كنت من الظالمين[

لأنني من البشر ، وأنا شخصيا أتحمل مسؤولية خطئي ولا أحمله ربي أو الأقدار .

] [88]فاستجبنا له و نجيناه من الغم و كذلك ننجى المؤمنين]إن كلمة " ننجي المؤمنين " تعطينا الأمل بأننا مهما فرطنا في جنب الله فان باب الاستغفار مفتوح أمامنا ، و رحمة الله قابلة لأن تسعنا فلا داعي لليأس و القنوط.

دعاء زكريا:

] [89]و زكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا و أنت خير الوارثين]يقول : يا رب أنت الاله ، و أنت الوارث ، و لكني أحتاج الى من يرثني ، وزكريا (ع (لم يكن يطلب من الله وارثا يرث أموره المادية ، إنما كان يطلب وارثا يرث رسالته ، حسبما يبدو لي.

] [90]فاستجبنا له و وهبنا له يحيى و أصلحنا له زوجه]أي جعلنا له أسرة مثالية.

فيحيى كان نبيا منذ الطفولة ، و زكريا الذي قضى عمرا في تبليغ الرسالة و الدعوة اليها ، و كان شيخ المرسلين و كانت زوجته صالحة ، فكونوا جميعا تلك الاسرة المتكاملة.

]إنهم كانوا يسارعون في الخيرات[

هذه الأسرة قامت على أساس المسارعة في الخيرات ، و إن كل تجمع يدور حول محور معين ، وذلك المحور يعتبر روح التجمع ، و الاسرة الفاضلة هي الأسرة التي تتجمع و تتعاون و يندفع أفرادها الى أعمال الخير التي تعود عليهم و على مجتمعهم بالازدهار و التقدم.

]و يدعوننا رغبا و رهبا[

و الصفة الأخرى لهذه الأسرة هي المزيد من التوجه الى الله سبحانه ، و العمل بمنهجه ، و التمسك بروح العبادة و جوهر العبادة ، و لب الإيمان و هو الدعاء ، لأنه حبل متصل بين المرء و ربه.

و إذا خافوا من شيء دعوا الله ، و اذا أرادوا شيئا دعوا الله ، و لذلك جاء في محتوى الحديث الذي يخاطب به الله موسى : " إدعني لملح طعامك. "

]وكانوا لنا خاشعين[

الخشوع : هو صدق التوجه الى الله ، و عميق المعرفة بالنفس و عجزها و تقصيرها.

مريم نموذج المرأة الفاضلة

] [91]و التي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا[

إن الله قد خلق لكل الأجيال ولكل الافراد و لكل الطبقات ، و لكل الحالات البشرية نموذجا يقتدى به ، ومن النماذج المطلوبة في كل زمان و خصوصا في وقتنا الحاضر ، " المرأة القدوة " و كانت تلك المرأة القدوة هي (مريم بنت عمران) عليها السلام.

لقد اعتصمت من الرذيلة فأعطاها الله سبحانه عيسى ، و ذلك بعد أن نفخ جبرئيل في جيبها فحملت من دون أن يمسها بشر.

]و جعلناها و ابنها آية للعالمين[

أن تحمل إمرأة عذراء لم تتزوج و لم يسمها أي بشر ، و تلد طفلا سويا - معجزة عظيمة - جعلها الله للناس في جميع الأجيال آية دالة على هيمنته على الكون و تدبيره المباشر لما يجري فيه من أحداث.

الجزاء مصير حتمي

هدى من الآيات

تذكرنا الآيات بالجزاء ، و إن كل قرية أهلكت جزاء لأفعالها في الدنيا ، ستعود الى الآخرة لتلقى جزاءها العادل ، متى ؟ حين تجيء أشراط الساعة ، فتفتح السبل أمام اجتياح أقوام " يأجوج و مأجوج " حيث يتدفقون من كل حدب كالسيل ، هنالك يقترب البعـثذلك الوعد الحق ، فتظل أبصار الكفار شاخصة من هول القيامة ، و هم يقولون : قد كنا في غفلة عن هذا " ثم يعترفون بمسؤوليتهم عن هذه الغفلة التي تشهد شملتهم بالرغم من النذر التمواترة " فهم كانوا ظالمين . و يأتيهم الجواب : إن جزاءكم اليوم أن تنبذوافي نار جهنم ، أنتم و الآلهة التي زعمتم أنها تشفع لكم ، و تخلصكم من الجزاء.

ثم تقول :إن كانت تلك آلهة فعلا إذا ما دخلت النار ! بلى الكل في النار خالدا فيها ، لهم فيها زفير من شدة العذاب و هم فيها لا يسمعون.

بينـما الذيـن هداهم الله بعيدون عنها ، الى درجة أنهم لا يسمعون حتى حسيسها ، و هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون!

لا يخشون من الفزع الأكبر ، حيث تتلقاهم الملائكة بالبشر و الترحاب قائلة : هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

و في ذلك اليوم الرهيب يطوي الرب السماء ، كما يطوي الكتاب الأوراق ، كذلك يعيد الله الخلق كما بدأه ، إنه و عد الله الذي ألزم به نفسه سبحانه.

وحدة الرسالات و الأنبياء:

بينات من الآيات

خرة لتلقى جزاءها العادل ، متى ؟ حين تجيء أشراط الساعة ، فتفتح السبل أمام اجتياح أقوام " يأجوج و مأجوج " حيث يتدفقون من كل حدب كالسيل ، هنالك يقترب البعـث ذلك الوعد الحق ، فتظل أبصار الكفار شاخصة من هول القيامة ، و هم يقولون : قد كنا في غفلة عن هذا " ثم يعترفون بمسؤوليتهم عن هذه الغفلة التي تشهد شملتهم بالرغم من النذر التمواترة " فهم كانوا ظالمين . و يأتيهم الجواب : إن جزاءكم اليوم أن تنبذوا في نار جهنم ، أنتم و الآلهة التي زعمتم أنها تشفع لكم ، و تخلصكم من الجزاء.

ثم تقول : إن كانت تلك آلهة فعلا إذا ما دخلت النار ! بلى الكل في النار خالدا فيها ، لهم فيها زفير من شدة العذاب و هم فيها لا يسمعون.

بينــما الذيـن هداهم الله بعيدون عنها ، الى درجة أنهم لا يسمعون حتى حسيسها ، و هم فيما اشتهت أنفسهم خالدون!

لا يخشون من الفزع الأكبر ، حيث تتلقاهم الملائكة بالبشر و الترحاب قائلة : هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

و في ذلك اليوم الرهيب يطوي الرب السماء ، كما يطوي الكتاب الأوراق ، كذلك يعيد الله الخلق كما بدأه ، إنه و عد الله الذي ألزم به نفسه سبحانه.

وحدة الرسالات و الأنبياء:

بينات من الآيات

[92]بالرغم من ان الناس يختلفون في إنتماءاتهم ، و ولاتهم - كل يدعي انتماء لرسول و ولاء لإمام - فان المهم في الملإ الأعلى ، ليست هذه الانتماءات النظرية و الولاءات الصورية ، و إنما المهم هو العمل الصالح الذي يكون خالصا لوجه الله سبحانه و تعالى ، تحت ظل الانتماء و الولاء المشروع . إن العمل هو الذي يفرق بين أخوين ، كما يجمع بين رجلين غريبين ، يختلف كل شيء في حياتهما باستثناء (العمل الصالح. (

فالصــبر يجمع بين اسماعيل و ادريس و ذي الكفل - كما بينا في الدرس السابق - بالرغم من إن إدريس في بلد آخر ، و ربما في عصر ما قبل التأريخ المكتوب ، بينما ذو الكفل كان في عصر متأخر ، و في بلد ثان.

و يعود القرآن الى التأكيد على فكرة المسؤولية ، و تحطيم الأصنام النفسية ، التي تحول دون إيمان الانسان بمسؤوليته ، و من تلك الأصنام (صنم الطائفية. (

بعض الناس يتهربون من مسؤولياتهم في الحياة ، إعتقادا بأن دينهم الذي يلتزمون به و يتمسكون بعقائده أفضل من دين الآخرين ومن عقائدهم ، و أن نبيهم أفضل من سائر الأنبياء ، و أن إمامهم أفضل من سائر الأئمة ، و يحسبون أن ذلك يغنيهم عن العمل ، و عن تحمل مسؤوليتهم الجدية في الحياة ، و يأتي القرآن ، ليهدم هذه العقدة النفسية ، و يبين بأن الأنبياء هم أمة واحدة ويشكلون القدوة الحسنة للبشرية . فاذن ، لا مجال هناك لأيجاد خلاف بين الأنبياء ، لكي نقول : إنا ننتمي الى هذا فنحن أفضل منكم . كلا ! إن الذي ينتمي الى محمد (ص) ينتمي الى عيسى (ع) و موسى (ع) و إبراهيم (ع) و إدريس (ع) و نوح)ع) ، و جميع الأنبياء و الصديقين عليهم الصلاة و السلام ، و من ينتمي إليهم صادقا فهو ينتمي الى محمد (ص) ، و الانتماء الحقيقي هو العمل الصالح ، لذلك يربط القرآن بين فكرة و حــدة الأنــبياء و فكرة الجزاء ، و فور ما يحدثنا عن وحدة الأنبياء ، يقول الله تعالى:

]إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[

ويحدثنا في آيات تالية عن الآخرة ، و عن أشراط الساعة ، لان الاقتصار على الولاء النظري الجامد إنما هو صنمية يجب أن تحطم في نفوس البشر لكي لا يلجأ إليها الانسان خشية تحمله المسؤولية ، ذلك لأن القرآن يعالج الفكرة الخاطئة بأمرين:

أولا : يكشف القرآن الحكيم زيف الفكرة التي يعتمد عليها البشر ، و يبرر بها لا مسؤوليته ، ولا جديته في الحياة.

فمثلا يقول : إن الهروب الى ظل التفرقة الطائفية و المذهبية ، للتخلص من ثقل المسؤولية خطأ ، ذلك لان الرسالات الالهية إنما هي واحدة.

ثانيا : يقتلع الجذر النفسي الذي تعتمد عليه هذه الفكرة.

لماذا يهرب الانسان الى ظل الطائفية ، و المذهبية ؟ ولماذا يريد أن يفرق بين الله و رسله ؟ لأنه لم يستوعب حقيقة الجزاء بصورة جدية.

فاذا عرف الانسان : إن عمله سوف يجازى عليه جزاء حقيقية مؤكدا وإنه لا يستطيع أن يهرب من جدية الحياة و تحمل مسؤوليتها فانه لا يبرر تقاعسه بهذه الأفكار الخاطئة ، و هكذا استخدم السياق القرآني هذين الاسلوبين كما سوف نرى.

و الآية تدعو الى وحدة الأمة الإسلامية ، أما ما نراه اليوم من تعدد الدول الإسلامية و تعدد ألانــظمة الحاكمة فيها فهو خلاف المنهج القرآني القويم و هو السر في تخلفنا و شقائنا.

] [93]و تقطعوا أمرهم بينهم[

بدل أن يقول القرآن " و تقطعوا رسالاتهم " قال : " و تقطعوا أمرهم " ، لعله لكي يوضح بانه حتى ولو اختلف الناس في الدين ، فان الدين لا يختلف لأنه واحد ، و عندما يتقطع الناس أمرهم ، و يختلفون في الرسالات و الرسل ، إنطلاقا من أهوائهمو مصالحهم المادية في الدنيــا ، فهذا سيضــعهم أمام مسؤولية خطيرة بين يدي الله سبحانه و تعالى يوم القيامة.

]كل إلينا راجعون[

الجميع يعودون إلينا ، و لكن لا نقيسهم بأمرهم ، إنما نقيسهم بامرنا (أي برسالاتنا) و رسالاتنا واحدة ، و حكمنا واحد.

[94]و حينما يقول الانسان : أنا مسلم ، نسأله أولا : ما هو عملك ؟ ، أو يقول : أنا أنتمي الى السيد المسيح (ع) ، نقول له : المسيح يجازى بعمله و أنت تجازى بعملك و حدك.

]فمن يعمل من الصالحات و هو مؤمن فلا كفران لسعيه]إعمل أي شيء من الصالحات قليلا كان أو كثيرا فانك ستراه و ستشكر على سعيك و تعطى عليه الجزاء المناسب ، إن كنت مؤمنا.

]و إنا له كاتبون[

مادام القلم بيد الله ، و السجل بيده ، فهو لا ينسى عملك ، فلا تقل : إن هذا العمل لا أحد يعلم به ، فما الفائدة من القيام به ؟ ، و نجد في كلمة " من الصالحات " إشارة الى إن على الانسان أن لا يستصغر أي عمل يكون فيه خير ، لأن أعمال الخير الصغيرة عندما تتجمع فانها ستكون أعمالا عظيمة ، يظهر أثرها في المجتمع على المدى القريب أو البعيد.

دع هذا الاحساس ينمو عندك : بأن الله يراقبك و يسجل كل كبيرة و صغيرة من أعمالك الحسنة ، آنئذ

تندفع الى العمل بروح عالية و أمل مشرق.

] [95]و حرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون]إن تلك القرى (أي الأمم و المجتمعات التي يدمرها الله بسبب كفرها و أعمالها المنحرفة) لن تعود الى الحياة أبدا ، و هذا ما يؤيده حديث منقول عن الامام أبي جعفر الباقر (ع) حول القيامة الصغرى (١) ، و هناك معنى آخر للآية الكريمة قاله بعض(١) راجع تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٦٠.

المفسرين:

"إن القرية التي تهلك تعود الى الجزاء ، و هذا المعنى يفهم من سائر الآيات القرآنيــة أيضا ، فتكون الآية مشيرة الى إن هناك ساعتي هلاك للأمم الظالمة : ساعة خاصة بها ، و ساعة للكون كله ، وهي الساعة العظمى و القيامة الكبرى.

نهاية الحضارات

] [96]حتى إذا فتحت يأجوج و مأجوج و هم من كل حدب ينسلون[

أي إن الطريق أمام يأجوج و مأجوج قد انفتح ، فيندفعون مسرعين من الأماكن المرتفعة ليغزوا بلدان العالم ، - أما ذلك السد الذي ذكره القرآن في سورة الكهف - فيكون آنذاك قد انهار ، و ياجوج ومأجوج الذين هم رمز الخراب يكونون قد جاؤوا ، يقول بعض علماء الحضارة: بأن الحضارة أشبه ما تكون بشجرة إذا مر عليها الزمان تتسوس من داخلها ولكنها تبقى قائمة الى أن يأتي من الخارج من يقوم بتحريكها حركة بسيطة فتقع على الأرض ، و هكذا الحضارات يعيث بداخلها الفساد و لكنها تبقى الى أن تأتي موجة بربرية من أطرافها فتقضي عليهاقضاء نهائيا ، و هذه نهاية كل الحضارات في التأريخ.

و لعل هذه الآية تلمح الى إن نهاية الحضارات البشرية تجري هكذا ، باعتبار إن يأجوج و مأجوج قوم برابره همجيون ، يهجمون على هذه المجتمعات و ينهونها.

و يبدو إنه قبل قيام الساعة ستكون هناك موجة بربرية ، و إن الله سبحانه شاء أن ينهي حياة الانسان بيد الانسان نفسه ، أو ليس الظالم سيفه ينتقم به ، و ينتقم منه.

الوعد الحق:

] [97]و اقترب الوعد الحق[

إذا جاء هؤلاء فاعلم بأن الساعة باتت قريبة ، و إذا جاءت الساعة فالانسان لا يعرف ماذا يعمل ، انه يفقد إرادته و يسيطر عليه الخوف ، و ترى عينه قد وقفت في اتجاه محدد لا تتحول عنه يمنه أو يسرة من هول الموقف و شدة الرعب ، لذا يقول القرآن:

]فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا]ترى هؤلاء يقولون : إنهم كانوا غافلين عن هذا ، و لكنهم سرعان ما يتذكرون إن غفلتــهم كانــت منهم أنفسهم ، و لذلك لا تكون مبررة لرفع المسؤولية عنهم ، فقالوا:

]بل كنا ظالمين[

[98]وهذه الأصنام التي تعبد من دون الله ، و يعتقد الانسان انها تكفيه المسؤولــية ، هي و الذين يعبدون سوف يصبحون وقود جهنم ، و يخلدون فيها مهانين ، فكــيف تعبد أيها الانسان هذا الصنم الذي ينبذ في الجحيم ، و يحترق في النار ، و تعتقد أنه سوف ينصرك من دون الله ؟!

]إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون][٩٩] [لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها[

لأن الآلهة لا يعقل أن تدخل جهنم.

]وكل فيها خالدون[

الذين عبدوا و الذين عبدوا من دون الله راضين بذلك.

و الولاءات التي يعتقد الانسان انها تكفيه مسؤوليته في الحياة نوعان:

- 1الولاء للصالحين و لكن بصورة خاطئة إتخاذ هذا الولاء بديلا عن العمل ، فمن يوالي رسول الله محمد (ص) ولا يعمل بسنته و تعاليمه ، فانه لن يستفيد شيئا من ولائه.

- 2الولاءات المنحرفة من أساسها كالولاء لرئيس العشيرة ، لرئيس التجمع ، للطاغوت ، لصاحب المال ، لصاحب الجاه ، من دون تقوى.

هـذه الـولاءات خاطئـة من أساسها ، لأن الله سبحانه لم يأذن للانسان باتباع أحد ، إلا أولئك الذين عينهم في القرآن الكريم أو عرفهم عبر بصائر الذكر الحكيم.

] [100]لهم فيها زفير و هم فيها لا يسمعون[

إنهم لا يملكون سوى الصراخ ، و لكنهم من شدة العذاب و الألم لا يسمعون صراخ بعضهم.

ا لذين سبقت لهم الحسنى:

(101]إن المؤمنين الصادقين بعيدون عن نار جهنم ، و هم في شغل فاكهون يتنعمون في الجنة ، بينما هناك أناس يحترقون بالنيران الملتهبة ، و قد صمت آذانهم من شدة زفيرها حتى فقدت حاسة السمع ، تلك النعمة العظيمة التي لم يشكروا الله عليها في الدنيا و لم يستعملوها في طاعته.

]إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون]و الحسنى هي الرسالة الحسنة .. الفكرة الحسنة .. السيرة الحسنة .. وهؤلاء وفقهم الله لها في الدنيا ، و بالتالي فهم مبعدون عن نار جهنم في الآخرة.

] [102]لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون]من نعيم مقيم و حور و ولدان.

] [103]لا يحزنهم الفزع الأكبر و تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون]في الآيات القرآنية تأكيد على هذه الفكرة : إن الانسان في الآخرة ينعم بألوان النعم ، و هذا يكفيه جزاء لأعماله الصالحات و لكن الله يعطيه نعمة ثانية ، بان يرسل اليه الملائكـة ليستقبلوه أحسن استقبال و ينقلوا له شكر الله على أعماله و سلامه عليه ، و هذاتكريم معنوي عظيم.

] [104]يوم نطوى السماء كطى السجيل للكتب[

السجل :هو الغلاف ، و الكتب : هي الأوراق المكتوبة ، فالغلاف يجمع الاوراق المكتوبة و بعد فتح الغلاف تنتشر الأوراق ، هكذا يطوي الله السماوات فتنتهي الدنيا و تقوم الساعة و يأتي يوم الحساب.

هكذا تكون عظمة الساعة ، و لكن مع ذلك يعطي الله السكينة و البشرى للمؤمنين .

و لعل الآية تشير أيضا الى فكرة أخرى هي:

إن إفناء السماوات و الأرض و إعادة خلقها عند الله هو من السهولة مثل الذي يغلق فيها أحدنا كتابا ثم يفتحه مرة أخرى ، وهذا المثال إنما هو لتقريب الأمر الى أذهاننا لا على سبيل المطابقة.

إن تصور هيمنة الله سبحانه على الكون يجعلنا أقرب الى واقعيات الحياة ، و بالتالي الى جدية الحياة و مسؤولياتنا فيها.

]كما بدأنا أول خلق نعيده و عدا علينا إنا كنا فاعلين]هذه الآية تشير الى فكرة علمية و هي أن بداية الخلق دليل على نهايته ، و هذه البداية و تلك النهاية شاهدان يكشفان طبيعة و تفاصيل عودة الخلق ، لأن الخليقة و تطوراتها تسير علــى سنة واحدة لو فهم الانسان تطبيقها على ظاهرة فانه سيفهم تطبيقها على بقية الظواهر.

كلمة أخيرة:

إن المشكلة النفسية هي الأساس ، و من دون معالجتها سوف تستمر الأفكار الباطلةعند الفرد ، هكذا تجد القرآن في آخر سورة الأنبياء يذكرنا باليوم الآخر و يصور لنا مشاهده ، و يثير فينا قوة الخيال ، و هي قوة هامة عند البشر ، و على الانسان أن يستفيد منها في تربية ذاته ، فيقول للانسان تصور وقوفك أمام الله ، و تصور لحظةقيام الساعة ، و تصور حينما ينفتح الطريق أمام يأجوج و مأجوج ؟! كل ذلك لتهتز نفسية الانسان ، و يلين قلبه ، و يكون مستعدا لإصــلاح قناعاته ، و إسقاط حجب التبرير عن نفسه.

رب احكم بالحق

هدى من الآيات

لأن الانسان مسؤول عن أفعاله ، فقد من الله على الصالحين من عباده بوراثة الأرض ، هكذا كتب في الزبور من بعد الذكر.

بهذا الأمل العظيم يبدأ الدرس الأخير من سورة الأنبياء التي حفلت ببيان كرامة الله للمرسلين (ع) و استجابة دعائهم و نجاتهم من قومهم الظالمين.

و يكفي هذا الحديث بلاغا للعابدين.

إن رسالة الله الى النبي محمد (ص) رحمة للعالمين (لا لقوم أو عصر) ، وهذه الرسالة ذات اتجاه واحد ، يتلخص في عبادة الرب الواحد ، وهي رسالة الإسلام .

أما اذا تولوا فانذرهم وأنبئهم - يا رسول الله - إني لا أدري متى يصيبكم ما انذرتكم به عاجلا أم آجلا ، و هكذا تتجلى مسؤولية المجتمع عن أفعاله ، ولا أحد يقدر على الهروب منها الى ظل الكتمان إذ الله سبحانه محيط علما بما يجهرون وما يكتمون من أقوالهم ،)
فيعلم مدى كذبهم في ادعاءاتهم التبريرية. (

و هم يــعتمدون على ما أوتوا من إمكانات ، و لكنها فتنة وبلاء ، و هي موجودة إلى حين.

و يلجأ الرسول الى كهف القدرة الالهية ليحكم بالحق ، و ربنا المستعان على تبريراتهم و دعاياتهم.

بينات من الآيات

[105]يبشـــر الله عباده الصالحين ، بانهم هم الذين يرثون الأرض وما عليها ، ثم يقول : إن هذا بلاغ لأولئك الذين عبدوا الله و سلموا أمورهم لربهم ، ما هي العلاقة بين الآيتين ؟

الواقع ليست الحقيقة غامضة ، بل لها دلائل و شواهد عدة ، و لكن الانسان عادة يصاب بعقدة أو عقيدة فاسدة ، أو غفلة مطبقة ، و عليه أن يبذل المزيد من الجهد لإصلاح نفسه من عقدها و عقائدها الفاسدة ، و كذلك من غفلتها.

إنك مــتى ما خلصت نفسك من عقدها و عقائدها الفاسدة ، و أيقظتها من غفلتها ، آنئذ يمكننا أن نحكم بانك فهمت الحقيقة ، و ليس ذلك فحسب ، بل إن الحقيقة صارت بالغة الوضوح في نفسك.

و يسمي الله سبحانه قوله : " إن الأرض يرثها عبادي الصالحون "بلاغا ، لأن الانســان بعد ما يصفي نفسه من رواسب العقد و العقائد الفاسدة ، و يوقظها من غفلتها ، يكون مستعدا لتلقي هذه الحقيقة و هي وراثة الصالحين الأرض جميعا ، كيف ؟

لأن الحياة مبنية على أساس الصلاح ، و ليس على أساس الفساد ، فلو كان الكون فاسدا لتحطم و زال .

ثم نتساءل ما هي علاقة هذا الأمر بحديثنا في قوله : " عبادي الصالحون "؟

الانسان الصالح هو الذي يسير وفق سنن الله ، ولابد أن يسير منسجما مع مسيرة الكون ، ولابد أن يلتقيها في يوم من الأيام ، أما الانسان الفاسد الذي لا يسير وفق سننه ، فانه من الطبيعي أن يفترق مع مسيرة الكون ، و تكون بينهما هوة تتسع مع الزمن ، و الذي يسيروفق برامج الحق لابد أن يلتقي مع الكون ، أما الذي يسير وفق أهوائه فانه سوف يكون إما وبالا على الكون فينشر فيه فسادا ، أو يكون الكون وبالا عليه فيهلكه أو يدمره.

إن سنن الله في الكون تطبق شئنا أم أبينا ، و إن من يسير وفقها لابد أن يلتقي معــها ، بيــنما الذي يسير ضدها لابد أن ينتهي ، و عنوان هذه السنن هو الصلاح ، و قد بني الكون على الصلاح ، و الصالحون من عباد الله هم الذين يرثون الأرض ، لأنهم يطبقون سنن الله فيها.

]و لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يريثها عبادى الصالحون]ما هو الزبور و الذكر ، و لماذا خصهما الرب بالذكر ، أو ليست هذه سنة إلهية نوهت بها رسالات الله جميعا ؟

بلى ، ولذلك احتمل بعض المفسرين أن يكون الذكر هنا هو القرآن بينما الزبور كل كـــتاب هبط قبله ، فيكون إذا معنى (من بعد) الذكر ما يساوي قولنا بالاضافة الى القرآن.

و لكننا نستظهر من لفظة الزبور نفس معناها عندما استخدمت في موردين ، و أيد بها كتاب داود.

بينما نستوحي من آية سبقة في هذه السورة : إن الذكر يطلق على التوراة ، و يبقى السؤال إذا بماذا اختص داود (ع) من بعد موسى (ع) بهذه البشرى ؟

و الجواب - كما يبدو لي: -

إن الله أنقذ بني إسرائيل ، ذلك القوم المستضعف من سلطة فرعون ، و على يد النبي موسى (ع) ، و أورثهم أرض الظالمين.

كما أعطى لداود حكما و هيأ له أسباب القدرة ، فكان من المناسب أن يذكرهما ، بأن وراثة كل الأرض تكون للصالحين : اولا لكي يكون ما تحقق فعلا على عهدهما شاهدا على ما يتحقق في المستقبل جريا على نهج القرآن في الارتقاء بالقارىء من الحقائق المشهودة الحاضرة ،الى الغيب الأوسع مدى ، و ثانيا و ليعلم كل مؤمن بأن الله سوف يورث الأرض للصالحين من عباده كما فعل في عهد داود و موسى ، فيكون ذلك أملا يبعثه الى المزيد من النشاط ، و بصيرة كونية لمعرفة حركة الكائنات التي تنتهي الى وراثة الأرض جميعا.

هكذا نستوحي من الآية فكرتين

أولا : إن كل مجمــوعة مؤمنة تعبد الله بحق ، و تكون صالحة ، تستحق أن ترث أرضها.

ثانيا :إن كل الأرض سوف تسعد بحكومة عادلة ، إلهية ، و هذه هي التي نجدها فيمــا يسمى بـ (مزامير داود) و الذي بالرغم من وجود تحريفات في كتب العهدين حفظــت لنا الكثير من حقائق الوحي و وصايا الانبياء ، فاننا نقرأ في بعضها ما ترجمته:

"إن الله يعلم أيام الصالحين ، و سيكون ميراثهم أبديا " . (١)و لذلك جاءت النصوص الإسلامية عن

الرسول صلى الله عليه وآله تترى و تبشر بانه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا من أهل البيت بملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا.

و جاء في حديث ماثور عن الامام أبو جعفر (ع) في تفسير هذه الآية : " هم أصحاب المهدي في آخر الزمان " . (٢)الصلاح بين تخلفنا و تقدم الغرب:

الصــلاح مطية التقدم ، ذلك لانه يعني التوافق بين عمل الانسان و سنن الخلائق ، و نتساءل : إذا لماذا تخلفنا و تقدم الغرب الكافر ، هل هم صالحون فعلا ؟

نقول بلى إنهم قد اكتشفوا بعض سنن الله و عملوا بها مثل (السعي - النظام - التخطيط - العطاء) فتقدموا علينا.

إلا إنهم لا يملكون خلفية عقائدية صحيحة و بالتالي إطارا سليما لنشاطهم ،(١ (هناك نصوص كثيرة نقلت في تفسير (نمونه) في هذا الحقل راجع / ج ١٣ / ص 521 ، و هــذا النــص نقله الكتاب المزبور من الترجمة الفارسية لكتاب العهد القديم ، الذي ترجم في عام ١٨٧٨ تحت إشراف مراجع الكنيسة.

(2)تجــد هذيــن النصيــن و نصــوص أخــرى فــي نــور الثقلــين / ج ٣ / ص ٤٦٤ - ٤٦٥.

ولم يهتدوا الى الصراط القويم ، فكانوا كمن يجد السير على غير الطريق الصحيح فتراه يركض ، و يملك من العزيمة على السير ، و وسائل التحرك ما يساعده على الوصول الى الهدف ، إلا إنه أضل الطريق فلا يغنيه السعي و النظام و التخطيط و العطاء شيئا.

هؤلاء (الغرب) حققوا جزء من الشرط الثاني دون الشرط الأول و الأ هم لوراثة الأرض و هو عبادة الله ، فلذلك لن يكونوا المبشرين بوراثة الارض ، لانهم ليسوا عباد الله الصالحين ، بلى انهم يملكون من الصلاح نسبة يجزيهم الله عليها بتقدمهم المحدود و الموقت فيالدنيا ، و عندنا - نحن المسلمين - نسبة من الفساد نتخلف بسببها في الدنيا.

إذا لابد من تطبيق كل الدين حتى نكون صالحين ، و كل الدين هو الذي يجعلنا نتعايش مع سنن الكون و نبشر بوراثة الأرض بقدر تسخيرها في سبيل الله.

] [106]إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين[

إذا لم يكن الانسان عابدا فإنه لن يصل إلى الحقيقة.

] [107]وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[

إن الصيغــة العامــة لرسالات الله جميعا ، و رسالة الإسلام بالذات ، هي الرحمة ، لانها تهدي الناس الى نعم الله ، و الطريق القويم الى الانتفاع بها ، و النهج السليم لبلوغ الأهــداف الســاميــة ، ولذلك جــاء في الحــديث عن الرسول إنه قال : " إنماأنا رحمة مهداة " . (١(

(1)نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٦٦.

و تتميز رسالة نبينا الأكرم (ص) بانها رحمة للعالمين جميعا سواء الأبيض أو الأسود ، العربي و الأعجمي ، و الفقير و الغني ، و الرجال و النساء ، وأنها - كما السحب الهطول ، كما أشعة الشمس ، كما سائر نعم الله - تشمل الجميع بلا استثناء.

يكونوا المبشرين بوراثة الارض ، لانهم ليسوا عباد الله الصالحين ، بلى انهم يملكون من الصلاح نسبة

يجزيهم الله عليها بتقدمهم المحدود و الموقت في الدنيا ، و عندنا - نحن المسلمين - نسبة من الفساد نتخلف بسببها في الدنيا.

إذا لابد من تطبيق كل الدين حتى نكون صالحين ، و كل الدين هو الذي يجعلنا نتعايش مع سنن الكون و نبشر بوراثة الأرض بقدر تسخيرها في سبيل الله.

] [106]إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين[

إذا لم يكن الانسان عابدا فإنه لن يصل إلى الحقيقة.

] [107]وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[

إن الصيغــة العامــة لرسالات الله جميعا ، و رسالة الإسلام بالذات ، هي الرحمة ، لانها تهدي الناس الى نعم الله ، و الطريق القويم الى الانتفاع بها ، و النهج السليم لبلوغ الأهــداف الســاميــة ، ولذلك جــاء في الحــديث عن الرسول إنه قال : " إنماأنا رحمة مهداة " . (١(

(1)نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٦٦.

و تتميز رسالة نبينا الأكرم (ص) بانها رحمة للعالمين جميعا سواء الأبيض أو الأسود ، العربي و الأعجمي ، و الفقير و الغني ، و الرجال و النساء ، وأنها - كما السحب الهطول ، كما أشعة الشمس ، كما سائر نعم الله - تشمل الجميع بلا استثناء.

ولانها رحمة للعالمين ، فان الله سبحانه و تعالى يريدها تسود العالم جميعا حتى تكون وراثة الأرض كل الأرض للصالحين التابعين لهذه الرحمة .. و هذه بشرى لابد أن يسعى كل مؤمن لتحقيقها.

وهناك تفسير آخر لهذه الآية جاء به الأثر الشريف و هو : إن الرسل من قبل سيدنا محمد (ص) بعثوا بالتصريح فاذا كذب الواحد منهم أنزل الله على قومه العذاب ، بينما بعث نبينا بالتعريض فلا يأخذ الله أهل الأرض في عهده بالبلاء الماحق ، و يدل على ذلك ما جاء فيحديث عن أمير المؤمنين (ع) و جهه الى بعض الزنادقة : " وأما قوله لنبيه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وانك ترى أهل المال المخالفة للايمان و من يجري مجراهم من الكفار مقيمين على كفرهم الى هذه الغاية ، و انه لو كان رحمة عليهم لاهتدوا جميعا و نجوا من عذاب السعير ، قال : فان الله تبارك اسمه إنما عنى بذلك انه جعله سبيلا لإنظار أهل هذه الدار ، لأن الأنبياء قبله بعثوا بالتصريح لا بالتعريض ، و كان النبي (ص) منهم إذا صدع بأمر الله و أجابه قومه سلموا و سلم أهل دارهم من سائر الخليقة ، و ان خالفوه هلكواو هلك أهل دارهم بالآفة التي كانت بينهم يتوعدهم بها و يتخوفهم حلولها ونزولها بساحتهم ، من خسف او قذف أو رجف أو ريح أو زلزلة و غير ذلك من أصناف العذاب الذي هلكت به الأمم الخالية ، إن الله علم من نبينا و من الحجج في الأرض الصبر على ما لم يطق من تقدمهم منالأنبياء الصبر على مثله ، فبعثه الله

بالتعريض لا بالتصريح ، و أثبت حجة الله تعريضا لا تصريحا . (١)[١٠٨] لماذا كانت رسالات الله رحمة ، و ما هو جوهر هذه الرحمة الالهية ؟

إن جوهر الرحمة الدعوة الى توحيد الله ، و نبذ الشركاء من دونه ، ذلك لأن تحرر الانسان من عبادة الهوى ، و تمرده على الضغوط ، و خلاصه من نير الطغاة و المستكبرين ، و ارتفاعه الى مستوى (عبادة الله و حده) هو قمة الاستقلال و الحرية و الكرامة.

إن حب الاستقلال و الحرية و الكرامة غريزة فطرية عجنت بها طينة البشر ، و لكن لم يتخلص الناس عمليا من الظلم و الاستعباد ، لماذا ؟

لأن البشر بحاجة الى من يوقظ هذه الفطرة و يثيرها و يبعثها و يعطيه عزمة إرادة و منهج عمل و ضياء

أمل ، و ليس ذلك إلا عند الرسل ، فهم و من سار على نهجهم من عبـاد الله الصالحين يحررون - باذن الله - البشر من القهر و الاستعمار و سيطرة الاقوياء.

]قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون]إنها دعوة بالغة الصراحة الى الاستقلال و الحرية و الكرامة ، و انها لعهد بين الرسول ومن أرسل اليهم بانه لا يريد استعبادهم ، بل تحريرهم ، و لكنه يطالبهم بالتسليم للحق لكي ينجيهم من عبودية الباطل .

[109]ولا يطالبهم الرسول بأجر ، ولا يدعوهم لمصلحة عنده انما يمن الله عليهم إذ ينذرهم بعذاب عظيم هم غافلون عنه و يقطع عذرهم بالجهد لهم بالانذار ، و هو سواء معهم في انه مخاطب أيضا بالانذار كما ان القريب و البعيد منهم شرع سواء.

(1)المصدر / ص ٤٤٦.

]فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون]إيذان شامل لكل الناس و انذار مبين من الله رب العالمين لا دخل للرسول بتفاصيله ، فهو أيضا لا يدري متى يأمر الله بالعذاب ، و اذا لم يكن رسول الله حامل الانذار يدري فمن - يا ترى - يدري ؟ لا أحد ، و لقد قرانا في سورة طه قوله " :إن الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى " ، فجاءت الرواية تفسر الآية : أكاد اخفيها من نفسي لان الله لم يحدد للساعة و قتا.

ياهول المفاجأة ، الساعة آتية بما فيها من فظائع الهول ، و عظائم الأحداث ، و لا يعرف أحد متى!!

إن إخفاء علم الساعة أبلغ أثرا لكي تحسس الانسان بالمسؤولية ، فلو حدد الله ميقات الساعة أو ميقات الموت ، لتكاسل الانسان عن واجبه متعللا بأنه سيتوب قبيل موته ، مثلما قال عمر بن سعد عندما أراد قتل الحسين عليه السلام ، و بعد أن عرضت عليه السلطة الأموية: (ملك الري) إن هو قتل الحسين (ع (، قال وهو يناجي نفسه و يحاول تبرير قراره الاجرامي:

و والله لا أدري و إني لحائر أفكر في أمري على خطرينأأترك ملك الري و الري منيتي أم أرجع مأثوما بقتل حسينحسين ابن عمي و الحوادث جمة ولي في الري قرة عينيقولون : إن الله خالق جنة ونار و تعذيب وغل يدينفإن صدقوا فيما يقولون إنني أتوب إلى الرحمن من سنتينوإن إله الكون يغفر زلتي وإن كنت فيها أرذل الثقلينوإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة وملك عظيم دائم الحجلينإن الله سبحانه ينسف هذه الفكرة باخفاء الساعة ، فمن يقول إنك تعيش الى سنتين حتى تتقرب فيها الى الله.

و هكذا نقرأ في وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لابنه الحسن (عليهما السلام: (

... "واعلم يا بني إنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا و للفناء لا للبقاء ، و للموت لا للحياة و انك في منزل قلعة - أي لا يدري ساكنه متى ينتقل عنه -ودار بلغه - أي يؤخذ منه الكفاية للآخرة - و طريق الى الآخرة ، و انك طريد الموت الذي لا ينجو هاربه ،ولا يفوته طالبه ، ولابد انه مدركه ، فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حالة سيئة ، قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك و بين ذلك ، فاذا أنت قد أهلكت نفسك " . (١)إن وفاة الانسان كما وفاة المجتمعات غير معلومة ، وهكذا الساعة.

[110]و بإزاء جهلنا نحن البشر بيوم الحسرة و ساعة قيام الناس للحساب يعلم الله ما ظهر منا و ما بطن.

]إنه يعلم الجهر من القول و يعلم ما تكتمون[

و لعل الانسان يخفي غير ما يقول ، و يبرر جرائمه بشتى الاساليب ، فالله محيط علما بما يكتمه و لذلك عليه ألا يظن انه يخدع ربه أو يلتف على قوانينه و يتهرب من(١) ٣١ / وصايا أمير المؤمنين (ع) نهج البلاغة ٤٠٠.

مسؤولياته الشرعية إنما عليه أن يطهر قلبه من الأفكار الباطلة ، و وساوس الشيطان و تسولات النفس الأمارة بالسوء.

[111]أما نعم الحياة التي يرفل بها الظالمون المستكبرون اليوم ، و يحسبون انها تخلدهم ، بل يزعم بعضهم انها دليل رضا الله عنهم ، فانها قد تكون فتنة و بلاء و لعل متاعها قليل و الى أمد قريب.

]وإن أدري لعله فتنة لكم و متاع إلى حين[

[112] الحق محور خلق الكائنات و قد أمهل الرب برحمته عباده ، فلا ياخذهم بما يكسبون اليوم ، ولو أخذهم لما ترك على ظهر الأرض من دابة.

بيد ان الحق بالتالي مقياس أعمال الناس و ميزان جزائهم ، إليه يعودون آجلا أم عاجلا.

]قال رب احكم بالحق و ربنا الرحمن المستعان على ما تصفون]بالله الرحمن يستعين الرسول و من يسير على نهجه على الأقاويل الباطلة ، و التبريرات الزائفة و الحجج الواهية.

ونستوحي من الآية فكرتين:

- 1 إن الله يحكم بالحق ، إستجابة لدعاء الرسول ، حيث جاء في الأثر إنه (ص (كان يدعو بهذا الدعاء كلما خاض معركة ضد المشركين ، مما يدل بأن على الانسان ألا يتكاسل عن الجد و الجهاد ثم يكتفي بالدعاء .. و العكس غير صحيح أيضا فلا يصح أن يعتمد الانسان على عمله فلا يدعو ربه.

- 2 وهو الذي يرزق عباده الصالحين - إذا دعوه - نورا يمشون به بين الناس ، و يميزون به الحق عن الأباطيل التي يصفها الكفار ، و يعطيهم قوة لردها ، و مقاومة الاعلام المضلل الذي يدعم الطغاة و الكفرة.